التحول الجديد في تصور المادة

للدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا *

لقد كانت الفيزياء معقل الحتمية Déterminisme التي كانت — ولا تزال — تدعي تفسير الشيء « بكل ما يحيط به ، بما ليس هو ، بمجموع ارتباطاته البعيدة » . أما الكائنات الحية فقد استطاعت ان تفلت نوعاً ما من قبضتها ، وتساهل العلماء في امرها كثيراً . لكن المادة ، « الامتداد الذهني » الذي جُرد من لدن ديكارت عن كل صفة حية وعن كل صفة غيبية ، أليس الفاضح حقاً ان نتخيل انها لاتخضع للقوانين التي تسيطر على القوى الكونية ، وان نفترض وجود منـاطق تصبح فيهـا هذه القوانين معطلة وعناصر لايصل اليها فعلها ؟

(*) استاذ الفلسفة بجامعة بيروت العربية .

أجل ، هـذه هي المغامرة التي يحياها دارسو العالم في صعيده الأدنى Microphysique [١] . وان تعجب فاعجب للذرة الفجواء[٢] الهشة[٣] التي قضت على التصور الديموقريطي القديم للذرة الملأى المتراصة . والاغرب من هذا ان بنية الذرة رغم تركيبها المتفاصل[٤] Discontinue هي بمعنى ما مستقرة وغير مستقرة في آن واحد : فالذرة بناء متوازن غاية التوازن من شأنه ان يقاوم جميع التأثيرات التي تحـاول تفكيكه . نعم ، يمكن — نظريا — زيادة الكترون واحد على الالكترونات التي تدور حول نواة الذرة او انقاصه لخلق عنصر كيماوي جديد ، لكن اجراء هذا التبديل دونه خرط القتاد ، اذ لابد له من شحنات كهربائية مرتفعة جداً . فالذرة لها فردية جبارة تستطيع ان تقيم توازناً موقوتاً ، وأن تستعيد الالكترونات المفقودة ، ولها نوع من الاستقلال البنائي حتى لقد اصبح من الممكن ان يطبق عليها فكرة « التنازع على البقاء » وان نقول بان « خصائص الحياة موجودة في المـادة » . هذا من ناحية . ومن ناحية اخرى ان عدداً من العناصر تتبدل من تلقاء ذاتها ، بما يدل على ان الاستقرار في الذرة امر نسبي الى مدى بعيد بل هو ينعدم في حالات غامضة لاتعرف أسبابها . وعلاوة على هـذا فان فردية الجسيمات والدقائق المادية اصبح العلماء يمارون فيها ، فاذا كانت الفردية واستمرار الهوية الواحدة من اخص خصائص العالم في صعيده الاعلى ، صعيد الاجسام المحسوسة ، فانها عرض زائل لامعنى له في العالم على الصعيد الادنى ، حيث تتداخل الهويات الفردية ويأخذ بعضها مكان بعض ويعتدي بعضها على بعض .

---

(١) أي عالم الذرات فما دونها .

(٢) ذات فجوات وفراغات اكثر من مادتها .

(٣) التي يمكن تحطيمها .

(٤) المؤلف من دقائق منفصل بعضها عن بعض .

بل ان العلماء يتكلمون اليوم عن « خلق » و « اعدام » بعض الجزيئات (انبعاث وامتصاص الفوتونات والميزونات ، خلق واعدام أزواج الالكترونات الخ) .

فازاء هذه الجزيئات التي « تخلق » او « تنعدم » ، والتي لايبدو انها تخضع في فترة حياتها لأية رابطة سببية بين حالاتها السابقة وحالاتها اللاحقة ، والتي تخبو فرديتها احياناً « حتى لتتلاشى » — ازاء هذا كله هل نستنتج ان العقل بدأ يتخلى عن ذاته امام عالم جديد من اللامعقول اخطر جدا من اللامعقولات التي تناولها مايرسون ؟ هل معنى هذا ان اساس الظواهر الطبيعية اي الواقع الحقيقي في ذاته ، سيظل منيعاً على العقل الى الابد ؟ اننا لانعتقد ذلك .

وهناك امر آخر يدعو الى الحيرة بخاصة بالعالم المشئون : فما دام الفيزيائي يقتصر على دراسة ظواهر بالجملة [1] فانهذه تتصرف وفقاً للقوانين المقررة. ولقد كان يظن ان ذلك ينطبق على الظواهر الذرية ما تحتها . لقد كان يظن على الأخص ان اهتزاز الالكترونات التي تدور في فلك النواة لا بد ان تخضع لنواميس الجاذبية . لكن الرأي الغالب اليوم هو غير ذلك ، وان كافة تصوراتنا التقليدية الخاصة بالزمان والمكان والعلية (السببية) والفردية وموضوعية العالم الفيزيائي يجب ان يعاد النظر فيها على ضوء كشوف الفيزياء الحديثة ولا سيما الميكانيكا الكمومية mécanique quantique فالعلية القائمة على الحتمية او « العلية القوية » لا بد ان تفسح المجال لتصور جديد مرن مؤداه ان « العلة لا تزال شرطاً للمعلول ، لكنها قابلة لأن ينتج عنها آثار متنوعة محتوية على شتى الاحتمالات » . وهذا مايطلق عليه دي بروي De Broglie اسم « العلية الضعيفة » .

---

(١) ظواهر متصلة بالعالم على الصعيد الاعلى Macrophysique أي عالمنا المحسوس الذي يتألف من وحدات لايمكن تناولها فرادى ، بل بالجملة وعلى نحو احصائي فقط .

ومن اهم الحلول التي اتجه اليها العلماء لتفسير العلية في وجهها الجديد القول بفكرة « السببية الجوانيـــة » في مقابل السببية البرانية او الفاعلة او المتعدية التي كان معمولاً بها حتى اليوم والتي بموجبها تنتقل قوة خفية من جسم الى آخر ، من السبب الى المسبّب ، من العلة الى المعلول ، بحار العلماء في فهمها. فاما السببية الجوانية فتنحصر في الفرد ذاته ولا تتعداه إلى غيره سواء كان هذا الفرد الكترونآً او انساناً. فالقول بهذه السببية الجديدة يتيح لفكرة السببية ان تنطبق بدون استثناء على جميع ظواهر الوجود على العالم في صعيده الادنى او الاعلى. ففي صميم كل فرد — ذرة كان او انساناً — تسود سببية جوانيـــة هي العلة الاولى لجميع تحققاته ، مهما تكن الاسماء التي نخلعها على هذه التحققات : سلوك ، عمليات ، تطور ، صيرورة الخ . فكل موجود انما هو « موضوع » (بالمعنى المنطقي) يتضمن جميع « محمولاته » التي هو علة لها . وسنبحث هذه المسألة ، في مقال قادم على وجه اكثر تفصيلاً .

ان العلم وبخاصة الفلسفة لم يهيئا بعد — من الوجهة المذهبية — لتلقف مكتشفات بلغت هذه الدرجة من الغرابة. وثمة اقلية ضئيلة من العلماء لايزالون يجاهدون لانقاذ مايمكن انقاذه من الحتمية القديمة التي ترعرع العلم في ظلها منذ ثلاثة قرون . وثمة آخرون متطرفون يقولون باللاحتمية . واما الفلاسفة فما زالوا على عهدنا بهم جموداً وحيرة واستمساكاً بعادات العقل وتقاليده . ولعل فريقاً منهم قد بدأوا يرجعون عن افكارهم المتيبسة التي حاكتها اجيال من التفلسف العقيم ليسايروا هذا الانقلاب الجديد في العلم والفكر .

حول السوق العربية المشتركة

بقلم يحيى عرودكي *

من سمات مطلع النصف الثاني للقرن العشرين ظهور مجموعة من التكتلات الاقتصادية في العالم. ذلك أن الحرب العالمية الثانية وما خلفته من الآثار في مختلف النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، ليس فقط في البلدان التي اجتاحتها نيران تلك الحرب وانما في معظم بقاع العالم التي تأثرت بها من قريب أو بعيد ، قد استدعى قيام معظم تلك التكتلات الاقتصادية جنباً الى جنب مع التنظيمات السياسية التي قامت في مختلف المناطق والاقطار .

* مدير الشؤون الاقتصادية والمالية في وزارة الاقتصاد والتجارة الخارجية .

وهكذا فقد قامت السوق الأوربية المشتركة في منطقة هامة من أوربا الغربية بديلا لاتحاد الفحم والحديد ومشروع مارشال بين البلدان التي كان الاتحاد بينها. وقامت منطقة التبادل الحر في منطقة اخرى من أوربا الغربية تنظيماً موازياً للسوق الأوربية المشتركة بين الدول التي لم تلتق مصالحها مع دول هذ السوق.

وفي الطرف الآخر من اوربا قامت بين الدول الاشتراكية منظمة سميت [مجلس المساعدة الاقتصادية بين الدول الاشتراكية (كوميكون)]. وفي امريكا الجنوبية قامت منظمة التعاون بين بلدان امريكا اللاتينية، وفي جنوبي شرقي آسيا وفي افريقيا قامت منظمات مماثلة.

ولقد جاء الحديث عن السوق العربية المشتركة ثم قيامها بين بعض الدول العربية خلال تلك الحقبة يحمل في طياته طابع تلك الظروف من جهة، كما يعبر من جهة أخرى عن مختلف الاسباب والعوامل التي كانت تلح لاقامة هذه المنظمة في منطقة هامة من العالم.

١ ــ عوامل قيام السوق العربية المشتركة

هناك مجموعة من الاعتبارات حملت على تحقيق هذا الحدث العربي الكبير في عام ١٩٦٤ بعضها تاريخي قومي يتعلق بمطمح تحقيق الوحدة العربية واقامة الدولة العربية الكبرى، وبعضها استراتيجي يتعلق بالموقع الجغرافي المتاز الذي تشغله البلاد العربية من الخليج العربي حتى المحيط الاطلسي بشكل يساعدها على حماية مصالحها والدفاع عنها من سيطرة الاستعمار وتمكنها من استئصال (اسرائيل) من قلب الوطن العربي.

وبعضها الآخر اقتصادي ينطلق من التطورات الاقتصادية والاجتماعية التي حدثت في العالم أجمع في أعقاب الحرب العالمية الثانية وذاك التوسع الكبير في الانتاج وطرقه واساليبه واشكال تسويقه وقيام التكتلات الاقتصادية في العالم سبيلاً من سبل المنافسة الاقتصادية بين ارجائه المختلفة بحيث لم يعد من مصلحة الدول العربية ان تقف مكتوفة الايدي وهي على ماهي عليه من الضعف والتفكك معرضة للضياع في خضم تلك التكتلات والمنازعات الدولية وهي التي تشغل مساحات واسعة في منطقة هامة من العالم وتتوفر لديها ثروات عديدة يأتي في مقدمتها البترول وتنتج مواد أساسية وأولية لها قيمتها في الانتاج والتصنيع والتموين كالقطن والصوف والجلود والحبوب ... وغيرها.

واذا كان قيام السوق العربية المشتركة قد حدث في عام ١٩٦٤ فان فكرة السوق كانت تراود افكار المسؤولين والاختصاصيين العرب عندما كان البحث يدور في أروقة

جامعة الدول العربية عام ١٩٥٣ عن الصيغة العملية لتجسيد التعاون الاقتصادي العربي، وقد بقيت هذه الفكرة أملاً بعد أن وضعت اتفاقية تسهيل التبادل التجاري وتنظيم تجارة الترانزيت بين دول الجامعة العربية في عام ١٩٥٣ التي اقتصرت على اقرار تخفيضات محدودة في الرسوم الجمركية لمنتجات الدول الاعضاء ثم عاد ذلك الامل من جديد للظهور بعد ان دخلت الاستعدادات لانشاء السوق الاوربية المشتركة وما كانت تبذله اسرائيل للانضمام اليها ، طورها الجدي ، اذ رأت الدول العربية انه من الضروري مجابهة هـذا التكتل الاقتصادي والآثار والاخطار التي قد تلحق باقتصادياتها بتكتل اقتصادي عربي مماثل، فبدأت الابحاث والدراسات اللازمة بهذا الشأن وانتهت في حزيران ١٩٦٢ بتوقيع اتفاقية الوحدة الاقتصادية العربية بين كل من الدول التالية :

الجمهورية العربية السورية ، الجمهورية العربية المتحدة ، الجمهورية العراقية ، المملكة الاردنية ، المملكة المغربية ، دولة الكويت ، جمهورية اليمن .

غير أنه لم يصدق عليها ويضعها موضع التنفيـذ من هذه الدول كل من المملكة المغربية وجمهورية اليمن . وبذلك تكون قد نفذت بين بقية الدول منذ تاريخ ١٩٦٤/٤/٢٣، ومنها تألف مجلس الوحدة الاقتصادية العربية .

وقد وضع هذا المجلس خطة بحث لاتباع منهج عملي في تنفيذ أحكام اتفاقية الوحدة الاقتصادية العربية وكلف اللجان التي ألفها دراسة موضوع إقامة السوق العربية المشتركة كمرحلة اولى من مراحل تحقيق الوحدة المذكورة وانتهت هـذه الدراسة باعداد مشروع قرار باحداث هذه السوق واحكامها وأقره المجلس بتاريخ ١٩٦٤/٨/٢٣ برقم (١٧) وقد نص في هذا القرار على أن يبدأ العمل باحكام السوق اعتباراً من مطلع عام ١٩٦٥ وعلى أن تحقق على مراحل تنتهي في غاية عام ١٩٧٤ .

وهكذا يتضح أن السوق العربية المشتركة لم تحدث بموجب معاهدة او اتفاقية خاصة بها وانمـا احدثت بقرار من مجلس الوحدة الاقتصادية العربية على اعتبارها مرحلة من مراحل تحقيق الوحدة الاقتصادية العربية في حين أن السوق الاوربية المشتركة قامت بين الدول الاعضاء فيها بموجب معاهدة روما الموقعة بين هذه الدول في عام ١٩٥٧ .

٢ ــ اهداف السوق

أكد قرار انشاء السوق العربية المشتركة بوضوح على ضرورة تحقيق الاهداف التالية:

آ ـــ حرية انتقال الاشخاص ورؤوس الأموال

ب ـــ حرية تبادل البضائع والمنتجات الوطنية والأجنبية

ج - حرية الاقامة والعمل والاستخدام وممارسة النشاط الاقتصادي

د - حرية النقل والترانزيت واستعمال وسائل النقل والمرافىء والمطارات المدنية.

ومن أجل تحقيق هذه الأهداف فقد تضمنت اتفاقية الوحدة الاقتصادية تحديد المراحل التي يقتضي السير بها والتي تتلخص بالآتي :

١ - جعل بلاد السوق منطقة جمركية واحدة تخضع لادارة موحدة وتوحيد التعرفة والتشريع والانظمة الجمركية المطبقة في كل منها .

٢ - توحيد سياسة الاستيراد والتصدير والانظمة المتعلقة بها .

٣ - توحيد انظمة النقل والترانزيت .

٤ - عقد الاتفاقات التجارية واتفاقات المدفوعات مع البلدان الأخرى بصورة مشتركة .

٥ - تنسيق السياسات الزراعية والتجارية والصناعية وتوحيد التشريع الاقتصادي بشكل يكفل لرعايا البلاد المتعاقدة عندما يعملون في الزراعة او الصناعة او التجارة او المهن شروطاً متكافئة .

٦ - تنسيق السياسات النقدية والمالية والانظمة المتعلقة بها تمهيداً لتوحيد النقد بها.

٧ - تنسيق تشريعات الضرائب والرسوم وتلافي ازدواج الضرائب والرسوم على المكلفين من رعايا الدول المتعاقدة .

٨ - تنسيق تشريعات العمل والضمان الاجتماعي .

٩ - توحيد اساليب التبويب والتصنيف الاحصائية .

١٠ - وكذلك اتخاذ أية اجراءات أخرى تلزم لتحقيق الاهداف والوسائل المشار اليها .

وتجدر الاشارة الى ان اهداف السوق تمثل في الواقع معظم الأهداف التي نصت عليها اتفاقية الوحدة الاقتصادية العربية ، وقد أوكل الى السوق أمر تحقيقها باعتبار أن السوق مرحلة من مراحل تحقيق تلك الوحدة .

واذا ماقورنت اهداف السوق العربية المشتركة والطرق المرسومة لتحقيقها مع اهداف السوق الاوروبية المشتركة ، وأخذنا بعين الاعتبار النمو الاقتصادي والاجتماعي ومختلف الظروف الموضوعية للدول الاعضاء في كل من هاتين المنظمتين وأدخلنا في الحساب واقع التجزئة بين البلدان العربية وما يحاوله الاستعمار من الابقاء على هذه التجزئة ومحاربة كل خطوة تهدف الى تحقيق الوحدة العربية وهو مالم تواجهه السوق الأوروبية المشتركة التي كانت تجد وعياً في الداخل على مختلف المستويات ودعماً قوياً من

الخارج ، لتبين لنا ان قرار انشاء السوق العربية المشتركة كان خطوة كبرى وعملاً بالغ الجرأة في ظروف صعبة .

الانتساب للسوق والانسحاب منها

حصر مجلس الوحدة الاقتصادية العربية حق الانتساب للسوق العربية المشتركة بالدول التي وقعت وصدقت على اتفاقية الوحدة الاقتصادية دون غيرها من الدول العربية الاخرى . وقد اعتمد في ذلك الاسباب التالية :

١ — ان السوق قد احدثت بقرار من هذا المجلس وهو بذلك يعتبر السلطة العليا للسوق ، وبالتالي فان الدول التي تنضم للسوق يجب ان تخضع وتطبق الأحكام التي يصدرها ، وبما أن الدول التي لاتكون قد وقعت وصدقت اتفاقية الوحدة لن تكون ممثلة في المجلس فان حقها في مناقشة وبحث القرارات التي يصدرها تكون معدومة وبذلك تفقد جانباً اساسياً وهاماً في أمر ادارة السوق .

٢ — أن السوق قد نصت على تحقيق جوانب هامة من الاهداف التي نصت عليها اتفاقية الوحدة ، وهي جوانب مرحلية ستتبعها الجوانب الاخرى من هذه الاهداف في الخطوات المرحلية التالية ، أي أن الدول الاعضاء في السوق واتفاقية الوحدة ستتحمل الغرم وتحصل على الغنم ، في حين ان الدول التي تود الانضمام للسوق دون اتفاقية الوحدة ستحصل على الغنم دون ان تتحمل الغرم وبذلك يفقد عنصر المساواة بين مختلف الدول الاعضاء .

٣ — ان احكام اتفاقية الوحدة الاقتصادية هي الاساس المعتمد في كل مالم يرد النص عليه في قرار انشاء السوق ، وليس من المقبول ان تطبق نصوص هذه الاتفاقية على دولة لم توقع عليها وتصدقها . لأن الالتزام بها مفقود في الاصل .

واذا كانت هناك بعض الاصوات تنادي بفتح باب الانتساب للسوق أمام جميع الدول العربية دون اشتراط توقيعها وتصديقها اتفاقية الوحدة الاقتصادية ، على أنه عامل قوة للسوق ، وأن من شأن شعور مثل هذه الدول بفائدة السوق وجدواها سيحملها على الانضمام لاتفاقية الوحدة الاقتصادية العربية ، فانه لابد عندئذ من أجل الأخذ بمثل هذه الآراء — اذا كتب لها الرجحان — من اعادة النظر في اساس انشاء السوق وفي الرابطة التعاقدية التي ربطت الدول الاعضاء بهــا وبالمقررات التي يصدرها مجلس الوحدة بشأنها .

أما بشأن الانسحاب من السوق فانه ينطبق عليه ماينطبق على الانسحاب من

اتفاقية الوحدة الاقتصادية الذي يشترط لصحته أن يتم بعد مرور خمس سنوات بعد انقضاء فترة الانتقال ، ويصبح نافذاً بعد مرور سنة واحدة من تاريخ اعلان الرغبة بالانسحاب . وهذا الموضوع يعتبر ايضاً من المواضيع التي ترجح جانب اشتراط التوقيع على اتفاقية الوحدة للدخول الى السوق .

٣ ــ المراحل التي قطعتها السوق العربية المشتركة

بدخول عام ١٩٦٧ بدأت المرحلة الثالثة من مراحل السوق العربية المشتركة ، وهي التي حددها قرار انشاء السوق بعشر سنوات يمكن تمديدها بخمس سنوات اخرى عند الضرورة وفيما يلي اهم الخطوات التي تمت خلال المرحلتين السابقتين :

١ ــ تثبتت الدول الاعضاء في السوق لدى مجلس الوحدة الوضع الذي كانت عليه الرسوم والضرائب والقيود الادارية المفروضة لدى كل منها على تبادل البضائع بتاريخ انشاء السوق الواقع في ١٣/٨/١٩٦٤ لتكون اساساً للتخفيضات التي ستطبق في مراحل السوق .

٢ ــ بدأت كل من الدول الاعضاء في تطبيق التخفيضات في الرسوم الجمركية وفي التحرير من القيود الادارية على استيراد السلع المستوردة والسلع المصدرة فيما بينها التي نص عليها قرار انشاء السوق .

وتبلغ التخفيضات التي تتمتع بها الآن المنتجات الزراعية والحيوانية والثروات الطبيعية التي كانت تخضع للرسوم الكاملة عند بدء السوق ٤٠٪ كما تبلغ التخفيضات التي تتمتع بهـا المنتجات الصناعية التي كانت تخضع للرسوم الكاملة عند بدء السوق ٣٠٪ والمنتجات التي كانت تتمتع بتخفيض قدره (٢٥٪) عند بدء السوق (٤٥٪) ولتلك التي كانت تتمتع بتخفيض قدره (٥٠٪) عند بدء السوق (٧٠٪) كما بلغت السلع التي حررت من القيود الادارية التي كانت مفروضة عليها عند بدء السوق ٤٠٪ من مجموع السلع المدرجة في القوائم التي ثبتت لدى المجلس بتاريخ ١٣/٨/١٩٦٤ .

٣ ــ وافقت الدول الاعضاء على سحب التحفظات التي كانت ابدتها بالنسبة لبعض المنتجات حماية للصناعة المحلية او للموارد الجمركية باستثناء (١٦) بنداً وافق المجلس على قبولها بالنسبة للمملكة الاردنية حماية لمواردها الجمركية .

٤ ــ انجزت دراسة مشروع القانون الجمركي الموحد من قبل اللجنة الجمركية واحيل لدول السوق لبيان ملاحظاتها عليه تمهيداً لاصداره على ضوئها .

٥ ــ انجز الخبراء اعداد مشروع الادارة الجمركية الموحدة واحيل لدول السوق لبيان ملاحظاتها عليه تمهيداً لاصداره على ضوئها .

٦ – أقر مجلس الوحدة إقامة اتحاد عربي للمدفوعات واحيل المشروع اللازم لدول السوق لبيان ملاحظاتها عليه تمهيداً لاصداره بعد ان تكون تلك الدول قد اوضحت رأيها حول رأسماله ومقدار مساهمتها به.

٧ – باشرت اللجنة النقدية والمالية دراساتها حول تنسيق التشريعات والانظمة المالية والضرائبية بين الدول الاعضاء، كما باشرت دراساتها حول تنسيق التشريعات والانظمة النقدية بين الدول الاعضاء.

٨ – باشرت اللجنة المكلفة باعداد الدراسات الخاصة بالتنسيق الصناعي مهمتها وطلبت من الدول الاعضاء تزويدها بالتشريعات والانظمة وبمجموعة من الاحصاءات والبيانات المتعلقة بالقطاع الصناعي لدى كل منها عن خططها بشأن هذا القطاع في المستقبل.

٩ – وبالنسبة للتنسيق الزراعي والتجاري فان اللجنتين المكلفتين باعداد الدراسات الخاصة بهذا التنسيق قد باشرتا مهمتها وطلبتا من الدول الاعضاء تزويدها بالتشريعات والانظمة وبمجموعة من الاحصاءات والبيانات اللازمة لانجاز مهمتها.

٤ – مستقبل السوق العربية المشتركة :

اذا كان يصح في معظم الامور اعتماد وقائع الماضي في استشراء احداث المستقبل فان ذلك لايمكن ان ينطبق في امور المبادلات التجارية بين الدول فكثيراً ما تكون هذه المبادلات بين بلدين في أدنى مستوى لها في فترة من الفترات ثم لاتلبث ان تنعكس الآية فتزداد بينها في فترة اخرى زيادة ملحوظة، واذا كان الامر على هذه الصورة بين بلدين فحري أن يكون كذلك بين دول السوق العربية المشتركة.

وهذا مايجعلنا نميل الى القول بأن تقدير مستقبل هذه السوق يجب ألا يبنى على أساس احصاءات المرحلة الاولى او الثانية التي ظهر منها أن المبادلات بين الدول الأعضاء لم تحقق نمواً وانما حققت انخفاضاً على خلاف ماهو منتظر منها.

وطبيعي ان مثل ذلك التقدير يجب أن يعتمد عناصر اخرى اكثر عمقاً وثباتاً واكثر أثراً في بقاء السوق ورقي المبادلات التجارية بين اعضائها ومن ابرز هذه العناصر:

١ – واقع اقتصاديات الدول العربية سواء من حيث كونها من زمرة الاقتصاديات النامية او من حيث توفر العناصر والمقومات لقيام سوق مشتركة بينها، وهذا الواقع يزداد وضوحاً مع الايام وتزداد معه الحاجة لايجاد تنسيق وتكامل بين الاقتصاديات القطرية نتيجة النمو المقدر لها وضيق السوق القطرية عن استيعاب انتاجها المحلي اذا لم يتم مثل هذا التنسيق داخل سوق مشتركة.

٢ — مقابلة التكتلات الاقتصادية في العالم بتكتل اقتصادي عربي ، ومثل هذا التكتل تبدو الحاجة اليه اليوم اكثر من الماضي بعد الخطوات التي سارتها التكتلات الاقتصادية الاخرى وفي مقدمتها السوق الاوروبية المشتركة ، ومن المقدر ان تزداد هذه الحاجة اكثر فأكثر في السنوات القادمة كلما مضت تلك التكتلات اشواطاً اخرى في سيرها وتحقيق أهدافها.

٣ — احكام السوق العربية المشتركة وماتتضمنه من الاسس والمقومات الكافية لبقاء السوق ونموها بحيث تجري المبادلات التجارية بين الدول الاعضاء فيها في ظل من الحرية والمنافسة المتكافئة.

٤ — الشعور القومي المتمثل في كون الوحدة العربية مطلباً جماهيريا من الخليج الى المحيط وأن الوحدة الاقتصادية هي الطريق الرئيسية لبلوغ الوحدة السياسية ، وازدياد هذا الشعور في السنوات الاخيرة عما كان عليه من قبل وتوقع زيادته في المستقبل بازدياد الوعي القومي والنمو الفكري لدى شعوب الأمة العربية.

تلك هي أهم العناصر التي تلعب في الوقت الحاضر دوراً هاماً في قيام السوق وستلعب هذا الدور في المستقبل لفترة طويلة ، بشكل يتاح معه للسوق أن تزدهر وتخطى لبلوغ اهدافها فيما اذا توفرت لها عناصر اخرى لاتقل اهمية عن تلك نلخصها بالآتي :

١ — ان تلتزم الدول الاعضاء التزاماً دقيقاً بتنفيذ احكام السوق وقرارات مجلس الوحدة الاقتصادية بشأنها.

٢ — ان يبادر مجلس الوحدة الاقتصادية الى تطوير الاساليب والاجراءات التنفيذية المتبعة في تحقيق اهداف السوق وسد الثغرات الملحوظة بهذا الشأن ، اذ ان من شأن هذا التطوير الاسراع بتحقيق تلك الاهداف وبالتالي ظهور الآثار الايجابية للسوق وتوفير الاجواء الملائمة لنموها وازدهارها.

ومامن شك بأن تقويم ماحققته السوق العربية المشتركة خلال السنتين السابقتين في ضوء الآمال العريضة المعلقة عليها وعملية المقارنة بالسوق الاوروبية المشتركة سوف يوقع المواطن العربي في خيبة أمل ، ولكن تقويم حصيلة المرحلتين السابقتين في ضوء واقع اقتصاديات الدول الاعضاء والانظمة الاقتصادية والمالية والاجتماعية بل والسياسية المختلفة المطبقة في كل منها وغير ذلك من الاسباب من شأنه ان يخفف من تلك الخيبة ويحل محلها التفاؤل والرضى . ولابد في مثل هذا الواقع من التريث بعض الوقت حتى تكون مختلف الخطوات التي تتخذ في إطار السوق قد آتت اكلها واعطت ثمارها كالغاء القيود الادارية وتنظيم معاملات المدفوعات وانتقال رؤوس الاموال والاشخاص والسير بخطوات

التنسيق الزراعي والصناعي بين الدول الاعضاء ، مما يتيح النتائج والفوائد المتوخاة ان تظهر في الاحصاءات والارقام الخاصة بالفترة التي تعقب انجاز تلك الخطوات .

ومامن شك في أن قيام السوق العربية المشتركة في الظروف الصعبة التي تمر بها الاقطار العربية في الوقت الحاضر سوف يعرضها لسهام الاعداء في الداخل والخارج واذا كان من حق المواطن العربي ان يطلب من السوق ان تدر اللبن والعسل وتوفر الرفاه له ولأخوانه فان من حقها عليه إن يتفهم واقعها وواقع المنطقة العربية وماتعيشه من انقسامات داخلية ومايحيط بها من مكائد ودسائس خارجية تكيد لها ولكل تكتل عربي يستهدف الخلاص من واقع التجزئة والتخلف .

البحوث الاجتماعية

الاتجاهات الحديثة في التطوّر الاقتصادي

للاقتصادي السوفيتي كوتكوفسكي Y. Kotkovsky
ترجمه عن الانكليزية: متري حمارنه

تتميز العمليات الاجتماعية الاقتصادية في العالم المعاصر بفوارق ذات جذور عميقة. فثلاثة آلاف وثلثمائة مليون من الناس، يقطنون في أكثر من مائتي بلد، في مستويات مختلفة ومتباينة من التقدم الاجتماعي. ويتمتع هؤلاء الناس بثمرات التقسيم الاجتماعي للعمل بصورة غير متساوية وغير متكافئة. فالعلاقات العادلة والفعالة في المجتمع الاشتراكي تتعارض والانظمة الاستغلالية السائدة في المجتمع الرأسمالي. ولاشك بان كلاً من النظامين يترك آثاره المميزة على التطور العالمي.

ان التحليل الشامل لمعالم الحقبة التاريخية الحاضرة والوقوف على مميزاتها ، مشكلة اجتماعية هامة . وبالرغم من انها تشمل مجالات وآفاقاً من البحث متنوعة ومتباينة ، الا ان بالامكان التوصل الى اكتناه جوهرها عن طريق دراسة القوانين الرئيسية التي تتحكم بتطور مختلف البلدان .

فالاتجاهات الاجتماعية الاقتصادية السائدة في عالمنا في الوقت الراهن ، تحدد معالم المستويات الاقتصادية العامة في مختلف البلدان وتظهر في صور مختلفة واساليب متباينة. ولكنها مع ذلك تقوم على النظام الاجتماعي الذي يمدها بالزخم والفعالية والقوة الدافعة.

وتعتبر هذه الاتجاهات بالنسبة للبلدان الاشتراكية تعبيراً عن عمل القوانين الاقتصادية الاشتراكية داخل البيئة وماتركته من آثار فيها . ففي مثل هذا الوضع ، يقوم عمل هذه الانظمة والقوانين على اساس الملكية العامة لوسائل الانتاج وعلى التوزيع الاشتراكي الدولي للعمل . فالتناقض غير العدائي في المستويات الاقتصادية في هذه البلدان وامكانيات تحقيق المزيد من التطور في القوى الانتاجية وحاجتها الى مثل هذا التطور تحل عن طريق توثيق صلات البلدان الاشتراكية حتى يتسنى ازالة الفوارق في المستويات ما أمكن . أما في الرأسمالية فالفوارق في المستويات الاقتصادية تعكس وجود قوانين مختلفة وانظمة من نوع آخر وتعني بذلك قانون التطور غير المتكافئ، وهو عامل يعمل باستمرار في المجتمع القائم على التناقض الاقتصادي غير المخطط والموجه . فالملكية الاحتكارية والتقسيم الدولي للعمل في البلدان الرأسمالية يحددان تطور التناقضات العدائية القائمة والتي كثيراً مايلجأ الى العنف لحلها والحيلولة دون اصطدامها .

اما من جهة بلدان العالم الثالث فتقوم فيها احوال مختلفة متغيرة وامكانيات كبيرة لعملية التسوية . ويتوقف ذلك بالطبع على اي من الاتجاهين اقوى : الاتجاه نحو التطور القومي المستقل الذي يخدم مصلحة الشعب ، او الاتجاه المعاكس الذي يهدف الى ابقاء هذه البلدان ضمن نظام من العلاقات الاقتصادية فرضها عليه الرأسمال الاحتكاري .

وفي محاولة معرفة الاتجاهات العامة للتطور العالمي ، يمكن الاقتصار على العوامل التي تميز التحولات في المستويات الانتاجية وديناميكية الانتاج والاستهلاك والتجميع في كل بلد او في مجموعة من البلدان التي تنتمي الى انظمة اجتماعية مختلفة متباينة .

١

فما هي اذن بصورة عامة ، المميزات الخاصة بالتطور الاقتصادي في العالم غير الاشتراكي في المرحلة الحاضرة ؟

منذ الحرب العالمية الثانيـــة ، كان معدل النمو الصناعي في جميع البلدان غير الاشتراكية (٩ر٥) بالمئة مقابل (٨ر٣) بالمئة في فترة الحرب ، وعلى الرغم من انكماش المنطقة التي كانت تسيطر عليها الرأسمالية العالمية ، فقد اتسعت سيطرة سوقها وازدادت قدرتها . وكان من جملة العوامل التي اسهمت في تحقيق هذا التوسع في السوق الرأسماليـــة ، ذلك التكامل الذي تم في اوروبا الغربية وقيام الدول الكبرى بزيادة استثماراتها وتوسيعها ، والتقدم التقني الذي حققته وفيض السلع والمنتجات الجديدة المختلفة الانواع وازدياد المطالب العسكرية وغير ذلك من العوامل . فقد استمدت الاستثمارات الرأسمالية زخماً هائلاً من الاسواق الجديدة في الدول النامية ومن دخول تلك الدول في التقسيم الدولي للعمل ومن ازدياد التجارة بين بلدان العالم غير الاشتراكي والدول الاشتراكية ، غير ان اتساع الاسواق الرأسمالية فشل في ازالة التناقضات الاساسية القائمة في المجتمع الرأسمالي ونعني بها تلك القائمة بين الدول الامبرياليـــة الكبرى . وتعمقت كذلك تلك التناقضات القائمة بين هذه الدول الامبريالية والدول المتخلفة اقتصادياً اوتلك الـــتي تقل عنها تطوراً .

ان تقلبات التنافس في الاسواق العالمية ، تبدو اكثر وضوحاً في البلدان الرأسمالية المتطورة وتكاد تكون من مميزاتها . وتعود بالدرجة الاولى الى التطور غير المتكافىء الذي بلغته . وخير مثال على ذلك طرد الاحتكارات البريطانية من المراكز الهامة التي كانت تحتلها . ففي الحقبة التي تحول فيها التنافس الرأسمالي الحر الى رأسمال مستغل محتكر ، كان نصيب الفرد من الانتاج الصناعي في بريطانيا ضعف ما كان عليه في الولايات المتحدة واربعة امثال ما كان عليه في المانيا الاتحادية . ولكن الولايات المتحدة في مطلع القرن العشرين تمكنت من التفوق على بريطانيا وها هي المانيا تسبقها ايضا في الانتاج الصناعي فالثغرة التي تفصل بريطانيا عن تينك الدولتين في مجال الانتاج الصناعي آخذة في الاتساع . واخذت كندا واليابان تتقدمان بسرعة مذهلة لتحتلا مركزهما في الصفوف الامامية .

فاذا اعتبرنا نصيب الفرد في الولايات المتحدة من الانتاج الصناعي على اساس (١) ، كان نصيب الشخص في كندا من مجموع الانتاج الصناعي ٠,٨٠ ، وفي المانيا الاتحادية ٠,٧٠ ، وفي بريطانيا ٠,٦٥ ، وفي فرنسا ٠,٤٠ ، وفي إيطاليا ٠,٣٥ ، وفي اليابان ٠,٢٥ .

فالاقطار المذكورة مجتمعة تنتج (٨٠) بالمئـــة من مجموع الانتاج الصناعي في العالم الرأسمالي اكثر من ثلاثـــة امثال ماتنتجه الولايات المتحـــدة . وهكذا يتضح لنـــا ان الولايات المتحدة وتلك المجموعة من البلدان تشكل المنطقة الرئيسية

التي تحتدم فيها معركة التنافس الرأسمالي ، التي حددت معالمها المستويات التقنية والعلمية المتكافئة تقريباً في الانتاج من ناحيـــة ، والفوارق في قدراتها الصناعية من ناحية اخرى .

وعلى الرغم من العوامل الرئيسية المشتركة في تحسين اساليب تنافسها — مثل تطبيق المنجزات العلمية والتقنية (التكنولوجية) في عملية الانتاج وتنظيم العمل — فاساليب المنافسة وطرقها تختلف . فالاحتكارات الامريكية مثلاً وطدت مراكزها ورسخت اقدامها عن طريق استثمار اموالها في كندا واليابان ودول اوروبا الغربية . وتقوم حوافز تشجيع استثمار رؤوس الاموال الامريكية في هذه الاقطار على عدة عوامل منها مهارة العمال الفنية والعلمية في الانتاج والعمل ، وتدني الاجور (التي لاتزيد على نصف ماهي عليه في الولايات المتحدة) . وكان من ابرز العوامل التي حققت الازدهار الصناعي في اليابان والمانيا الغربية، رؤوس الاموال الكبيرة التي استثمرها الامريكيون في الصناعة. فنصيب الصناعة في اليابان من هذه الاستثمارات يبلغ ضعف نصيب الصناعة الامريكية نفسها من هذه الاموال المستثمرة . وتبلغ في المانيا الغربية (١٥٠) بالمئة مما تناله الصناعة في بريطانيا والولايات المتحدة . ونتيجة لذلك اخذت الاحتكارات الامريكية اليوم تواجه منافسة حادة وضارية تهدد بتوجيه ضربة انتقامية قاصمة للدولار .

أما بالنسبة للتنافس بين الدول الرأسمالية نفسها ، فالمحافل الاقتصادية الدولية تتنبأ ان يتراوح معدل النمو في الانتاج الصناعي السنوي بين ٩ — ٢,٥ بالمئة حسب الترتيب التالي : اليابان اولا ثم المانيا الغربية ، ايطاليـــا ، فرنسا ، الولايات المتحدة ، كندا ثم بريطانيا . وسيؤدي احتدام المعركة الى توسيع شقة التفاوت في تطورها . ومما يزيد في استعار نار هذا التنافس،استمرار القوى الخفية في عمليات التخريب في الاقتصادالرأسمالي . فلا بد ان يتلو فترة الازدهار ، فترات من الركود والتوقف . فارتفاع النفقات الحربية يؤدي عادة الى التضخم المالي ويزيد في حجم الديون الحكومية والشخصية على السواء وتعود التناقضاتالرأسماليةوالتفاوت في الازدهار الاقتصادي في البلدان الرأسمالية الى عدة عوامل اهمها التكامل الذيوصلتاليهأوروبةالغربية . لقد كان هذا التكامل مصدراً للنزاع السياسيوالاقتصاديويعود كذلك الى كون التكتلات الامبريالية اصيبتبضرباتقاصمة.

ويتجلى عدم الاستقرار في البلدان الرأسمالية اكثر مما يتجلى في قطاعات اخرى من تنافسها السياسيوالاقتصادي. فبالرغم من ان ثلثي التجارة الخارجية للبلدانالرأسمالية تتم فيما بينها ، الا ان العداء والتناحر في علاقاتها يزدادان حدة بسبب الصراع القائم بينها،

على اسواق الدول النامية ، حيث تقوم شركات الدول الاستعمارية التي فقدت امتيازاتها السابقة ، بمقاومة الاستثمارات الجديدة الوافدة من الدول الاخرى . اضف الى ذلك ان حكومات كثيرة من الدول النامية اخذت ترفض الشروط التجارية غير العادلة التي أملتها الاحتكارات الرأسمالية على اسواقها .

في فترة ما بعد الحرب ، كان المعدل الوسطي للنمو الصناعي في مجموعة البلدان النامية (٧,٥) بالمئة في السنة الواحدة، مقابل (٥,٥) بالمئة في الدول المتطورة صناعياً. ولكن هذا النمو لا يكاد يؤدي الى تحسين الاحوال العامة ، ولا يصل بهذه البلدان الى المستوى الاقتصادي القائم في البلدان الرأسمالية المتطورة . ويتوقع خبراء الاقتصاد في الامم المتحدة ، ان تتسع شقة نصيب الفرد من الانتاج الصناعي في هاتين المجموعتين الدوليتين في خلال السنوات الخمس القادمة . ويتنبأ هؤلاء الخبراء ان مايصيب الشخص الواحد من زيادة الدخل لن يزيد على (٢,٦) بالمئة حتى عام ١٩٧٠ في الدول المتطورة صناعياً ، و (١,٧) بالمئة في الدول النامية . والصورة في النمو الصناعي لا تختلف كثيراً . ولكن ما هو السبب ؟

ارتفع معدل زيادة السكان في الدول النامية حتى وصل الى (٢,٤) بالمئة في السنة الواحدة ويرى خبراء الديموغرافيا انه لا بد من زيادة الدخل القومي بمعدل اربعة بالمئة ليكون في المستطاع اعالة واحد بالمئة من الزيادة في السكان . وعلى ضوء تجارب واختبارات المعسكر الغربي ، يؤكد علماء الاجتماع والاقتصاد ان على البلدان التي اخذت ترتفع فيها نسبة زيادة عدد السكان أن تستثمر من (٩) الى (١٥) بالمئة من دخلها القومي للحفاظ على التجهيزات والادوات اللازمة لكل عامل .

ان زيادة عدد السكان من ناحية أخرى لاتؤدي الى هبوط معدل نصيب الفرد من الانتاج فحسب ، بل يعني كذلك زيادة عدد المستهلكين ايضاً فهناك عامل هام آخر يجب ان يؤخذ بعين الاعتبار وهو زيادة عدد المنتجين القادرين على ايجاد الثروة المادية .

فبينما ينتج البلد المتطور صناعياً كميات من السلع والمنتجات الصناعية تزيد (١٨) مرة على نصيب الشخص الواحد من مجموع الانتاج في الدول النامية ، لا يستثمر من انتاج كل فرد في الصناعة غير خمسة اضعاف مايستثمر من انتاج الفرد في الدول المتطورة. ولن تجد البلدان النامية حلا لمشاكلها في رفع المستوى الاقتصادي الا عن طريق تغيير بنيتها الاقتصادية بواسطة التصنيع. ولا ادل على التأخر الذي تعانيه البنية الاقتصادية في الدول النامية من المثال التالي : تسهم الصناعة في مجموعة الدول المتطورة بثلاثة وثمانين بالمئة والزراعة بسبعة عشر بالمئة من مجموع

الانتاج في القطاعين مجتمعين ، بينما تسهم الصناعة في الدول النامية بثلاثة واربعين بالمئة والزراعة بسبعة وخمسين بالمئة . وعلى الرغم من انتشار هذا النمط من الزراعة في البلدان النامية ، لايزيد نصيب الفرد من انتاجها الزراعي على ثلث نصيب الشخص الواحد في الدول المتطورة . فالزراعة في الدول النامية تقوم على أساليب زراعية تقليدية تكاد تكون بدائية وعلى مزارع خاصة واقتصاد طبيعي يتميز بانتاجية عالي منخفض جداً. فالصناعات الاولية (التي تنتج المواد الخام للتصدير) والصناعات الخفيفة وصناعة الاغذية هي السائدة في هذه البلدان وتعتمد كثيراً على الاحتكارات الدولية التي تسيطر على السوق العالمية . ففي بلدان امريكا اللاتينية مثلا يصدر الى الخارج من (٤٠) الى (٥٠) بالمئة من الانتاج القابل للتصدير . ولكن الاحصاءات الدقيقة التي قامت بها منظمة الاغذية والزراعة التابعة للامم المتحدة أشارت في التقرير الذي قدمته في عام ١٩٦٥، الى ان هذه الدول استوردت بما قيمته (٥٠٠) مليون دولار من المواد الغذائية .

لقد دأبت الاحتكارات الرأسمالية على استغلال شعوب تلك البلدان في مجالي الانتاج والعملات . ففي السنوات الاخيرة مثلا قامت الدول الرأسمالية باقراض هذه البلدان بصورة مباشرة ،أو عن طريق المؤسسات المالية الدولية مايقرب من سبعة آلاف مليون دولار في السنة الواحدة وذلك من اجل اغراض انتاجية وغير انتاجية . ولكن الفوائد الكبيرة التي ترتبت على تلك القروض ، والدخل الهائل الذي جنته تلك الدول عن طريق استثماراتها المباشرة ،بلغت (٣) آلاف مليون دولار سنوياً من الدولارات. أضف الى ذلك مبلغ (١٥٠٠) بصورة خسائر لحقت بالبلدان النامية من جراء الشروط التجارية التعسفية . أدى كل ذلك الى اسوأ الاثر في الاحوال الاقتصادية واعاق امكانية الاسراع في برامج التنمية الصناعية . فامكانية تضييق الشقة الاقتصادية بين الدول المتطورة اقتصاديا والبلدان النامية تقوم على امكانية توسيع السوق المحلية . وكل بلد يعتمد في تقدمه الاقتصادي ، على الاحوال السائدة فيه وعلى الطريقة التي تعالج بها التناقضات الاجتماعية الاقتصادية .

فكل بلد نام مدعو لأن يحل جميع مشاكله الاقتصادية وفق المصلحة القومية. لقد علمتنا التجارب المريرة التي مر بها العديد من البلدان الآسيوية والافريقية أنه كلما ازدادت العناية بتنويع الاقتصاد في الجانب الواحد وتقويته ، ازداد معدل الانتاج وارتفع.

اعطتنا الدراسات الدقيقة العناصر الرئيسية في السياسة الاقتصادية للبلدان الاشتراكية، وتطبيق هذه السياسة في علاقات هذه الدول بعضها ببعض ، فكرة واضحة عن التحليل المنطقي لتطوير قواها الانتاجية .

قامت الاشتراكية فزالت التناقضات ، عن طريق تحسين علاقات الانتاج وتطوير القوى المنتجة . ففي عالم الاقتصاد الاشتراكي يتم تنسيق المصالح الخاصة بكل بلد ضمن الاطار الاقتصادي الخارجي عن طريق التعاون الذي سيمكن جميع هذه البلدان او كل واحدة منها من تطوير القوى المنتجة فيها على أكمل وجه وبصورة معقولة .لقد اخذت بلدان أوروبا الاشتراكية ، ومن ضمنها الاتحاد السوفياتي « والتي تملك (٩٠) بالمئة من مجموع القدرة الصناعية لكافة البلدان الاشتراكية » تركز على التحول والانتقال الى زيادة العمليات الاقتصادية وتوسيع التعاون الاقتصادي في كافة المجالات عن طريق تنسيق المشروعات والمخططات الاقتصادية .

توصل العديد من الدول الاشتراكية في الماضي ، الى معدل انمائي عادل وذلك عن طريق زيادة رأس المال المستثمر في البنية الاقتصادية الجديدة .

واتخذت الدول الاعضاء في مجلس المعونات الاقتصادية المتبادلة اجراءات فعـالة لازالة التباين بين الطلب وامكانية تطوير القوى الانتاجية وتقويتها وذلك بواسطة رفع المستوى العلمي للتخطيط وايجاد حوافز اقتصادية اقوى في الانتاج وافساح المجال لأكبر قدر من المبادءة في المشروعات الاقتصادية . وكان من جراء ذلك ان انعكست هـذه الاجراءات على مجال التعاون الدولي فهنالك تطور ملموس في الاتجاهات الجديدة للتخطيط الاقتصادي الدولي ونعني بذلك تلبية متطلبات الحسابات الدقيقة في مجموع العلاقات الاقتصادية (ليس على الصعيد القومي المحلي فحسب ، بل على الصعيد الدولي ايضاً) بحيث يتم تحقيق نسبة معينة في النمو الاقتصادي تؤدي بالنتيجة الى رفع مستوى كفاءة الاقتصاد القومي وتكفل له اضطراد الازدهار والتقدم عن طريق تنسيق المخططات الاقتصادية ، والتركيز على التخصص في الانتاج (بشرط ضمان المصالح القومية) .

وهناك ثلاثة عناصر رئيسية هامة لحل مشكلة التخصص بين الدول عن طريق تنسيق المخططات الاقتصادية : (١) الحاجة الماسة الى هذا التخصص كعامل هام في تحسين تقسيم

العمل الاشتراكي الدولي ورفع كفاءته (٢) وكعامل لتوسيع السوق وتحسين العلاقات الانتاجية ، (٣) وكتعويض عن التكامل والتطور الشامل في الاقتصاد القومي .

غير ان الحاجات قد لاتتفق دائماً والامكانيات . فلا بد في مثل هذه الحالة من الاخذ بعين الاعتبار الظروف الثابتة الخاصة بتطور البلد – مثل القدرة والبنية الاقتصادية والمستوى الانتاجي والمميزات الخاصة بتطور السوق .

فالجمهورية الالمانية الديمقراطية وتشكوسلوفاكيا مثلا بلدان صغيران ولكنهما نسبياً متطوران صناعياً ويحتاجان كثيراً الى التخصص . فالاخيرة تصدر الى البلدان الاعضاء في مجلس المعونات الاقتصادية المتبادلة (الخاص بدول اوروبا الشرقية) حوالي العشرين بالمئة من المنتجات الهندسية ، ولكن خمسة بالمئة فقط من هذه الانواع المختلفة تم صنعها في سنة (١٩٦٥) عن طريق التخصص . والمجر هي الاخرى بحاجة الى مثل هذا النوع من التخصص . فالتخصص المتبادل في الهندسة يمكن التوصل اليه ، عن طريق التعاون بين البلدان الاشتراكية ذات المستوى الفني العالي في الانتاج ، فهنالك مجال واسع لاضطراد تحسين وتنسيق المخططات الاقتصادية الوطنية في بلدان اوروبا الاشتراكية وقيام قواها الانتاجية بالعمل وفق مخططات التخصص والتعاون فيما بينها .

اما قضية التقارب الاقتصادي بين هـــذه الدول وازالة الفارق في المستويات الاقتصادية ، فمسألة تدعو الى معالجة منطقية . فالعملية بمضمونها تعكس التفاعل القائم بين الظروف القومية التاريخية ، والطبيعية الجغرافية ، والاجتماعية الاقتصادية في حياة شعوبها . فمثل هذه العملية لايمكن ان توجد تكاملا تاماً في المستويات الاقتصادية وفي جميع التقنيات الانتاجية والاستهلاكية .

غير ان دول اوروبا الاشتراكية ، تمكنت مع الزمن ، من تحقيق وانجاز الكثير ، لتحديد معالم واساليب هذا التطور (مع الاهتمام بالمصالح المتبادلة) فبدأت تدرس مشاكل التعاون لما بعد عام (١٩٧٠) واخذت فعلا تضع المخططات والبرامج الاقتصادية طويلة الامد وتتخذ الاجراءات القمينة بدمجها وتنسيقها مع خططها الخمسية الخاصة . وقام عدد من هذه البلدان فعـــلا بوضع الخطوط العريضة واللمسات الاخيرة لمخططات التطور الاقتصادي الشامل ولقضايا التعاون ومشاكله حتى عام ١٩٨٠ . ولا شك بان هـــذه الخطوات ستؤدي حتما الى ايجاد الاسس الموضوعية لتنسيق افضل واوفى للجهود المشتركة الرامية الى تطوير الاقتصاد المخطط . وسيؤدي كل هذا في نهاية الامر الى التغلب على مشاكل التعاون في المستقبل .

لاشك بان خلق تكامل تام في العلاقات بين مختلف البلدان الاشتراكية وايجاد اتحاد طوعي بينها عملية شاقة وطويلة تطلبت الكثير من الصبر والدراسة والجهد . ففي عملية التطور المعقدة لمختلف إشكال التعاون ، قد تنشأ خلافات وتناقضات مؤقتة بين مصالح هذه الدول . وقد تقوم نظريات وآراء مختلفة متباينة حول مختلف القضايا ووسائل حلها . أما امكانية التغلب على جميع هذه المصاعب والمشاكل وحل جميع الخلافات بصورة تكفل تحقيق المصالح العامة ، فتعتمد الى حد كبير على توضيح وتطبيق الخط الصحيح المنسق للعلاقات الاقتصادية بين هذه الدول . والجدير بالذكر ان الدول الاشتراكية سجلت تقدماً ونجاحاً ملموساً في هذا المضمار .

٤

ان العمليات الاقتصادية التي اوجدها قيام نظامين إقتصاديين مختلفين في العالم ، تصبغ تطور العالم المعاصر بميزات جديدة . فقد كانت هذه العمليات ، بشكل خاص ، حافزاً هاماً في التكامل وفي تكوين المنظمات الاقليمية بين الدول . فجميع هذه المنظمات الاقليمية ترمي في الواقع الى تدويل الحياة الاجتماعية الاقتصادية وان كانت تعمل وفق مبادىء متباينة وتقوم على قواعد اجتماعية اقتصادية مختلفة .

فما هو اذن ، الميزان الاقتصادي الراهن بين مجلس التعاون الاقتصادي المتبادل التابع للدول الاوربية الاشتراكية والسوق الاوربية المشتركة وماهي امكانيات تطويرها ؟

ان لالمانيا الديمقراطية مثلاً أعلى مستوى في الانتاج والاستهلاك بين الدول الاشتراكية الاعضاء في مجلس التعاون المتبادل المذكور ولالمانيا الاتحادية كذلك اعلى مستوى بين دول السوق المشتركة . والجدير بالذكر ان المستويين الاقتصاديين بين شقي المانيا متقاربان .

فنصيب الفرد في دول السوق الاوربية المشتركة من الانتاج الزراعي يقل عنه في الدول الاشتراكية ، اما من ناحية الاستثمار الرأسمالي فالكتلتان في نفس المستوى تقريباً . اما من ناحية الانتاج الصناعي في دول السوق المشتركة فيزيد على مثيلـه في الدول الاشتراكية بنسبة عشرين بالمئة . ولكن الاحصاءات تشير الى ان دول السوق تنتج من المحاصيل الزراعية حسي ماتنتجه الدول الاشتراكية .

ويقدر الخبراء ان الانتاج الصناعي في الدول الاشتراكية سيزيد (٥٠) بالمئة حتى عام ١٩٧٠ أي بمعدل (٨،٢) بالمئة سنوياً . ويقدر الخبراء ان ستبلغ هذه النسبة في دول السوق (٤،٢) بالمئة حتى عام ١٩٧٢ وهي بالطبع تقل عنها في الدول الاشتراكية .

ولكن ماأثر الاشتراكية والرأسمالية على الاتجاهات الاقتصادية في العالم الثالث ؟ لاشك بان مستقبل التطور الاقتصادي في العالم الثالث رهن باختيار دول العالم الثالث بين النظامين الاقتصاديين العالميين . ففي سياستها الاقتصادية الهادفة الى تعبئة مواردها الداخلية ، تعتمد الدول النامية عادة على تطوير القطاع العام وعلى الاصلاح الزراعي في مقاومة السياسة الاستعمارية الجديدة ، فالقطاع العام آخذ في التطور والظهور بشكل او آخر في اكثر من ستين بلداً من بلدان آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية ، وقدتوصلت خمسون دولة منها ، على الاقل ، الى خطة للتطوير الاقتصادي . اما من ناحية الاصلاح الزراعي فقد تم ارساء قواعده بصورة صحيحة في البلدان التي اختارت الطريق التقدمي منهاجاً لسياستها الاقتصادية . وقد دلت التجارب على أن عدداً كبيراً من الشعوب والبلدان النامية تعتبر الطريق غير الرأسمالي في التطوير الاقتصادي خير وسيلة لتحقيق انتصار الثورة الوطنية التحررية الرامية الى القضاء على عوامل التخلف الاقتصادي القديم ورواسبه، وتحسين الظروف المعاشية للشعوب .



التخطيط التربوي في البلدان النامية

للباحث الالماني كلاوز هفنر Klaus Huefner
ترجمة محمد جديد

في هذه الايام يحصل اكثر من ثلثي سكان العالم في البلدان النامية على حوالي عشرة بالمئة من مجموع الانتاج العالمي . ويشير التطور الاقتصادي والاجتماعي الى وجود انحدار متدرج من الشمال الى الجنوب، ويعد التخلص من هذا الانحدار من المهام الحاسمة الملقاة على عاتق الامم المتحدة ومنظماتها الخاصة .

واذا انطلقنا من الارتباط القائم بين التطور الاقتصادي والاجتماعي لبلد ما فسنرفض النظرة التي تعتبر بموجبها النفقات الموجهة للاستثمار المادي « استثماراً منتجاً » ونفقات اجهزة التعليم والمنشآت الاجتماعية الاخرى « استهلاكاً غير منتج » ، اذ أن هذا التمييز

كان يؤدي الى مفهوم خاطىء في السياسة الاقتصادية، وهو أن من الممكن الوصول الى معدل النمو المرغوب فيه في اقتصاد قومي ما على افضل وجه برفع نفقات الاستثمار المادي الى الحد الاقصى وتخفيض النفقات الاجتماعية الى الحد الادنى ، وقد تم دحض هذه الفكرة بالأبحاث العديدة التي تناولت حجوم النفقات التي ادت الى النمو الاقتصادي في الولايات المتحدة وفي دول صناعية غربية أخرى . وهنا ينتج عن المقارنات بين نفقة الانتاج ومردوده أن مقدار النمو المحسوب على اساس بذل مقدار اضافي من عاملي رأس المال والعمل لا يمكن رده الا الى ثلث هذين العاملين ، اما الثلثان الباقيان من النمو الاقتصادي فيحتاجان الى مزيد من التفسير ، وقد امكن حتى الآن ، بتناول المسألة من جوانب اخرى ، اثبات وجود علاقة وثيقة بين المستوى الثقافي والتطور الاقتصادي لاقتصاد قومي ما .

ولا بد من اقتصاد قومي على جانب عظيم من التطور من اجل تمويل نظام تربوي تام ، والنظام التربوي يؤثر من ناحية اخرى تأثيراً بالغاً على النمو الاقتصادي . اما اوضاع البلدان النامية ففيها صعوبة من نوع خاص ، فان معظم هذه البلدان تجد نفسها في حلقة مفرغة لا يمكن تحطيمها الا ببذل أقصى الجهود ، اذ ان انتاجية العمل في البلدان النامية منخفضة جداً ، وهذه الانتاجية الضئيلة انما هي – بالاضافة الى عوامل اخرى – نتيجة لنظام تربوي لم يتطور بعد ، وتطوير نظام التعليم يتوقف هو الآخر على امكانات التمويل، كما ان الطاقة التمويلية للبلدان النامية ضئيلة لأن هذه البلدان متخلفة من الناحية الاقتصادية . وبهذا يتم استغلاق الحلقة المفرغة . ان البلدان النامية تواجه نوعاً من ازمة التعليم ، ولا تقدر بدون مساعدة خارجية على أن تتخلص من هذه الازمة ، فلا يقدر اكثر من ٥٠٪ من الاطفال الذين هم في سن التعليم في البلدان النامية على ان يدخلوا

حتى المدارس الابتدائية ، وبناء على تقديرات الاونيسكو يوجد ٧٠٠ مليون من الراشدين الاميين في العالم ، وفي الوقت الحاضر يزداد هذا الجيش من الاميين الراشدين بمقدار (٢٠ – ٢٥) مليون نسمة في كل عام وذلك لنقص المعلمين والمدارس وكذلك لنقص مواد التعليم والتعلم اللازمة لتعليم الاطفال الذين بلغوا سن الدراسة . لقد عبرت الجمعية العمومية لهيئة الامم المتحدة في تقرير السنوات العشر للتنمية عن اهدافها في مجال السياسة الاقتصادية ، فخلال الفترة الواقعة بين ١٩٦٠ و ١٩٧٠ يجب تحقيق زيادة بمعدل ٥٪ سنوياً في البلدان النامية . وتمثل نسبة ٥٪ هدفاً متواضعاً ، اذ ان الزيادة السنوية في السكان تبلغ في بعض بلدان آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية ٣ – ٣٫٥٪ ، وبناء على ذلك فليس لنا أن نتوقع زيادة اكثر من ١٫٥ – ٢٪ ، وهـذا يعني من جديد انه لا بد من فترة تتراوح بين ٣٥ و ٥٠ عاماً لمضاعفة الدخل الفردي في هذه البلدان . ان الارقام المذكورة آنفاً لها اهمية سياسية قبل كل شيء ، ولا تفيد الا في الارشاد ولا يمكن أن تمثل بهذا المعنى العالمي اهدافاً حقيقية للسياسة الاقتصادية لكل بلد من البلدان النامية على حدة .

ويعتبر الهدف الذي عبر عنه تقرير الامم المتحدة عن سنوات التنمية العشرة ذا اهمية خاصة ، وهو تركيز قوى كافة المنظمات الخاصة واللجان الاقتصادية الاقليمية للامم المتحدة من اجل التطوير الاقتصادي والاجتماعي لهذه البلدان ، وتعتبر مشاكل تعبئة الطاقات البشرية محور هذا التطوير . ان معظم البشر الذين يبلغون ٢٫٥ ملياراً في البلدان النامية يشتغلون بالزراعة ، فمن ناحية تسود في الريف البطالة الجزئية وفي المدن البطالة ، ومن ناحية اخرى ينمو عدد السكان نمواً سريعاً وينمو بذلك ايضاً عدد القادرين على العمل والباحثين عنه . اما سياسة

التشغيل فتستنير بمقدار الحاجة الى اليد العاملة وبالمقدار الموجود منها. ان التركيب الكيفي للقوى العاملة يعتبر نتيجة لسياسة التعليم . ومن اجل ذلك فان التخطيط التربوي والتخطيط الاقتصادي لايمكن ان ينظر الى احدهما معزولا عن الآخر. وبعد مراعاة هذه العلاقات وضعت هيئة الاونيسكو بالتعاون مع اللجان الاقتصادية للأمم المتحدة ثلاث خطط اجمالية لمناطق آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية، وبذلك وضعت لأول مرة خطط على مستوى عالمي تتجاوز حدود الدول المختلفة، اذ ان اكثر من سبعين دولة يبلغ مجموع سكانها ١،٢ مليار نسمة تساهم في تنفيذ هذه الخطط ، ولما كانت الخطط طويلة الاجل تشمل مناطق واسعة فليس من العجيب ان تخضع هذه الخطط لاعادة النظر على نحو مستمر . ومنذ سنتين اشار الامين العام للاونيسكو « رينيه ماهو » في حديث صحفي الى الاذاعة الفرنسية الى الاتجاه الذي سيسلكه عمل الاونيسكو في المستقبل، وقد قال في ذلك الوقت: « قد تكون المهمة الفكرية الكبرى للاونيسكو التي تلقى على عاتقها الآن هي ان تأتي بالبرهان على ان الاموال المستعملة من اجل التعليم ليست نفقات بالمعنى الحقيقي للكلمة وانما هي استثمارات ، فليس التعليم ترفاً. انه يشكل جزءاً من تعبئة البلاد ، واذا لم يستثمر رأس المال مسبقاً في الانسان نفسه ليصبح قادراً على الاستفادة من الامكانات المتاحة له فان التعبئة التي تعمل على تنمية الصناعة والزراعة في بلد ما ستؤول الى الضياع الى حد كبير . ولابد للتطوير الاقتصادي من تأمين سلسلة من الوجوه الكيفية الخاصة بعامل « العمل » كالمعرفة النظرية والمعرفة الاختصاصية وارادة العمل والايمان بالمستقبل وروح الاقدام وارادة النجاح . ان هذه القائمة من المزايا التي لانزعم انها كاملة تشير بوضوح الى المكانة الممتازة التي تحتلها الثروة الفكرية او « رأس المال البشري » في التطوير الاقتصادي.

وفي التخطيط التربوي في البلدان النامية يجب ان تحتـل النواحي الاقتصادية مكانة بارزة عند صياغة نظام التعليم . ومن اجل ذلك يحسن توظيف رؤوس الاموال الضئيلة الى حد كبير في المواضع التي تخدم فيها هذه الاموال تطور الاقتصاد على نحو مباشر ملموس .

ان الشعور بالاهمية الاقتصادية للاستثمارات في حقل التعليم من قبل المنظمات الخاصة بالمعونة الانمائية يزداد وضوحاً ، وهكذا فقـد قرر المصرف الدولي صرف قروض من اجل تطوير انظمة التعليم في مختلف البلدان النامية للمرة الاولى بواسطة وكالة **التنمية العالمية** (IDA) وهذه «الاستثمارات التمهيدية» التي تفيد في تشكيل البنية التحتية تشكل الشرط الاولي للنمو الاقتصادي . وكانت الخطط الاقليمية الثلاث الكبيرة التي ذكرناها آنفاً تتطلب حوالي (٥) مليارات من الدولارات الامريكية لعام ١٩٦٠ ويبلغ متوسط النفقات السنوية للفترة الممتدة من عام ١٩٦٥ الى عام ١٩٧٠ (٨) مليارات من الدولارات الامريكية .

وينص مشروع كراتشي (١٩٦٠ — ١٩٨٠) على اتاحة التعليم الابتدائي الالزامي المجاني الذي يستغرق سبعة أعوام لجميع الاطفال . وفي عام ١٩٦٥ بلغت نسبة تلاميذ المدارس الابتدائية الى مجموع السكان الذين شملتهم الخطة ٨،٥ ٪ . وينص المشروع على أن ترتفع هذه النسبة الى ٢٠ ٪ حتى عام ١٩٨٠ . وستبلغ بعض بلدان آسيا هذا الهدف في وقت مبكر على حين ان بلداناً اخرى لاتزال في بداية التطور . وينص مشروع كراتشي — على وجه الاجمال — على توظيف حوالي ٦٠ مليار من الدولارات الامريكية بالسعر الحالي . ويذهب من هذا المبلغ اكثر من ثلثيه الى النفقات الجارية . لقد راجع هـذا المشروع مؤتمر

وزراء التربية للبلدان الآسيوية عام ١٩٦٢ ، وأخذ عليه حينذاك ان العلاقات بين نظام التعليم والتطوير الاقتصادي قد ظلت مبهمة الى حد بعيد في ذلك المشروع الذي وضع عام ١٩٥٩ ، وتقرر ان يربط بين التخطيط التربوي وتخطيط الاقتصاد القومي برباط وثيق ، واوصى المؤتمر ان يكون الهدف الاساسي رفع نسبة نفقات التعليم الى مجمل الانتاج القومي من حوالي ٢ الى ٥ ٪ .

ويهدف مشروع أديس أبابا (١٩٦١ — ١٩٨٠) كذلك الى اتاحة التعليم الابتدائي الذي يستغرق ستة اعوام للاطفال جميعاً ، كما ينص على ان يتاح لثلاثين بالمئة من خريجي المدارس الابتدائية دخول المدارس التي تليها ، وان يتاح لعشرين بالمئة من خريجي المدارس التالية ايضاً الدراسة في المعاهد العليا الافريقية الى حد كبير . ولابد من اجل تحقيق الاهداف التي يتضمنها مشروع أديس أبابا من وسائل تمويلية كبيرة . لاتستطيع الدول الافريقية وحدها انتؤمنها ، على الرغم من ان الخطط تنص على ان ترتفع نسبة نفقات التعليم الى مجمل الانتاج القومي من ثلاثة بالمئة في الوقت الحاضر الى ستة بالمئة في عام ١٩٨٠ .

ويأمل مشروع سانتياغو اتاحة التعليم الابتدائي ، الذي يستغرق ستة اعوام لجميع الاطفال في امريكا اللاتينية حتى عام ١٩٧٠ . ويحسن بدول امريكا اللاتينية ان تنفق ٤ ٪ من مجمل انتاجهـــا القومي على التعليم ، ويقتضي مشروع السنوات العشر توظيف مبلغ اجمالي يبلغ (٣٥) مليار أمن الدولارات الامريكية ، وستدرج بلدان آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية في السنوات التالية هذه الأهداف العالمية في مخططاتها التربوية القومية ، تلك المخططات التي يجب ان تتكامل بوساطة تخطيط اقتصادي شامل . وهنا يبرز سؤال وهو : من يخطط للمخططين ، ولابد لجعل التخطيط التربوي المفصل ممكناً في البلدان النامية من (٥٠٠) خبير لآسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية .

ولمواجهة هذه الحاجة المتزايدة الى الخبراء في مجال التخطيط التربوي تم بناء على قرار المؤتمر الثاني عشر للأونيسكو انشاء المعهد العالمي للتخطيط التربوي . وقد باشر هذا المعهد اعماله في الثامن عشر من تموز (١٩٦٣) ، وهو يتلقى تمويله من الاونيسكو والمصرف الدولي ومنحة فورد ، اذ يدفع كلٌ من هؤلاء الثلث ، وقد اعلنت الحكومة الفرنسية استعدادها لوضع المباني والتجهيزات اللازمة تحت تصرفه ، ويقوم المعهد الآن في مبنى الأونيسكو .

ومنذ وقت قريب قال مديره فيليب ه . كومبس في معرض حديثه عن أهداف المعهد : « انه لمن الضروري جداً ان يستعان بنظام التعليم ، فبهذا وحده يستطيع المرء ان يؤمن القوى الاختصاصية ذات التربية والتدريب الكافيين ، تلك القوى التي لا يستغنى عنها في مجال التنمية الاقتصادية ودعم المؤسسات المحلية وفي مجال التقدم العام . ان مصانع الصلب الجديدة والجسور ومطارات الطائرات النفاثة ستظل عديمة النفع كما ستظل رموزاً للمظاهر الاجتماعية تكلف ثمناً باهظاً مالم تطور الاحتياطيات المادية والبشرية للأمة في وقت واحد وعلى أساس علاقة صحيحة بين كلتيها . وفي هذه الحالة لابد للبلدان المتطورة ان تضع أسس نظمها التعليمية الخاصة التي تلائم أحوالها الخاصة وقدرتها المالية .

وما نحتاج اليه من أجل ذلك هو في الأساس أنموذج جديد للانسان المختص ، وأود ان أسمي هذا الأنموذج « انموذج خبراء استراتيجية التطوير التربوي » وينبغي لهذا الانموذج ان يكون قادراً على ان ينظر الى جهاز التعليم من زاوية النظر الصحيحة ، وان يحكم على ارتباطه بالعمليات المعقدة للتطوير الاقتصادي حكماً صائباً » .

ويعبر تأسيس هذا المعهد الجديد عن اعتراف متزايد بأهمية العامل البشري في التطوير الاقتصادي والاجتماعي بوساطة رجال الاقتصاد والتربية وعلماء الاجتماع وخبراء الادارة .

ان النقص الحاد في الطاقات الفنية المؤهلة لايعكس ثغرات في نظام التعليم فحسب بل يعني في الوقت نفسه عرقلة شديدة للنمو الاقتصادي للبلدان النامية ، ولا يمكن تصور معونة ماليـــة بدون معونة تعليمية أي معونة استشارية . فمصنع الصلب الجديد ليس له إلا قيمة رمزية ويعتبر باهظ النفقات الى أبعد حد في حالة انعدام الطاقات الفنية اللازمة التي تستطيع ان تتولى الأعمال المعقدة . وكذلك يمكن ان تحقق سياسة الاستثمار في قطاع التعليم . ان جامعة ينقصهـــا الطلاب بسبب نظام تعليمي غير تام ، اي مدارس ابتدائية ومدارس أعلى منها ينقصها الاعداد الكافي ، تعتبر في الحقيقة سياسة ذات أهمية بالغة وقد تكون في الغالب ايضاً جزءاً من الكرامة القومية وآية على بداية الاستقلال في التطور السياسي ، أما اذا نظرنا اليها من الناحية الاقتصادية فانها تعتبر مع ذلك استثماراً غير موفق .

وستكون مهمة المعهد الجديد بحث العلاقات القائمة بين التخطيط التربوي والتخطيط الاقتصادي بمقياس عالمي بحثاً اكثر تفصيلا . وهو يهـدف الى تحقيق التقدم الاقتصادي والاجتماعي عن طريق تحسين التخطيط التربوي ، وفي هـــذه الحالة تتصل المسألة قبل كل شيء بتكامل التخطيط التربوي ضمن اطار التخطيط الاقتصادي . وعلى الرغم من أن المعهد يهتم بالتطورات التي تحدث في مجال التعليم في كل الدول الاعضاء فانه يركز جهوده في المقام الأول على البلدان النامية . والمعهد مؤســسة علمية بالدرجة الأولى يبحث المشاكل التقنية الخاصة بالتخطيط

التربوي والاقتصادي . ولن يختص بقطاع او بآخر من قطاعات التعليم بل سيتناول بالدراسة كل نماذج التعليم الشكلي « Formale Bildung »[1] التي تساهم في التطور الاقتصادي . وقد انشىء بذلك مركز لتبادل عالمي للأفكار يستطيع فيه رجال الاقتصاد والتربية وعلماء الاجتماع والخبراء الآخرون أن يناقشوا المسائل المتعلقة بالتخطيط التربوي والاقتصادي . وفي العامين الأولين سيركز اعضاء المعهد جهودهم على النواحي التالية :

١ — الالمام بالوضع الراهن للمعرفة وتحديد اكثر المهام العلمية للتخطيط التربوي الحاحاً .

٢ — تكوين نظرة شاملة تتناول أوجه نشاط المنظمات الاخرى في حقل التخطيط التربوي .

٣ — اختيار المسائل ذات الأولوية من اجل نشاط المعهد .

٤ — التحضير للجلسات الاولى وعقدها .

وفي نيسان من عام ١٩٦٤ عقد المعهد ندوته العلمية الاولى التي تناولت مشاكل التخطيط التربوي ومناهجه في امريكا اللاتينية ، وكانت المناقشات تهدف الى القاء نظرة شاملة على الوضع الراهن لنظام التعليم في امريكا اللاتينية والخبرات التي تم تحصيلها حتى الآن في مجال التخطيط التربوي . واتيح للمساهمين في تلك الندوة — وهم ثلاثون خبيراً من ثمان دول امريكية لاتينية — فوق ذلك ، ان يقارنوا خطط التعليم في بلدانهم بمثيلاتها في فرنسا ويوغسلافيا والاتحاد السوفياتي .

---

(١) التعليم الشكلي هو ذلك التعليم الذي لاتكون فيه المعلومات غاية في حد ذاتها بل وسيلة لتمرين العقل وارهاف الفكر ، ويسمى في الانكليزية « Formal education » وفي الفرنسية « L'instruction Formelle » — المعرب —

وفي الوقت نفسه تمت صياغة الاسس المنهجية لوضع مخططات تربوية اكثر شمولا ، وقد روعيت في ذلك بصورة خاصة حاجات التطور الاقتصادي والاجتماعي لكل دولة من دول امريكا اللاتينية .

وفي وسعنا ان نلخص هذا بقولنا ان الاستثمارات في مجال التعليم تعتبر من الشروط الاولية للنمو الاقتصادي في البلدان النامية . انها تفيد في توسيع البنية التحتية الاقتصادية والاجتماعية . وبناء على ذلك فانها لاتقل اهمية عن الاستثمارات المادية .

وبعد ان تبينت لنا هذه الملابسات تتجلى المهمة الرئيسة للمعهد العالمي للتخطيط التربوي في تدريب الخبراء اللازمين لتنفيذ المخططات الشاملة في اديس أبابا وكراتشي وسانتياجو ليغدو من الممكن تحقيق التطور الضروري من أجل النمو الاقتصادي السريع في آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية ضمن اطار اهداف ميثاق الامم المتحدة ومبادئه .

دراسة سيكولوجية تنشر لأول مرة

عن وودرو ويلسون Woodrow Wilson

لسغموند فرويد S. Freud
ترجمها عن الانكليزية هاني الراهب

هذه مخطوطة ، مضى على البحث عنها عند مالكيها عشر سنوات. لقد كتبها فرويد بطلب من سفير الولايات المتحدة في برلين عام ١٩٣٠ . وبعد أن ماتت أرملة وودرو ويلسون منذ عهد قريب ، صار بالامكان نشرها . إن الاوراق الأصلية التي كتب عليها فرويد دراسته هذه مفقودة، ونحن لانعرف عنها أكثر من أنها مقدمة لكتاب وضعه السفير الامريكي عن الرئيس الثامن والعشرين لبلاده .

عندما ينشر مؤلف رأيه حول شخصية تاريخية ، قلما ينسى أن يؤكد لقرائه أنه بذل ما في وسعه كيلا يكون متحيزاً ، وأنه انصرف للدراسة بعيداً عن العاطفة. إن علي أن أبدأ إسهامي في هذه الدراسة النفسية لتوماس وودرو ويلسون بالاعتراف بأن شخصية هذا الرئيس الامريكي كما برزت على الأفق الاوروبي ، كنت منذ البداية بعيدة عن تعاطفي ، وأن إشاحتي عنه ازدادت عبر السنين بازدياد معلوماتي عنه وبالنتائج القاسية التي نجمت عن تدخله في مصيرنا .

وبالتعرف المستمر ، لم يعد صعباً إيجاد السبب الكامن وراء هذا الشعور العدائي . لقد نقل إلينا أن ويلسون قد هز أحد السياسيين الذين نافسوه بجدارة على مركز الرئاسة بقوله : «لقد أرسلني الله لأكون الرئيس التالي للولايات المتحدة . لا أنت ولا أي فاني آخر يستطيع أن يمنع ذلك . » وهذا السياسي هو ماك كومبز رئيس اللجنة القومية للحزب الديمقراطي . ولست أعرف كيف أتجنب الوصول الى هذه النتيجة ، وهي أن إنساناً يتوهم الاساطير الدينية حقائق ويؤمن بوجود صلة شخصية بينه وبين القادر على كل شيء غير جدير البتة بمعالجة قضايا تتعلق بأبناء آدم . كنا نعلم ان المعسكر المعادي كان يدعمه، خلال الحرب ، فكرة حبيب مختار من العناية الالهية هو القيصر الألماني . لقد كان أشد ما يدعو الى الأسف ظهور الفكرة نفسها في المعسكر الأول . إن أحداً منهما لم يربح، فاحترام البشرية لم يزدد .

لقد كان للرئيس ميزة أخرى ، ركز عليها شخصاً مثيراً لوماً شديداً ، وهي أنه غريب عن عالمنا . نحن اعتدنا ، عبر تطور عنيف أن نضع حدوداً بين عالمنا النفسي الداخلي وعالم الواقع الخارجي . ويمكننا أن نفهم العالم الثاني بالملاحظة والدراسة والاكتشافات . وفي هذا المنطق لم يكن سهلاً علينا أن نفسر تفسيراً يرضي رغباتنا ويؤكد أوهامنا . لكن هذا القهر الذاتي عوض لنا . لقد قادنا إلى سيادة على الطبيعة لم نحلم بها .

حديثاً ، بدأنا نستخدم الأسلوب نفسه مع محتوى عالمنا النفسي الداخلي . ونشأت متطلبات أصعب لتحقيق النقد الذاتي واحترام الحقائق الواقعية . وكلما اتسعت وتعمقت معرفتنا بالحياة الباطنية ازدادت قوتنا على ضبط وقيادة رغباتنا الأصلية. لكن ويلسون عاش وهو يكرر إعلانه ان الوقائع المجردة لم تكن ذات أهمية بالنسبة له ، وأنه لا يجل شيئاً سوى الدوافع والآراء الانسانية . وكنتيجة لهذا الموقف ، كان طبيعياً منه ان يتجاهل في تفكيره حقائق العالم الخارجي ، حتى لينكر وجودها عندما تصطدم مع أمانيه ورغباته . وقد فقد بذلك الحافز الطبيعي لانتقاص جهله بتعلمه للحقائق

الواقعية. لم يهمه شيء سوى النوايا النبيلة. وعندما عبر الأطلسي حاملاً لأوروبا الممزقة سلاماً عادلاً دائماً، وضع نفسه موضع المحسن الذي يرغب في أن يعيد للمريض بصره من غير أن يعرف تركيب العين، وأهمل تعلمه الطرق الضرورية للعملية الجراحية.

إن عادة التفكير هذه هي المسؤولة، على الأرجح، عن التذبذب وانعدام الثقة، وعن الميل الى نكران الحقيقة، التي تظهر في احتكاكات ويلسون مع الآخرين على نحو فاجع، خاصة بالنسبة لمثالي. انه لضروري ان يدعم الدافع لقول الحقيقة بالأخلاق، ولكن ينبغي أن يؤسس على احترام الحقيقة الواقعية.

علي ايضاً أن اعبر عن اعتقادي بوجود صلة وثيقة بين غربة ويلسون عن عالم الواقع وبين معتقداته الدينية. ان كثيراً من نشاطه العام يعطي الانطباع بأن طريقته هي طريقة (العلم المسيحي) مطبقة في السياسة. الله خير، المرض شر. المرض يناقض طبيعة الله، وعليه، فانه ما دام الله موجوداً، فالمرض غير موجود. لا يوجد مرض أبداً. ومن هنا يتوقع وجود مداو من هذه المدرسة يهتم بدراسة الأعراض المرضية وتشخيصها.

سأعود الآن الى نقطة البداية، وهي شعوري العدائي لويلسون، كما اضيف كلمة تبرير. نحن جميعاً نعلم أننا غير مسؤولين تماماً عن نتائج أعمالنا. نحن نتصرف بنوايا معينة، ثم تنجم عن تصرفاتنا نتائج لم نتقصدها ولم نستطع التنبؤ بها. وهكذا نحصد لوماً اكثر مما نستحق، وسوء سمعة، او مديحاً أكثر مما نستحق.

لكن عاطفتي لم تبق ثابتة تجاه ويلسون. لقد كان لدي شيء من التعاطف، لكنه تعاطف من نوع خاص ممزوج بالشفقة المشابهة لشفقتنا على بطل سرفانتيس، بطل (لامانتشا) الساذج. وأخيراً، عندما نقارن قوة الرجل بعظمة المهمة التي حملها، تغدو هذه الشفقة غامرة حتى لتطرد جميع الانفعالات الاخرى. وفي النهاية، اعتقد أني غدوت جديراً بأن اطلب من القارىء ألا يرفض هذه الدراسة بدعوى أنها نتيجة ضغينة...

ولا بد الآن من قليل من الشروح. قد ينبذ القارىء عملنا اذا ظن أننا لا نقدم دراسة نفسانية، مع أننا استخدمنا طريقة التحليل النفسي في تفحص موضوعنا، واستعملنا فرضيات التحليل النفسي وتعليلاته وحدوده.. إننا على يقين بأن التحليل النفسي جزء من علم النفس. ولا اعتقد أننا في حاجة للاعتذار عن استعمال الطرق التحليلية في الدراسة النفسية المهتمة بالحقائق النفسية الأعمق.

إن نشر نتائج دراسة كهذه عن الآليات النفسية، وعرضها على الرأي العام أثناء

حياة الانسان المدروس، متعذر . ان الطبيب يحافظ على سرية نتائج تحليله نفسية المريض. وعندما يموت انسان كانت لحياته وأعماله اهمية خاصة في الحاضر والمستقبل ، يصبح من حق الرأي العام أن يوافق على جعله موضوعاً لسيرة ذاتية .. ولقـــد مات توماس وودرو ويلسون عام ١٩٢٤ .

وأخيراً ينبغي أن نهاجم الاعتقاد الخاطىء بأن هدفنا الخفي من كتابة هذا الكتاب هو إثبات أن ويلسون كان شخصية مرضية ، او رجلاً شاذاً ، مما يغمط إنجازاته حقها من التقدير العميق . كلا ! ليس هذا قصدنا . وكذلك لو كان كتابنا كذلك فلن يصل الى نهاية علمية . ان الاعتقاد باطار ثابت للاستواء ، ويخط حاد من التمييز بين السوي وغير السوي في حياة نفسية ، قد هجر منذ أمد طويل في بحوثنا . لقد قدمت لنا جميع أنواع العصاب تقنية دقيقة جداً في التشخيص ، ويمكننا بنـــاء على ذلك أن نقول ان أعراض العصاب قد أصبحت الى حد ما عامة بين جميع الكائنات البشرية المتحضرة .

وأكثر من هذا ، لقد اضطررنا الى القول بأنه في احكامنا على الحوادث النفسية غدا غير ملائم تصنيف هذه الحوادث في عبارة سوي — مرضي ، كما هو غير ملائم تصنيفها في عبارة خير — شرير ...

يقول مارك أنتوني عن بروتوس القتيل في مسرحية يوليوس قيصر :

... ان عناصره لممتزجة

الى حد تقف فيه الطبيعة وتقول للعالم كله :

« كان هذا انساناً »

وتعليقاً على هذه الكلمات يهمنا ان نعلن ان عناصر التركيب النفسي هي دائماًنفسها. ان مايتغير في هذا المزيج هو كمية العناصر العددية وتمركزها في حقول الحياة النفسية المختلفة وارتباطها بالموضوعات المختلفة . وتبعاً لمحكات معينة ، نقيم عندئذ شخصية الفرد من حيث هي شخصية سوية أو غير سوية أومظهرة لآثار مرضية ، لكن هذه المحكات ليست موحدة ، أوثابتة أوجديرة بالاعتماد عليها ، ومن الصعب التقاطها علمياً ، لأنها في القرارة تغدو سمات عملية ، ذات أصل تقليدي غالباً . « سوي » تعني عادة الانسان العادي الذي هو حصيلة التركيب النفسي والحياة الاجتماعية ..

* * *

ضوء وعتمة

لقد ألفت كتب عديدة عن توماس وودرو ويلسون . وحاول كثير من أصدقائه تفسيره لأنفسهم وللآخرين . لهذه التفسيرات صفة واحدة مشتركة : انهم ينتهون إلى نوع من عدم التأكد . ويبقى ويلسون حتى بالنسبة للمؤرخين وأصدقائه الحميمين شخصية متناقضة ولغزاً . في العاشر من حزيران عام ١٩١٩ ، في الشهر الأخير لمؤتمر السلام كتب العقيد هاوس في مذكراته :

« أعتقد أنني لم أعرف رجلاً تغير مظهره بهذا القدر بين ساعة وأخرى انه ليس وجه الرئيس فقط مايتغير . انه واحد من اكثر الشخصيات صعوبة وتعقيداً ، بين من عرفت . انه متناقض حتى ليصعب الحكم عليه . »

وينتهي جميع معارف ويلسون ، على تنوعهم ، الى هذه النتيجة .

لقد كان ويلسون بالفعل معقداً . ولن يكون من السهل ان نكتشف علامة الوحدة في شخصيته ، التي غطت على تناقضاتها الواضحة . ونحن لن نتمكن من الوصول الى تحليل نهائي لشخصيته . اننا لانعرف شيئاً عن كثير من احداث حياته . والحقائق التي نعرفها أقل اهمية من التي لانعرفها .كان يمكن اكتشاف جميع هذه الحقائق لو أننا عرفناه حياً وأخضعناه للتحليل النفسي ، لكنه ميت ، ولن يعرف أحد هذه الحقائق . وكذلك فلن نستطيع ان نتفهم الحوادث الحاسمة في حياته النفسية ، سواء بتفاصيلها أو بارتباطاتها وتبعاً لهذا فنحن نسمي هذه الدراسة دراسة نفسانية معتمدة على مالدينا من مواد ، ولا شيء أكثر .

ومن ناحية أخرى ، نحن لانود ان نقلل من اهمية الشواهد التي نملك . نحن نعرف كثيراً عن ويلسون وشخصيته .. والى الحقائق التي نعرفها عنه من حيث هو فرد نضيف حقائق التحليل النفسي التي اكتشفنا صحتها بالنسبة لجميع البشر . ولا يعني هذا ان التحليل النفسي قد كشف الغوامض النهائية للحياة البشرية . لقد قادنا فقط الى الباب المؤدي للحياة الباطنية عند الانسان ...

تومي الصغير

لنتفحص الانسان الذي ولد في (مانس ستونتن) بفرجينيا في ٢٨ كانون الاول ١٨٥٦ ، وأمضى طفولته في (مانس أوغستا) ، بجورجيا . الطفل الذكر الوحيد لأبيه وأمه ، المريض الممرض ، يحبه ويرعاه أبوه وأمه وأختاه . انه لم يستطع ان

يتجنب تركيزاً عظيماً لاهتمامه بنفسه . وليس ثمة من دليل على أنه كان مقصر في إعجابه بشخصه . لقد أحب نفسه في الواقع دائماً ، وإلى حد بالغ . ولكي يكون سعيداً اضطر الى ان يحب مثيلاً لذاته . وعبر هذا الحب حصل على مخرج إضافي لشحنته الخصبة من الليبيدو ، التي نمت مع نرجسيته . لاشك أن جزءاً كبيراً من هذا الليبيدو ظل يجد مخرجاً دائماً في نرجسية صاحبه ، حتى ذلك الجزء الذي أفرغ عن طريق الحب .

ثمة نوعان من اختيار الموضوع : مباشر ونرجسي . وفي الصيغة المباشرة لاختيار الموضوع يفيض الليبيدو مباشرة نحو شخص في الخارج ؛ الى ام الطفل ، او أبيه ، اوأخيه او أخته ، او الى شخص آخر . وتعطى القيمة للشخص بذاته ، مهما كانت أهميته اوشبهه بشخصية الطفل . ونحن ندعو هذا النوع من اختيار الموضوع «حباً من النموذج الميال» لأن الطفل « يميل » اولا او « يسقط » غرائزه الجنسية على اول شخص يرضي حاجاته الجندية . ومن ناحية أخرى ، يطفو ليبيدو الطفل ، في النموذج النرجسي ، على شخص خارجي يشبه بطريقة ما الطفل ذاته . انه يحب الجزء من نفسه الذي يراه في الشخص الآخر . انه لا يحب ذلك «الموضوع» لصفاته التي يختلف بها عنه ، وانما للصفات التي يملكها الموضوع والتي تشبه صفات الطفل . وهكذا فهو يحب نفسه عبر موضوع ، وتجد نرجسيته مخرجاً إضافياً بطريقة متكاملة .

سوف نرى فيما بعد ان ويلسون قد استفاد عدة مرات من اختيار الموضوع على أساس النموذج النرجسي . ومع ذلك فهو لم يكن واحداً من التعساء الذين يجدون مخرجاً لليبيدو عبر النرجسية فقط . لقد احتوت نرجسيته ، التي حفظتها لطفولته ، شحنة من الليبيدو اضخم من المعتاد ، ولكنها لم تصل الى حد عدم الاستواء . فقد وجد قسم كبير منها مخرجاً له ، كما يجدها لدى جميع الاسوياء بالعلاقات السلبية والنشيطة .

وبالنسبة لطفولة ويلسون ، دعونا نتذكر أبرز واقعة في حياته ؛ واقعة كون ابيه موضوع حبه الاكبر . لقد كان ابوه المثال الاعظم في حياته . وبالمقارنة ، فان أمه مثال صغير جداً . وواضح ان كثيراً من ليبيدو ويلسون وجد مخرجاً له في العلاقة بين الاب وابنه اكبر من أي مخرج آخر ، وخاصة الام . ونتوقع في هذا ان مهمة (أناه) في التوفيق بين رغباته المتصارعة تجاه أبيه ستكون اصعب من مهمته في التوفيق بين رغباته المتصارعة تجاه امه . وقد ثبت صحة ذلك . لقد احرزت أناه توفيقاً سهلاً بين رغباته المتصارعة تجاه أمه . وغدت علاقاته بالنساء سوية وعادية . لكن أناه لم تستطع ابداً ان تحرز مثل هذا التوفيق بين هذه الرغبات تجاه ابيه .

ولعل القارىء يود ان يلاحظ ان رغبات ويلسون تجاه ابيه لم تكن في صراع ، ان ويلسون لم يتصرف في حياته كلها تصرفاً عدائياً ضد أبيه ، لا بالقول ولا بالفكر ولا بالعمل ، وانه بينما كان شطر غير عادي من ليبيدو ويلسون قد شحن بالسلبية تجاه أبيه ، فانه ما من شطر ولو يسير قد شحن بالعداء تجاه ذلك الأب . ان الجواب على هذا بسيط : لقد كان ويلسون كائناً بشرياً ، وعرضة لقوانين النمو السائدة بين البشر . فهو بالتأكيد لم يكن واحداً من هؤلاء التعساء الذين ولدوا بلا ذكورة . ولقد اثبت تحليل آلاف الرجال ان الليبيدو يشحن رغبات سلبية وعدوانية تجاه موضوعات الحب . ولايمكن ان يوجد التباس في ان الشطر الذي شحن بالسلبية من ليبيدو ويلسون كان ضخما . وكذلك فقد كان هذا الشطر المشحون مخزوناً في نشاطه العدواني تجاه أبيه . واذا لم نستطع العثور على تعبير مباشر لعدائه لأبيه فينبغي ان نبحث عن الدليل في التعبير غير المباشر عن هذا العداء . نحن نعلم ان عداءه لابيه قد وجد طريقة ما للتعبير عن نفسه . والحق ان جميع الملامح غير العادية لشخصية ويلسون قد نمت من الكبت والتقمص (Identification) والتصعيد ، وهي الطرق التي استخدمتها أناه العليا في محاولتها التوفيق بين نشاطه العدواني تجاه ابيه وسلبيته تجاه الاب ذاته . وهكذا فان علاقة ويلسون بأبيه ، وبأمثال ابيه ، سوف تشغل القسم الاكبر من دراستنا لشخصيته .

يمتاز الاطفال الصغار الذين لهم اخوات امتيازاً كبيراً على الذين لا أخوات لهم . فالاخوات يصبحن جسراً يمر عليه الليبيدو من صفة الأم الى صفة النساء خارج الاسرة . اما (أنا) الطفل الصغير الذي لا اخوات له فمضطرة الى اجبار الليبيدو على ان يجتاز بوثبة واحدة الصدع القائم ما بين الام والعالم الخارجي . الطفل الصغير الذي له اخوات يحول جزءاً من الليبيدو عنده الى اخته المرتبطة بأمه ، ومن الاخت الى صديقاتها . وهكذا يصل الليبيدو الى النساء خارج الاسرة عن طريق سهل . لكن (أنا) الصغير الذي لا اخوات له تنقل الليبيدو مباشرة من الام الى نساء العالم الخارجي ، وهي مهمة صعبة ، وقد لا تؤدى بنجاح مطلقاً . وربما بقي الليبيدو عند رجال كانوا اطفالا من هذا النوع ، مثبتاً الى الأبد بأمهاتهم . انهم عاجزون عن الانفصال عن امهاتهم . وعندما تموت الأم ، يحدث كثيراً ان يدل الابن السيء الحظ نفسه عليها بالتقمص ، ويقدم للرجال المشابهين له الحب الذي تمنى الحصول عليه من أمه .

لقد كان تومي ويلسون محظوظاً بشكل خاص . لقد كان ممره الى النساء خارج أسرته عريضاً جداً ورحباً ، بوجود اختين له احبتاه بعمق واعتنتا به ، ولعبتا معه بالاشتراك مع قريباته . لقد بقي شطر كبير من الليبيدو عنده ملتصقاً بأمه خلال طفولته وصباه ،

لكن شطراً منه عبر الى اخواته وقريباته . ويبدو ان سلبيته تجاه امه قد التصقت بها لمدة طويلة غير عادية اطول من مدة نشاطه . وفي هذا الصدد ، نقتطف جزءاً من رسالة ارسلها الى زوجته عام ١٨٨٨ :

اتذكر كيف التصقت بوشاح امي حتى غدوت شابا كبيراً ، لكن الحب النسوي الأمثل جـاءني من خيوط ذلك الوشاح . ولولم أعش مع ام كتلك لما كان لي ان اكسب واستحق — ربما جزئياً — زوجة كهذه .

وعلينا الا نشك في حبه لزوجته الاولى عندما نعلم انها ما أن توفيت ، بعد أربعـة وعشرين عاماً من الحياة معه ، حتى سارع الى الزواج . لقد علمتنا الخبرة ان الرجال السعداء في زواجهم مهيأون للزواج ثانية . وتشير السرعة التي تم بها زواجه الثاني الى ان بديلة أمه كانت ضرورة حياتية لامناص منها .

ان ميله نحو أمه ، ومعه بالطبع بعض من سلبيته ، قد عبر في مرحلة مبكرة الى اختيه ، وهما تكبرانه سناً وخاصة اخته (آن) التي تكبره بعامين والتي احبته واحبها بعمق . لقد احب اللعب مع هاتين الاختين ومع صديقاتهما ، وخاصة مع ابنة خاله التي كانت اصغر منه ، وتحمل اسم أمه : جسي وودرو بونز .

من الصعب على من لم يقم بدراسة مختصة تقدر مدى التقمص بين حاملي الاسماء المتشابهة ، انه ليبدو يقيناً ان تومي ويلسون قمص جسي وودرو بونز في أمه جسي وودرو ويلسون ، ونقل اليها عبر اخته آن شطراً لابأس به من الليبيدو عنده الموجه بالأصل نحو أمه . لقد كان مولعاً باللعب معها لعبة « الهنود » وفي أحد الايام ، عندما كانت تعلو شجرة تمثل دور السنجاب ، جاء تومي — وهو يمثل دور الصياد الهندي - وأطلق سهما من جعبته على جسمها . وسقطت على الارض مغمى عليها ، ولكن سليمة . ونقلها تومي الى البيت وهو يصيح بندم وحشي : « أنا مجرم . لم تكن صدفة . أنا قتلتها . »

ولاينبغي ان نعطي لحوادث كهذه اهتماماً بالغاً . ولكن يستحيل ان نتجنب الانطباع عن ان هذه الحادثة تعني اتمام عملية نقل شطر من الليبيدو عند ويلسون الى ابنة خاله . وعندما بلغ الحادية عشرة من عمره ، اجتاز مرحلة طويلة في علاقات سوية مع النساء . ولو لم يكن هذا صحيحاً لما أحس بهذا الندم المبالغ فيه . لكن الليبيدو عنده لم ينفصل نهائياً عن امه ، وبقي حتى زواجه في (ايلين آكسون) بعد سبعة عشر عاما . لكن هـذا الانفصال كان قد تجاوز الى حد لم يعد يخشى عنده من اعتماد صاحبه الكلي على أمه . وهكذا فقد حلّت أناه معضلة عقدة أوديب قبل بلوغه فترة المراهقة ، ويحق لنا ان نتوقـع

علاقات سوية له مع النساء . وكذلك كانت . ولأجل هذا ، عليه أن يشكر اختيه وابنة خالته (جسي وودرو بونز).

إن الحقائق المتعلقة بعلاقة ويلسون اثناء الطفولة بأبيه تقدم صورة رائعة للعبادة . كثير من الصبيان الصغار يعبدون آباءهم : ولكن لاأحد يفعل ذلك بالعمق والكمال اللذين فعلها تومي ويلسون . ان ابكر ذكريات الطفل كان يوم ركض الى ابيه يسأله تفسيراً . وخلال حياته كلها استمر يركض نحو ابيه طلباً للمعونة ، ان الطفـــل المريض لم يذهب للمدرسة . ليتعلم القراءة ، تلقى كل تربيته الباكرة من شفتي ابيه . وقد تشرب تلك الكلمات بتوق شديد . وقد تكلم الاب كثيراً ، ولكن ليس أكثر مما يروي ظمأ الطفل . وسواء خرجت كلمات الاب في البيت ، أو اثناء الوعظ ، أو الصلاة ، أو الوجبات ، أو قراءة المساء ، او الحوار ، او النزهات ، او من منبر الكنيسة ، فقد هضمها تومي بجوع ، وحدق الى وجه ابيه بعبادة مطلقة . كان يقول عن ابيه رجل الدين جوزيف ركاز ويلسون «والدي الذي لامثيل له ».

صدق السيد ستاترد بيكر إذ قال « كان أبوه أعظم شخصية في حياته ، ولعـــله الاعظم طوال حياته كلها . ان الرسائل التي تبادلاها لم تكن غير رسائل غرام » . وكان الاستاذ (دبنيانز) مصيباً في تسمية حب ويلسون لابنه بـ « عاطفته المسيطرة » .

حين نحاول ان نجد دليلاً على التعبير المباشر لعداء تومي ويلسون لأبيه ، نكتشف انه خلال الاعوام الثانية والستين التي عاشها لم تخرج منه فكرة معادية أو عمل معاد موجه نحو ابيه . لقد استمر يسأل أباه النصيحة ويتبعها طوال حياة أبيه ، وظل الابن حتى نهاية حياتـــه يتحدث عن ابيه بحب وإعجاب . خالفه فقط في اختياره لمهنته ورفض الانصياع له . لقد أراد ابوه له ان يغدو كاهناً . وألح هو على ان يكون سياسياً . وسوف نناقش فيما بعد هذا القرار ، ونطلب من القارىء الآن إن يعلق حكمه عليه . سنشير فقط الى ان هذا القرار قد يثبت كونه تعبيراً لا عن العدائية نحو ابيه ، وانما عن اعجاب بهذا الاب الذي لامثيل له . ماالذي حدث اذن لنشاط تومي ويلسون العدواني تجاه ابيه ؟

لقد أشرنا الى أن (الأنا) تستخدم للتوفيق بين الرغبات المتصارعة ثلاث طرق : الكبت ، التقمص ، التصعيد . ويتوقف نوع التوفيق الذي تعتاده (الأنا) على قوة الذكورة والانوثة المولودتين في الطفل ، وعلى حوادث الطفولة .

لقد خضع تومي ولسون في طفولته لأب عامر القوة ، أب قوي انيق ، حاضر أمام ابنه بلا انقطاع ، وقبّله ولاعبه ، ووعظه وسيطر عليه كمثل الله على الارض . ولو

كانت ذكورة تومي اقوى من انوثته ، لوجد في ذلك الأب ثقلاً لايحتمل ، ولكرهه كما يكره كثير من أبناء القسس آباءهم ، ولكن انوثة تومي ويلسون في الحقيقة كانت اقوى بكثير من ذكورته،في تلك المرحلة من عمره على الأقل . وكان الشطر الذي شحن بالسلبية من الليبيدو – تجـاه والده – أعظم بكثير من الشطر الذي شحن بالنشاط العدواني . وواضح أن (أناه) استخدمت طريقة الكبت في معالجتهـا للصراع بين سلبيته القوية ونشاطه العدواني الهزيل نسبياً . لقد قمع نشاطه العدواني تجاه ابيه . وقد وجد شطر منه مخزناً في الأنا العليا ، ولكن لاشيء منه لاقى تفريغاً عبر عدائية مباشرة ضد ابيه .

لقد أشرنا الى أن الكبت أقل الطرق فعالية في التوفيق بين الرغبات المتصارعة . ان الرغبة المكبوتة لاتموت ، بل تبقى باحثة عن تفريغ ، ومحمية من النقد العقلي لأنها فصلت عن الوعي . وبسبب من هذا العزل ومن انسحاب الرغبة من تحت سلطة العقل المهدئة ، فانها تجمع كمية كبيرة من الليبيدو . ولقد وجدنا ان الشطر الذي كبته تومي ويلسون من عدائه لأبيه كان مكبوتاً كبتاً مطلقاً ، وانه لم يحدث له أن افرغ شحنته ضد الأب . لكنه استمر يبحث عن تفريغ ، وقد انفجر في عديد من المرات ضد بدلاء أبيه ، قاذفاً به في يم كراهية عنيفة غير معقولة (مثل عميد جامعة برنستون ، وست) . ولقد وجد صعوبة سلوكية في جميع الاوقات التي اضطرته الى اقامة علاقات ودية مع رجال أعلى مرتبة منه أو ذكاء ، وفضل أن يحيط نفسه بنساء او بمن هم دونه .

أما الشطر من نشاطه العدواني تجاه أبيه ، الذي وجد مخرجاً له بتقمص هذا الأب فقد كون في نفسه (أنا عليا) مضخمة هائلة القوة . من الطبيعي ان يستبدل طفل صغير رغبته في قتل أبيه برغبة في التغلب عليه عن طريق التقمص النفسي لشخصيته . هـذا التقمص يولد الأنا العليا . ولقد تقمص تومي ويلسون أباه الى درجة استثنائية ، لقد فكر بأفكار ابيه . تكلم كلمات ابيه . جعل أباه نموذجه الكامل ، في حرصه على الكلمات المنتقاة ، وازدرائه للحقائق الواقعية . وقد بلغ تقليده له ، أن صار يلقي المواعظ من على منبر الكنيسة على جمهور متخيل ، وقد ارتدى لباس الكهنة كقسيس من المذهب المشيخي متزوج من امرأة مشيخية المذهب ايضاً .

ولم ينشأ الى ابعد من تقمص أبيه . بقيت مزاياه ونقائصه مزايا ونقائص هذا الأب .. لم يستطع ان يتخيل أي رجل اكثر كمالاً منه . لقد وجد الأب تعبيره المطلق عن نفسه بالمواعظ الملقاة من منبر الكنيسة ، ووجد تومي ويلسون هذا التعبير بالمواعظ الملقاة من منبر اسمه البيت الابيض . لم يكن الأب معتاداً على ايجـاد طرق عملية لتحويل مبادئه

الوعظية الى وقائع ، كذلك كان الابن ، عندما قدم العالم مبادئه الاربعة عشر من أجل السلام . لقد غنى الأب ، ومثله غنى الابن ، قرأ لأسرته في المساء ، ومثله قرأ الابن . مايفعله الأب جدير بالفعل ، ومالا يفعله غير جدير بالفعل . لقد دخن الأب بلا انقطاع ، ولكن تومي لم يدخن البتة : « لقد فعل أبي ذلك في حياته بما يكفينا كلينا . » وحتى في حادثة التدخين هذه ، التي فشل في ان يقلد بها أباه ، كان ناجحاً في الكشف الواضح عن شعوره بانه وأباه كانا واحداً . ولقد عاش حياة والده على نطاق أوسع ومستوى أجل .

ومن خلال مبالغته بمزايا أبيه ، نمّى ويلسون في شعوره صورة « الأب الذي لامثيل له » . وتحولت هذه الصورة الى أنا عليا ، ولقد مارست أناه العليا سلطة ضخمة على حياته ، إذ دفعت رجلاً مريضاً مثله الى بلوغ أعلى مراتب السلطة والقوة ،

لقد وصفنا كيف أن عدداً كبيراً من الصبيان – وهم أقـل مقدرة من تومي ويلسون – يضخمون في لا شعورهم القوي والفضائل عند آبائهم حتى يصلوهم بالقادر على كل شيء ، كامل الفضيلة ، الله . ويصبح هذا القادر على كل شيء الأنا العليا لهؤلاء الصبيان ، بالتقمص . ولاشك ان هذا حدث لتومي ويلسون . ولو انه لم يحدث لكانت هذه الظاهرة شيئاً خطيراً . فعندما نظر الابن الصغير الى ابيه الأجمل والآنق بين الرجال ، منتصباً على المنبر وكلمات الله تنساب من فمه ، لم يستطع ان يتفادى خلط أبيه في الله . إن الله الذي عبده توماس وودرو ويلسون حتى آخر يوم من حياته هو القس المحترم جوزيف ركلز ويلسون ، أبو طفولته الذي لايقارن . وحتى العاشرة من عمره كان ابن الله الوحيد المحبوب . وكانت خاتمة تلك الفترة ظهور صفة نفسية واضحة وخطيرة في شخصيته هي تعريفه لذاته بابن الله ، مخلص البشر : اذا كان أبوه الله ، فهو نفسه الأبن الأوحد الأحب ، يسوع المسيح .

سوف نرى نتائج هذا التقمص تظهر عبر حياته كلها ، لكننا لن نتوقع هنا تطورات جاءت فيما بعد . يمكننا فقط ان نسجل نتيجتين لتكون أناه العليا على صورة الله . فكما أوضحنا ، إن أناً عليا مثل هذه لايمكن أن ترضى . وبغض النظر عما يمكن أن يحرزه مالكها ، فهو يشعر دائماً أنه لم يعمل بما فيه الكفاية . إنه لايفرح بانجازاته وإنما يسخط من نفسه لما لم ينجز . إنه لن يستطيع إنجاز مافي نفسه ، لأن أناه العليا تطلب المستحيل . وخلال حياة ويلسون كانت هذه الصفة واحدة من صفاته . فعندما كان ينجز شيئاً ما ، كان يبتهج به للحظة عابرة . وسرعان ما يثقله الشعور بأنه يريد إنجاز أكثر مما أنجز .

النتيجة الثانية لتأسيس أنا عليا على أنها الله ، هي أن الطفل يشعر بوجود الله في

ذاته . أي فعل يفعل صحيح ، لأن الله قام به . في لاوعيه أنه هو الله . ولقد كان تومي ويلسون قادراً على تبرير أعمال غريبة كثيرة بسبب من هذا اليقين اللاواعي . أحياناً كان يعترف بأن مافعله « غلط » ، لكنه لم يعترف أبداً بأنه « أخطأ » . ـ أناه ـ العليا لاتسمح بذلك . وبدلاً من الاعتراف نسي أو مزق الوقائع ، مديراً ظهره الى عالم الواقع ، ومقيماً حقائق تخيلية تناسبه .

ليس صعباً أن نلحظ أن امتلاك ـ أنا ـ عليا كهذه ، يدفع صاحبها إما الى العظمة او الى العصاب او الى الذهان . ان مطالبها لاترتوى . واذا لم ترو ، تعذب ـ الأنا ـ العليا مالكها أشد العذاب . ويحاول هو أن يبرر نفسه بالانجازات العملية ، وغالباً ماينجز أشياء عظيمة . ومالم تكن هذه الانجازات مرضية للـ ـ أنا ـ العليا ، فانها تسوطه من جديد . وهو لايستطيع ان ينجز في عالم الواقع اكثر مما فعل . ولكي يتفادى السوط ، يختلق انجازات وهمية ، وليؤمن بما يختلق يشتت عالم الواقع . وقد يغدو بالتالي ذهانياً . واذا كانت قبضته على الواقع أقوى ، فهو يعاني من سياط ـ أناه ـ العليا ، ويغدو عصابياً . أما الرجل الذي يجعل من الله ـ أناه ـ العليا ، فيخطو على جسر نحيل صعداً نحو جبل العظمة ، محاولاً المحافظة على توازنه بين هوة العصاب من جانب وهوة الذهان من جانب آخر . وهو محظوظ إذا لم يسقط ، قبل نهاية حياته ، في احدى الهوتين . سوف نرى كيف دفعت تومي ويلسون ـ أناه ـ العليا صعداً على هذا الجسر الضيق ، كيف ترنح عدة مرات باتجاه العصاب ، وكيف كاد يغرق في الذهان عندما قارب نهاية حياته .

الأب والابن :

قبل أن نفحص ويلسون شاباً ، علينا أن نتم تحليلنا لرغباته عندما كان طفلاً ، وعلينا ان نحلل سلبيته تجاه أبيه . ونحن واثقون في أن القارىء سيتذكر أن شخصيته ، وشخصية كل انسان آخر ، مغروسة في ازدواجية جنسية ، كما كانت شخصية ويلسون .

لقد اعتاد معظم الناس تقريباً على تأمل التقاطيع والاعضاء البدنية في اجسامهم دونما خجل . ان تذكيرنا للآخرين بوجود الاوكسيجين والهيدروجين في جسم الانسان لا يسبب اثارة . ولكن الناس لم يتعودوا كلهم على النظر الى الجسم بهدوء . أما ذكر الطبيعة المزدوجة للجنس عند الفرد ، فمايزال يبدو غريباً بالنسبة لأنصاف الأميين . ومع ذلك فالازدواجية الجنسية في الطبيعة البشرية واقعة . ويجب ألا تثير من الانفعال اكثر مما يثيره كون خمسة وتسعين بالمئة من الجسم مركباً من الماء . ولو لم يكن البشر مزدوجي

الجنس لما كانوا بشراً . وان ولادة الطفل بجنس مزدوج أمر عادي مثل ولادته بعينين . الذكر والانثى ، بدون ازدواجية جنسية ،مجردان من الانسانية كا لسايكلوب . وكما قد يستخدم فنان واحد الالوان نفسها ليرسم لوحة جميلة او فاشلة ،فان -الأنا- تجمع الذكورة والأنوثة في نفس واحدة لترسم شخصية يحق لنا أن نحكم عليها بأنها جميلة او قبيحة دون أن نزيفها. قد تستخدم الذكورة من اجل الجريمة او من أجل البطولة : إننا نلوم كل شيء أمامنا او نطريه ، وهذا نتاج لنشاط -الأنا- عبر الذكورة والانوثة . ولكن لاشيء يمدح او يلام لمجرد وجود الذكورة والانوثة في نفس واحدة. انها يوجدان؛ وهذا هو كل شيء . عندما اعلنت مرغريت فولر « قسينسة نيوانجلندا المتعالية » أنها تتقبل العالم ، علق كارلايل : « وحق الرب ، يحسن بهـا أن تفعل » . كتقبلنا للعالم ، يجب أن يكون تقبلنا لازدواجية الجنس .

لقد كان ما استخدمته (أنا) ويلسون من مخارج لسلبيته تجاه أبيه مقبولة جميعها لدى -أنا- العليا . وكان المخرج الرئيسي تسليمه المباشر بإرادة أبيه . لقد قام بما أراده والده أن يقوم بـه ، وامتنع مما أراده والده الامتناع عنه. كل لقد قبل أفكار أبيه بلا أسئلة ، وقيادة أبيه بتعبد. وأطلع والده على كل مشكلة في حياته. ويقول متاثاره بيكر : « لم يتخذ وودرو ويلسون حتى الاربعين من عمره اي قرار من اي نوع قبل أن يستأنس بنصيحة أبيه » . وقد اعتمد ماليا على أبيه ، حتى بلغ التاسعة والعشرين من العمر . لقد أراده ابوه أن يكون مشيخيا طيباً وأخلاقياً ، فكان . وأراده أن يكون متكلماً فكان .

وهكذا وجد شطر من سلبية ويلسون تجاه ابيه ، مخرجاً عبر التسليم المباشر له . لكن التسليم الذي أراد في اللا شعور ابداءه أضخم بكثير مما استطاع أن يظهر. و كنتيجة لذلك بحث عن مزيد من الطرق . كان أحد المخارج تسليمه لله الذي مثّل والده . وقد وافقت -أنا- العليا على هذا التسليم . ولقد استمتع طوال حياته بالتصرفات اليومية التي تعبر عن هذا التسليم لله : صلوات الصباح ، صلوات المساء ، طلب البركة قبل كل وجبة ، وقراءة الانجيل كل يوم . وكان حاجته التسليم الى الله من القوة بحيث منعت عن ذهنه جميع الشكوك الدينية . الشك يعني قطع مخرج بحاجة . قال ولسون : « الله المعين لكل انسان ، بالصلاة وحدها أبقى الى جانب روح أبي» . وقال مرتين على الاقل : « أنا اؤمن بالعناية الالهية . اذا لم أؤمن أجن » . ان ملاحظاتنا حول كلمته لا تعني أن من العيب الموافقة على فكرته . أما بالنسبة لويلسون فقد كان شطر عظيم من سلبيته نحو أبيه يخرج من التسليات اليومية لله الذي هو بمثابة أبيه. وكان مستحيلا الاستعاضة عن هذا المخرج بآخر

يقوم بمهمته . ولو لم يتمكن من القيام بهذا التسليم يومياً للجأ إلى الهلوسة (Paranoia)" العقلية ، وأنمى في ذاته هاجس المطاردة . كان يمكن أن يغدو لا ساكن البيت الابيض وانما ساكناً في مصح الأمراض العقلية .

كان تقمصه أمه مخرجاً آخر لسلبيته نحو أبيه . ونحن لا نعرف ما يكفي من المعلومات للتشديد على هذه النقطة . نعلم فقط أنه تقمص امـــه نفسياً . فرغم الرغبة الواعية في أن يكون أباه ، شابه ويلسون أمه ليس فقط في البنية الجسدية ، وانما في الشخصية . لم يكن لديه فقط جسمها النحيل الضعيف ، وانما قسوتها وحياؤها وشموخها . لقد أحس كثيراً بشبه بأمه ، وعرف ذلك . وأما ملاحظته لـ دولي فيلد مالون فعبرة : « عنـــدما أشعر بتعكر مزاجي او بالمرارة او بالانقباض ، فأنا اعرف أن شخصية امي متحكمة بي . ولكن عندما تبدو الحياة مرحة وحلوة ورائعة ، فأنا اعرف أن حصة والدي من ذاتي تصعد الى قمتها » . وكان غالباً ما يحس بتعكر مزاجه وبالمرارة والانقباض .

لو كان ويلسون حياً ، وقبل ان نحلله نفسياً لوجدنا بلا شك ان تقمصه أمه كان يلعب دوراً هاماً في حياته . ولكن علينا ان نقتنع بأننا سنجد الشاهد عندما نبحث في المراحل الأخيرة من حياته ، الاثباتات التي لدينا تسمح لنا بالقول انه ، مثل جميع الناس ، تقمص أمه ، وعبر تقمصه وجد شطر من سلبيته نحو أبيه مخرجاً .

ثمة رابطة حية أخرى لا نملك عنها اي شاهد او اثبات هي علاقته بشقيقه جوزف . عندما ولد جوزف ركز ويلسون الابن ، كان توماس وودرو ويلسون في العاشرة من عمره . وبصورة طبيعية يغدو الأخ الأكبر في لاشعوره أباً لأخيه الأصغر ، وكذلك يتقمص هذا الأخ ، بحيث يمثل دور الأب في هذه العلاقة وقد أصبح الصغير طفلاً له . ونحن نعلم ان توماس قد علم أخاه جوزف كما علمه أبوه ، وساعد أخاه في عدة سبل ، حتى انه كتب : « انني أعشق أخي » ولم ينس – وهو رئيس – ان يعين أخاه وزيراً للبريد وأميناً لمجلس الشيوخ .

وفي سن الرجولة احتاج ويلسون باستمرار الى علاقة عاطفية قوية مع واحد على الأقل من رجال ، أصغر سناً وحجماً ، وكان يفضله أشقر . وفي هذه الصداقات كان واضحاً ان دور ويلسون هو دور أبيه في حياته . وكان دور الصديق دور الولد الصغير . والأرجح ان ولادة أخيه وهو في العاشرة مهدت لهذا النوع من العلاقات . لقد سجلنا ان الاخ الاكبر يلعب دور الاب بالنسبة للأخ الأصغر ، وبالاضافة الى ذلك فان حساً بالعداء والشك والخيانة قد يرافق هذه العواطف . ولقد تميزت صداقات ويلسون العميقة

بهذه المظاهر بالذات . لقد أحب هبن وهاوس بعمق ، طالما كانا يمثلان له موقف الأخ الصغير المطيع له . وفي النهاية قال عنها إنها خاناه ، وقذف بكل منها في ظلام الخارج كيهودا . لقد رأينا ان هذا الاحساس الهوسي بالخيانة ينبثق دائماً من سلبيته تجاه أبيه ، وهو غالباً مايرتبط بوليد جديد في العائلة . علينا أن نتذكر اذن ، ان ولادة (جو) الصغير دشنت ميزتين هامتين في شخصية شقيقه توماس . الأولى هي ولادة ميل جديد فيه لإقامة علاقات صداقة مع من م أصغر منه يلعب فيها دور الأب ، ويلعب الآخرون دور الابن . والثانية تكوين ميـل لحماية نفسه من سلبيته نحو أبيه بآلية هلوسية . وبالاختصار ، ربما كان أخوه الصغير ذلك الخائن الذي أحبه كثيراً والذي تابعه بعد سنوات طويلة هبن وهاوس . اما الانفعال الأصلي المتضمن فهو بالطبع سلبية تومي ويلسون نحو أبيه . هذه السلبية وصلت الى الصداقات عن طريق أخيه جو . ومن الجدير بالذكر ان اكثر شكوك ويلسون افتقاراً للتبرير كان موجهاً نحو سكرتير البيت الابيض (تيوملتي) الأمين ، وكان هذا أصغر سناً وحجماً من ويلسون ، أشقر ، واسمه جو (جو تيوملتي) كان في لاشعور ويلسون شيئاً مشابهاً لجو ويلسون .

وعندما نتفحص علاقات ويلسون الأخيرة مع جو ، وهبن ، وهاوس ، وتيوملتي ، وآخرين ، نجد ان ولادة جو قد أثارت في نفس ابن العاشرة إنفعالات أعمق وأكثر مما تتوقع من طفل عادي .

لننظر الى الطفل لحظة واحدة من حيث هو كل . كان توماس وودرو ويلسون صبياً مريضاً ، ولا يمنك عنه أحد عطفاً أو تعاطفاً . كان ضعيفاً ، عصبياً ، متأخراً في نموه . وكان بصره كليلاً . وقد عانى باستمرار من سوء الهضم والصداع . ان كونه عصبياً ليس بالشيء الاستثنائي . العصبية هي الاشارة المرئية لصراع داخلي عجزت الأنا عن حله . ولكن لندع جانباً جميع الصراعات التي أرهقته ، فقد كان ثمة سبب كبير للعصبية في الصراع بين أناه العليا التي أمرته بان يكون كامل الذكورة ، الله نفسه ، وبين سلبيته نحو أبيه التي تطلبت ان يسلم لأبيه في كل شيء حتى ولو استحال الى انوثة كاملة . لقد حكمت عليه علاقته الباكرة بأبيه ان يتوقع من نفسه طول حياته اكثر مما يستطيع عقله أو بدنه ان يعطيا . ولهذا تأسست العصبية في ذاته والسخط باكراً . ولهذا السبب فهو يستحق شفقتنا .

مع ذلك ، علينا ان نعرف ان القدر قد حاباه في كثير من المناسبات ، لقد قادته

أخناه وقريباته الى تحويل سهل الليبيدو من أمه الى نساء خارج الأسرة . وهكذا سلك طريقه نحو حياة جنسية سوية . واكثر من ذلك ، فقد كانت طبيعته متلائمة على نحو يدعو الى الاعجاب ، مع الحضارة والطبقة اللتين ولد فيها .

لقد سافرت تقاليد لولارد (ومن قبله جون ويكلين) من بريطانيا الى امريكة، منشقة عن الكنيسة الاوربية . وهناك هيأت جواً يصعب ان يزدهر فيه انسان فاقت ذكورته أنوثته ، وكان معظم من عاش في هذا الجو من الطبقة المتوسطة التي حوت ويلسون . الباب الوحيد للازدهار كان الاقتصاد والمال ، وهو الباب المفتوح للمتكيفين تكيفاً حسناً مع الرجال والنساء ، والذين زادت أنوثتهم على ذكورتهم .

ان صبياً اكثر ذكورة من تومي ويلسون يحس بعداء تجاه الاكثرية من اسرته التي عاش فيها والده القسيس . لكنه لم يحس بأي حافز للثورة . كانت ذكورته خافتة . وكان « مثال » أناه غير معاد لمثال أسرته . لم تنشأ مشكلة حياته من صراعه مع البيئة ، ولكن من صراعات في طبيعته وكان عليه أن يواجه هذه الصراعات لو أنه نما في بيئة اوروبية متحررة نسبياً . كان يمكن لشاشة العقلنات المستمرة التي سمحت له بأن يعيش عمره بغير ما مجابهة لسلبيته نحو أبيه ، أن تسقط باكراً على الأرض الاوربية . لقد كان محظوظاً لولادته في امة محمية من الحقيقة خلال القرن التاسع عشر بالتعاليم الموروثة من ريكليف ، وكالفن ، ووزلي .

الحب ، المسيح ، النكسة

كان اول احتكاك لتومي ويلسون بالحياة ، خارج اسرته ، في الثالثة عشرة ، عندما ذهب الى المدرسة . وكان سيئاً في أعماله المدرسية . ويجدر بنا أن نذكر تفسير معلمه لذلك: «لم يكن ذلك لأنه يميل الى الغباء ، بل لأنه لم يكن مهتماً » . ويبدو لنا هنا عقل ويلسون ذو الاتجاه الواحد . وتلقي حادثة جرت في العام نفسه ضوءاً على هذه الظاهرة . اننا لانجد فقدان الاهتمام عندما نعود الى فسحة القش بين القرميد والسقف من بيت أبيه حتى تومي يشرّع قوانين الخطب لعصابة « الاقدام الرشيقة » .

لو أن ويلسون – كما قال فيما بعد – «عقدالاجتماعات للاقدام الرشيقة بلطف العمليات البرلمانية » ، لتأكدنا من أنها عقدت بفضل ابن القسيس وكان قادراً على ذلك لحبه للخطب فلم يهتم طيلة حياته الا بالموضوعات التي تصلح للخطب . ومثلما كان عاجزاً في صباه عن اخراج شحنة ليبيدو عن طريق الدروس مجتمعة ، كان عاجزاً رجلاً ورئيساً عن ان

بتفحص الموضوعات الهامة مجتمعة . كان عليه أن يتفحصها واحداً واحداً ، مع انها تطلبت كلها اهتماماً آنياً . وهكذا نما عقله ذو الاتجاه الواحد .

لم يكن يهتم بالرياضيات ، ولا العلم ، ولا الفن ولا الموسيقى ، باستثناء الغناء الذي كان أحد صيغ الخطابة . وكانت طريقته في التفكير أن يتصور نفسه يلقي خطاباً. وكان نشاطه الأدبي نوعاً من كتابة الخطب ، وكانت عيوب هذا النشاط عيوب الخطابة عندما تعتبر عملا أدبياً . ويبدو أنه فكر بالمشاكل السياسية والاقتصادية فقط عندما كان يتأهب لإلقاء خطاب عنها او كتابة مقال . كانت ذاكرته مثـل القناة . وكان استعمال الحبال الصوتية جزءاً لايتجزأ من تفكيره .

ادركت المراهقة ويلسون ، بتبدلاتها المتعددة ، مع تغير في البيئة . عندما كان في الرابعة عشرة تخلى أبوه عن رعويته في أوغستا وصار استـاذاً للدورات اللاهوتية في كولومبيا بكارولاينا الجنوبية . ولحقت الاسرة بالاب ، إلى كارولاينـا . عندما ادركت المراهقة تومي ، كان خارج بيئته السابقة . لقد وجد نفسه في العاصمة المحرقة لكارولاينا . حيث لعبت الصراعات السياسية العنيفة لعبة دراماتيكية . ولم يعد والده قسيساً بل استاذاً .

وجاء شاب تقي اسمه فرانسيس ج . بروك الى كولومبيـا موفداً من الكنيسة المشيخية . وكان يكبر تومي ويلسون بسنوات قليلة . وبدأ يعقد اجتماعات دينيـة في غرفته في المزود الذي كان كنيسة الدورات اللاهوتية . وقد حضر تومي الاجتماعات وبدأ يحب بروك بعمق . وتحت تأثير بروك عانى تحولا دينياً . لقد قدم كتابات « تكشف عن وجود الرحمة الإلهية » في قلبه . وهكذا قبل عضواً في الكنيسة المشيخية الأولى بكولومبيا . ومذ ذاك أحس أنه على صلة مباشرة مع الله . أحس أن الله قد اختاره لعمل عظيم ، وسوف يستخدمه ويحفظه حتى ينهي مهمته . وسرعان مابدأ يتحسن في دراسته . علق لوحة لغلادستون على الجدار خلف مقعده ، وعندما سألته ابنة خاله — التي اطلق عليها سهماً وهي على الشجرة — عمن كانت تمثل هذه اللوحة ، أجاب : « ذلك هو غلادستون ، أعظم سياسي في العالم . أنا أنوي أن أكون سياسياً أيضاً » .

يزودنا تسلسل الأحداث بالصلة التي قامت بين طفولة توماس دودرو ويلسون ورجولته . وان إيجاد هذه الصلة ليس في الواقع كشفاً عظيماً . كان ويلسون مراهقاً ، والمراهقة تصل الطفولة بالرجولة . ولا بد من مـلاحظة أن التغيرات العضوية العميقة تصاحب حتماً تغيرات نفسية ليست أقل عمقاً . كل انسان يعرف هـذا من تجربته الخاصة . وبظهور المراهقة تزداد حدة حاجة الليبيدو لإيجاد مخارج ، ليس فقط حاجة

الليبيدو وانما الضغوط البدنية أيضاً، تتطلب تعبيراً مباشراً . ولكن الافرازات الداخلية تنتج أيضاً نمواً في الذكورة عند الصبي . وتزداد بالتالي كمية الليبيدو الموجه نحو الأم والأب . وتتعمق رغبته في امتلاك امه عن طريق امتلاك شبيهة بها . كما ينتعش عداؤه نحو ابيه . وينجم عن تعميق الرغبات النشيطة ما يسمى بجنوح الاحداث . ولحسن الحظ تكون النتائج فكهة اكثر منها مأساوية . ان نشاط الفتى المتزايد نحو امه يجعله يقع وقوعاً يائساً في حب امرأة ناضجة أو فتاة . وان نشاطه المتزايد نحو أبيـه يدفعه الى عصيانه والتهرب من سلطته ، وايجاد مثيل لأبيه موضوعاً للحب .

لقد انتجت المراهقة تغيرات حاسمة في شخصية توماس وودرو ويلسون . لكن هذه التغيرات تفردت باتجاهها نحو أبيه وليس نحو أمه . وليس ثمة أي إثبات على انه وقع في حب فتاة أو امرأة ناضجة . لقد كان له أمه وأخواته ، وقريباته ، وقد استمر في إرضاء ذلك الشطر الصغير من الليبيدو عنده الموجه نحو النساء . لقد احتاج — دائماً — الى بدائل لأمه خلال حياته . ولكن كان واضحاً نجاته من الضغوط البدنية الواجب إرضاؤها . وبقيت علاقاته بالنساء مهذبة وبلهاء .

ومن ناحية أخرى فقد أربكت ذكورته المتزايدة علاقته بأبيه . بل ان المراهقة قد زادت ذكورته زيادة استثنائية . وويلسون يقدم مثالاً عن اهميـة الزمن في دراسة الظواهر النفسية .

ثمة كثير من الأدلة تشير الى انتساب ويلسون للمسيح وقد أصبح مشحوناً بشحنة عظيمة من الليبيدو خلال تحوله الديني . ان بحث ظواهر التحول الديني يبعد بنـا عن موضوعنا . لنذكر فقط ان « الولادة الجديدة في التقوى » التي تدل على تحول ديني قد تحدث للمتحول الذي يتقمص عضواً من أعضاء اسرة مقدسة . انه يشعر بالبعث لأنه في لاشعوره قد اصبح رباً .

وقد بدأ ويلسون يعتقد — أثناء تحوله — بصلة مباشرة له مع الله ، بدأ يشعر أن الله قد اختاره لعمل عظيم وسوف يحفظه حتى ينتهي عمله . لقد وقف فيما بعد رئيساً للولايات المتحدة ، أمام باب المزود الذي احتواه مـع بروك وقال : « أشعر أن علي أن أخلع حذائي . هذه أرض مقدسة » .

هذه الملاحظة مقرونة مع الاعتقادات والتصرفات التي رافقت طفولة ويلسون ، تجعل من المستحيل تحاشي القول بأنه قد تقمص المسيح في تلك الفترة . وبدأ تقمصه يصرف

شحنة كبيرة من الليبيدو عنده ، أحس في لاشعوره أن المزود كان أرضاً مقدسة لأنه كان مشهد بعثه مسيحاً . وكان الموضع مؤهلاً لأن يوحي بذلك . لقد ولد المسيح في مزود أيضاً . وصار تقمصه المسيح – الذي حدث في طفولته – جاهزاً للاستعمال . وقام بروك بالباقي . وقد استخدم ويلسون هذا الانتساب خلال بقية حياته . وكلما كبر وجد الليبيدو عنده مسكناً ومخرجاً في هذه الفكرة . وفي نهاية حياته صار الايمان المطلق بأنه ابن الله ضرورياً جداً . هذه الحقائق التي كان على شعوره ان يكبتها او يشتتها قد كبتت او تشتتت بالفعل . لقد أخذاها مضحياً بأي شيء في سبيل ذلك ، حتى عند إضطراره لاعلان معاهدة فرساي حماة ضد الحرب بنسبة ٩٩ ٪ ، واضطراره لجعل أصدقائه خونة .

يمكننا أن نشير هنا – بين معترضتين – إلى أن الخطوة بين تقمص المسيح وبين الدفاع الهاوسي ضد السلبية قد صارت سهلة بوجود جسر مريح . لقد كان للمسيح خائن ، وكان الخائن حوارياً ، صديقاً . وفي السنوات الأخيرة عبر ويلسون هذا الجسر بعد أن تقمص المسيح تقمصاً لاشعورياً . وفي الجانب الثاني من الواقع ، وجد ويلسون بين أصدقائه كثيرين من أمثال يهوذا .

لم ينجم عن حب ويلسون لبروك وتقمصه المسيح سعادة عظيمة له وحسب وإنما تغيرات في شخصيته أيضاً . لقد بدأ يتحسن في دراسته . وأعلن عن رغبته في ان يكون رجل دولة وليس قسيساً . هذا الاعلان يبدو للوهلة الأولى جد عبر ، على انه كان تعبيراً عن رغبة شخصيته . عندما ذهب الى كلية ديفيدسن بعد ستة أشهر ، تمنى والداه أن يصير قسيساً . وبدا متردداً لوهلة ، بين رغبة أبيه وبين أن يصبح غلادستون . ولم يتخذ قراره الأخير إلا بعد ثلاث سنوات ونصف عندما كان في برنسيتون . ولقد أثر هذا القرار لا على مجرى حياته فقط وإنما على مجرى حياة البشرية . وإن لهذا الأمر من الأهمية ما يجعلنا نحاول تحليله بالتفصيل .

في خريف ١٨٧٣ ، قبل ثلاثة اشهر من يوم ميلاده السابع عشر ، ترك ويلسون اباه وامه وذهب الى بروك في كلية ديفيدسن . وإعادته الصحة السيئة الى اهله في ربيع ١٨٧٤ وبقي يمرّض هناك طوال خمسة عشر شهراً تعيساً .

كانت هذه النكسة في ديفيدسن اول واحدة من انهيارات مماثلة . العصبية ، عسر الهضم ، الصداع ، طبعت حياته منذ الطفولة حتى الموت . كانت نكساته فترات عصبية أعظم ، عسر هضم أشق ، وصداع مستمر ، وهي فترات اطول من فترات الصحة ، مثلا ،

الفترة مابين تشرين الاول ١٨٨٧ وحزيران ١٨٨٨ ، فترة عصبية على التقنين . اربع عشرة مرة على الاقل عطلته عن العمل نوبات العصبية وسوء الهضم والصداع ، وإصابته بنوع من التعاسة .

ان بحث هــذه النكسات ليس سهلا . وربمــا كانت إصابات عضوية سببها الضعف الجسدي الذي لاأثر للعوامل النفسية فيه إلا قليلا . وفي القسم الاخير من حياة ويلسون صاحبت هذه النكسات أمراض حادة عضوية . لعلها في البداية كانت ذات أصل عضوي . ونحن نأسف بعمق لفقدان المواد التي يمكن ان توصلنا الى جواب حاسم .

نحن نعلم على اية حال انه كان ضعيف البنية . وقد برزت أعراض عقدة الانهيار العصبي عنده عدة مرات كردة فعل على المواقف الحرجة . انه لشيء مثير ان ثلاث سنوات من عشر — بين ١٨٧٤ و ١٨٨٤ — كانت فترة تمريض قضاها في منزل ابويه . ويمكننا ان نقول بايجاز ، ان عصبيته وشدته نتيجتان للصراع القائم بين انوثته وأناه العليا المضخمة التي طالبته بذكورة كلية . وان سئلنا عن سبب الزيادة في أعراض النكسة بين الحين والحين يمكننا ان نجيب ؛ تعميا ، ان هذه الاعراض قد زادت عنفاً عندمــا نجمت عن حوادث حياته حدة ً في الصراع الاساسي .

الخطيب ورجل الدولة

في ايلول ١٨٧٥ ذهب ويلسون الى برينستون مصمماً تصميما يائساً على التغلب على ضعفه . فبعد خمسة عشر شهراً من المرض قرر ان يجعل من نفسه القائد الذي طالبته به أناه العليا . ولقد نجح في ذلك الى درجة استثنائية . وتقدم شخصيته منذ عام ١٧٧٦ في برينستون حتى اليوم الذي استقبلته فيه باريس مخلصاً للجنس البشري ، مثالا مدهشاً على طاقة أناه ــ العليا القوية التي دفعت الى النجاح رجلا ضعيفاً في جسمه عصابياً في تكوينه . وخلال عامه الثاني في برينستون بدأ يدرس المواد الاكاديمية التي قادته الى رئاسة الولايات المتحدة وقيادة العالم . وكان عامه الاول قد مضى وهو يحاول علاج نقائص استعداده العقلي للدراسة الجامعية وفي تطبيب معدته . وفي خريف ١٨٧٦ قرأ مقالا في مجلة انكليزية عن « الخطيب » ، أطرت فيهــا صفات (غلادستون) و (برايت) التي أحس توماس وودرو ويلسون بامتلاكها . وكتب الى والده يخبره بتصميمه النهائي الذي لايتزعزع على ان يغدو رجل دولة وليس قسيساً . لعل القارىء قد لاحظ ان الشخص نفسه الذي ظهر لدى تصميم ويلسون الاول على ان يغدو رجل دولة قد ظهر الآن لدى قراره النهائي ، وهو غلادستون .

ان لنا الحق في الاعتقاد بأن رئيس وزراء الملكة فكتوريا يقدم لنا حلاللغز رفتى ويلسون ان يكون قسيساً كما أراده أبوه .

لنتفحص اولا حالة تومي ويلسون العقلية عندما علق صورة غلادستون على الجدار فوق مقعده ، وأعلن عن عزمه على ان يصير سياسياً . كان عندئذ مراهقاً . وقد زادت ذكورته . ولقد طالبه نشاطه العدواني المستيقظ ضد أبيه بمخرج ، وكان سلبيته نحوابيه على نفس قوتها بحيث ان العدوانية المستعادة عجزت عن ايجاد مخرج عبر العداء المباشر . لعل القارىء يتذكر ان كل صبي يمرب في طفولته من مواجهة مأزق عقدة أوديب بالانتقال من رغبته في قتل أبيه بطريقة أكلة لحوم البشر الى ان يتمص والده في ذاته بالتقمص ويؤسس أباً مثالياً (أنا عليا له) .

يبدو واضحاً ان ويلسون قد تحول في السادسة عشرة الى الطريقة نفسها في التعبير عن نشاطه العدواني ضد ابيه . لقد حاول ان يتقمص الأب الذي لامثيل له . ولكن الاب الذي لامثيل له لم يعد موجوداً في حياته . ان كل فتى مراهق ينظر الى ابيه بعين مسحت منها الاوهام ، بسبب من عدوانيته المستيقظة . ومها جهد في الابقاء على عبادته له ، فانه مرغم على التأكد من أن أباه لم يعد الاكثر اناقة ، الاكثر حكمة ، الاقوى والاطهر بين البشر . ثمة بعض العيوب . الرجل العجوز يغدو نكتة تافهة ، ومدعاة للشفقة . وقد يكبت الفتى هذه المعرفة . وهذا ما فعله ويلسون . لقد استمر يتحدث عن ابيه كما لو هو شبيه بالله . واستمر يقتبس كلماته ويعجب به . ومع ذلك فقد عرف في قرارة عقله — كما يعرف كل مراهق — أن اباه لم يكن كاملا في الواقع . وقد احتاج بعمق ان يعيد اكتشاف هذا الاب الذي (لامثيل له) ، وبالتالي ان يجد تعبيراً عن عدائه لأبيه بتقمصه تقمصاً وحشياً . ولقد اكتشف الاب الذي مثيل له في شخصية غلادستون .

ولم يكن لدى المحترم جوزف ركز ويلسون أية نية في السماح لابنه في ان يكون شيئاً آخر سوى بقية لذاته . وارسل تومي الى كلية ديفيدسون ليتمرس بوظيفة القسيس . وكانت سلبية الفتى نحو ابيه من القوة بحيث لم تمكنه من الثورة او الرفض . ومضى الى ديفيدسون . لكن شكل الاب الذي لامثيل له في لاشعوره كان قد اصبح غلادستون وليس قسيس الاناجيل ، ولكي يشعر انه بالذات ظل الاب الذي لامثيل له في طفولته ، كان على تومي ويلسون ان يغدو رجل دولة .

في الحادية والعشرين كان تومي ويلسون شخصية كاملة التشكل ، لقد تأسست في شخصيته جميع المخارج التي يحتاجها الليبيدو . ولم تحدث في حياته اية تغييرات أخرى سوى اثنتين : تعمق شعوره بحلوله في الله ، وهزيمته امام العميد ويست . وهكذا فسوف نبدل في اتجاه دراستنا الذي انطلقنا منه .

ان مشكلة العثور على السعادة في الحياة ، التي تشغل بال كل انسان ، هي الى حد كبير مشكلة في الاقتصاد النفسي . ان الكمية التي يمتلكها الفرد من الليبيدو تختزن نفسها في تجمعات مختلفة ، وتبحث عن تفريغ عبر مخارج متعددة الصيغ . فاذا ماوافقت الأنا ـ العليا على هذه المخارج ، وفُرّغت هذه الشحنة باعتدال ، يكون الفرد سعيداً . وعلى العكس ، اذا لم توافق الأنا ـ العليا على المخارج ، او اذا مافُرّغت الشحنة بأقل او اكثر مما ينبغي ، يغدو الفرد تعيساً . ان علم النفس الحديث لايضيف شيئاً الى الصيغة الكلاسيكية عن السعادة « الاعتدال في كل شيء » ، سوى ان الاعتدال مطلوب من الأنا ـ العليا كما هو مطلوب من غيرها .

ومع ذلك ، فحتى الانسان المؤهل لأن يعيش في نطاق هذه القاعدة القديمة لايستطيع أن يجد السعادة بسهولة او أن يمتلكها وقتاً طويلاً . ان ايجاد مخارج لما هو اساسي — وغالباً مصطرع — من الرغبات امر بالغ الصعوبة . وحتى لو وجدت هذه المخارج فان ظروف الحياة المتغيرة لا تسمح بابقائها على حالتها . ان الموت والمرض وفقدان الحب او المركز ظواهر لاتنفصل عن الحياة البشرية . وجميعها يتضمن فقداناً لمخارج الليبيدو . وهكذا فان اكثر الناس حكمة واعظمهم تواضعاً لايستطيعون الاعتماد على بقاء سعادتهم دائمة . أما الناس الذين هم اقل حكمة — الذين كان بينهم توماس وودرو ويلسون — فهم عاجزون عن الحصول على اكثر من ومضات آنية من السعادة . ان الأنا ـ العليا لويلسون ، التي طالبته دون تواضع بالمستحيل ، كانت وحدها كافية لأن ترهق حياته بالسخط الدائم .

لقد كانت دراسة الشاب ويلسون في برينستون سيئة كالعادة في جميع المواد التي لم تتعلق بالحديث او الكتابة . لقد درس برك وبرايت وبيغهوت ، وتمرن على الاشارات امام المرآة ، والقى خطباً للاشجار في الغابات ، كما ارسل بطاقات معايدة باسم « توماس وودرو ويلسون ، شيخ من فرجينيا » . وكذلك نظم نادياً للمناقشة سقطت فيه حكومات وقامت اخرى في مجلس العموم ، وكتب مقالة يعلن فيها عن تأسيس شكل انكليزي للحكومة في الولايات المتحدة .

وفي عيد الميلاد عام ١٨٧٩ ، وكان ويلسون في الثالثة والعشرين ، احب امرأة للمرة الاولى في حياته . لقد رأينا أنه نقل في طفولته بعضاً من الليبيدو الموجه نحو أمه الى اخته وقريباته . ولقد احب واحـــدة من قريباته : هاتي وودرو لقد كانت إبنة خاله ، توماس وودرو . وكانت نموذجـــاً اميناً لأمه . كانت مثلها مواطنة من تشيليكوث ، بأوهايو . وكان أبوها كأبي امه يدعى توماس وودرو ، وبـــدأ ويلسون يكتب رسائل مشوقة لها . لكن ذكورته المتزايدة لم تتقدم به نحو جسد المرأة .

إن الشطر الأكبر من الليبيدو عنده كان مايزال موجهاً نحو أبيه . كان أمله الكبير أن يصبح غلادستون . عندما تخرج من برينستون في حزيران ١٨٧٩ ذهب الى جامعة فرجينيا ليدرس القانون ، لا لأنه اراد ان يكون محامياً وإنما لاعتباره القانون طريقاً مضموناً للسياسة .

لكن القانون اضجره في جامعة فرجينيا . لم يسحره غير النقاش ، كما هو متوقع. وكالعادة بدأ يحاول تنظيم نادٍ للمناقشة كان هو أحد اعضائه . وقد اعطاه تكوين هـــذا النادي إرضاءً عميقاً خلال حياته كلها . لقـــد وضع وهو صبي في الثانية عشرة قوانين الحديث المنظم « للأقـــدام الرشيقة » . وأعاد تشكيل مثل هذه المؤسسات في ديفيدسون بجامعة برينستون . وأعلن عن عزمه على القيام بنفس العمل في جامعة فرجينيا . وفعل ذلك في كلية جونز هوبكنز ، وفي ويزليان . لقد تفحص دستور ولاية نيو جرزي بقصد اعادة صياغته . وأعد دستور العصبة الأمم . الخطوا ضحيين (الأقدام الرشيقة)و(عصبة الأمم) لقد كان ويلسون في تنظيمه للأقدام الرشيقة يطيع إياه ويقلده واجداً في ذلك مخرجاً لسلبيته نحو ابيه بالتقمص . ووجد الرضا كذلك في تهيئته لدستور عصبة الأمم . لقد بولغ في دور ويلسون في تأسيس عصبة الأمم ، على انه بالتأكيد كان والد هـــذه العصبة ، وكانت العصبة حفيدة المحترم جوزف ركلز ويلسون الاستاذ فوق العادة للفصاحة الذي اضجر سامعيه بقواعد الحديث وانتقاد الكلمات .

في جامعة فرجينيا انتخب ويلسون رئيساً لجمعية جفرسون ، بالرغم من كراهيته لجفرسون . هذه الكراهية ، وعداء مماثل لدزرائيلي ، يبدوان غريبين بالنسبة لشاب يطمح الى ان يكون رجل دولة . لقد كان جفرسون واحداً من ابرز رجال الدولة في امريكا ، ولم يكن دزرائيلي الأقل اهمية بين الساسة البريطانيين . لكن تفسير هـــذا الكره ليس عصياً . لقد كان يرى في نفسه رجل دولة مسيحية : غلادستون . ولم يكن جفرسون ولا دزرائيلي رجلي دولة مسيحيين . كان جفرسون موحداً . وكان دزرائيلي يهودياً . لقد

كان دزرائيلي في الواقع المعارض الشخصي لسيده غلادستون . وقد اعتبر ويلسون ان جفرسون ودزرائيلي هما الشيطانان المضادان للأب الذي تقمصه. وفيما بعد اصبح ويلسون رجـــل دولة وربأ في نظر نفسه — وذلك في اللاشعور . وكان دائماً ميالاً الى ان يُلبس معارضيه ثوب إبليس .

في كانون الاول من عام ۱۸۸۰ ، وكان في الرابع والعشرين من عمره ، بلغ سوء الهضم والصداع عنده مرحلة من القسوة اضطرته الى ترك جامعة فرجينيا بدون درجة علمية . وعاد الى بيت ابيه ليستجم هناك . وليس لدينا اي دليل على أنه فقـــد عفته الجنسية . وكان ما يزال يكتب الرسائل لابنة خاله هاتي . وكان تعيساً . بعـــد ستة اشهر زار أسرة هاتي وودرو في تشيليكوث بأوهايو، حيث تزوج أبوه من أمه قبل اثنتين وثلاثين سنة . وطلب منها ان تتزوجه . لكن هاتي رفضته . وعاد الى أبيه وقد بدأ يدعو نفسه وودرو ويلسون ، مسقطاً توماس .

لقد أعطى ويلسون في سنواته الأخيرة عدة تفسيرات لهذا الإسقاط . لكنهـــا لم تكن مقنعة ، وعنـــدما يعطي إنسان ما عدة تفسيرات غير مقنعة عن عمل قام به ، فاننا نعتقـــد ان السبب الحقيقي يكمن في لاشعوره . ان السبب اللاشعوري لعمل ويلسون واضح . ولعل القارئ يذكر ان الأنا تعوض عن موضوع حب مفقود بتقمص ذلك الموضوع المفقود . فالولد الصغير الذي يفقد قطيطة يبحث عنها وهو يموء . والولد الصغير الذي يضطر الى نبذ امه موضوع حبه في فترة انحلال عقدة اوديب يتقمص امـــه . لقد اتبع ويلسون هذه الآلية المألوفة ، مضى الى تشيكيلوث ليربح ابنة خال تسمى وودرو. كان هو بلا جدال في لاشعوره أبوه ذاهباً يتزوج امه ، ولقد نُبذ .وكان تعيساً . لقد فقد مثيلة لأمه ، وكان اسمها وودرو . وكالطفـــل الذي يموء ، بـــدل بمثيلة الأم المفقودة نفسه . لقد اسقط توماس اسم أبي الفتاة التي رفضته وغدا وودرو .

بعد ثمانية عشر شهراً امضاها في البيت ، سافر الى اتلانتا ليبدأ اعماله القانونية . التي أحس ، بثقة ، انها ستقوده الى استقطاب عالم السياسة . لكنه لم يجـــد هناك زبوناً واحداً . وبدأ ييأس . وبدا طريق السياسة مغلقاً امامه . وفي ربيع عام ۱۸۸۳ جلس وراء مكتبه هناك رجلا مطلق التعاسة . وكان في السادسة والعشرين .

عند هذه اللحظة الخطيرة من تطوره أصابته ضربة الحظ التي بدونها يستحيل على أي انسان أن يحرز امتيازاً . لقد ذهب يزور ابنة خاله الحبيبة التي اطلق عليها سهماً وهي في الشجرة . كانت ابنة الخال متزوجة، ولكن إلين آكسون هي التي استقبلته ،واصبحت

بالنسبة له مثيلة امه التي احتاجها في حيــاته . ولاعجب في أن يقع في حبها رأساً . لقد كان لها نفس قالب امه واختيه وقريباته . فهي ، مثل امه واختيه ، كانت ابنة قسيس من الكنيسة المشيخية . ومثل امه ايضاً ، لم تكن فقط ابنة قسيس وانمـا سيدة الأبرشية . كانت امها قد ماتت ، وصارت هي تقوم بدور الأم لأطفال القسيس الثلاثة . ولقد ماثل مركزها في الحياة مركز امه بالضبط ، عندما طلب أبوه يدها . وفي طلبه اليها أن تتزوجه كان ويلسون يتقمص أباه . وثمة آلاف الأدلة على أن الين آكسون لم تكن مجرد مثيلة لأمه ، وانما كانت تمثلها تمثيلاً كاملاً .

ان زواج امرىء من مثيلة امه معناه استضافة الحظ في بيته . ان علاقة كهذه تتناول على نحو كامل فيض الليبيدو الموجه نحو النساء ، فاما ان تكون مصدراً لأعظم السعادة والقوة عند الرجل او مصدراً لأعظم التعاسة والضعف . لو أن الين آكسون لم تحب ويلسون – أو انها أحبته ثم كفت عن ذلك فيما بعــد – لتلقى لطمة ممزقة لن يستطيع الشفاء منها ،اذا تذكرنا بنيانه العصابي. لكن العكس حدث . فهي لم تكتف بأن تحبه بعمق فحسب بل ظلت تحبه طوال حياتها : منذ اليوم الذي وعدته فيــه خلال خريف ١٨٨٣ حتى يوم الصيف الذي توفيت فيه عام ١٩١٤ ، وطوال هــذه المدة كان لويلسون مصدر دائم من القوة أعظم مما يوجــد في حيــاة أي انسان : الحب غير المجزأ لمثيلة امه . ومن جانب آخر استمرت علاقاته بالرجال في اهتزازها طوال حياته ، مفرخة صراعات أنهكته . على أنه كان يستطيع دائماً ان يعود الى ذراعي مثيلة امه الحانيتين . لقد كانت علاقاته بالنساء مستقرة . وتقول زوجته : « أنا الوحيدة التي بوسعها اراحته . » وكان ذلك صحيحاً . وقد دعاها هو «مركز الهدوء» بالنسبة لحياته .

ولولا هذا المركز لانحنى ويلسون امام الصراعات في طبيعته . وصارت سيرة حياته نتاجاً لحب الين آكسون الذي أرضى أناه ـ العليا . لقد كانت بالنسبة له زوجة نفيسة .

وهذا هو مقطع من رسالته لها ، المؤرخة في ٢٤ شباط من عام ١٨٨٥ :

« أجل .. ثمــة احساس بالخيبة والفقدان في ذهني ، وقد وجد دائماً .. لكأنني افتقدت في حياتي شيئاً طالبتني به دائماً مواهبي وميولي . اني لأشعر بندم كبير لانغلاقي عن طموحي الأول القلبي الذي تلخص في أن أقوم بدور نشيط وربما قيادي في الحياة العامة ، وهو دور رجل الدولة . وهذا هو سر عقلي الأعمق (الرئيسي) . » إن استعمال ويلسون لكلمة رئيسي هو الحلقة الأولى من هذا التداعي : رئيسي ، رئيس وزراء ، غلادستون .

ولقد كتب كطالب في كلية جونز هوبكنز كراساً بعنوان « حكومة نيابية » . ويعطي هذا الكراس الانطباع بأنه عرف المجلس النيابي (الكونغرس) عبر احتكاكاته الشخصية لكنه لم يذهب مرة للتعرف على هذا المجلس الذي وصفه ، بالرغم من وجود واشنطن على بعد ساعة منه بالقطار . وقد استمر هذا الاحجام عن ملاقاة الرجال والوقائع طيلة حياته .

عندما قبل الناشر مخطوطة « حكومة نيابية » كان هو في نشوة حادة . وبعد اسبوع وصف نفسه بأنه « منهك من مسودات الطباعة » . وخلال حياته كلها كان هكذا مغلوباً أمام شعور بعدم كفاية عمله . ذلك لأن أناه ـ العليا لم تكن لترضى . وعندما نشر الكتاب لم يهده خطيبته ، بل لأبيه ؛ وسأل أباه بالمناسبة عما اذا كان يحسن به العودة الى جونز هوبكنز لأجل عام دراسي آخر يؤهله للحصول على الدرجة الجامعية ، داعياً هذا الأب على نحو غير مباشر ليقرر له زواجه أو تأجيل زواجه من الين آكسون ، وكان حينذاك في الثامنة والعشرين ، يكتب رسائل وصفها بأنها مفعمة بالعواطف ، ويحس بأنه يحمل في ذاته بركاناً . ان اخضاع خطيبته لأبيه يدلنا على مقدار ضعف سيلان الليبيدو عنده نحو النساء .

في حزيران ١٨٨٥ تزوج وودرو ويلسون إلين أكسون، وحتى آب عام ١٩١٤، لم يكن عنده أدنى ميل نحو امرأة أخرى . من المؤكد انه ارسل مئات الرسائل الى السيدة هلبرت وغيرها ، باحثاً عن تعاطف . لكن هذه الرسائل محاولات لاعادة علاقاته مع أختيه اكثر منها مع أمه . لقد كان صدر إلين آكسون ، وليس أي صدر آخر ، مضطجع راحته .

أخذ ويلسون عروسه الى كلية برين مور للبنات في بنسلفانيا ، وباشر عمله هناك كمدرس للتاريخ . وفجأة أصبح تعيساً . فعلى الرغم من حبه الفتي ، الذي يجعل غيره في قمة السعادة ، وجد نفسه في هوة من البؤس . كان شقاؤه العصبي هناك من الحدة والشدة حتى ليصعب إرجاعه الى أناه ـ العليا .

كانت شكواه الرئيسية نفوره من تعليم البنات . لقد أراد ان يعلم الصبيان . وهنا نجد انفسنا مرة اخرى ، نتأمل في علاقة تومي ويلسون بأبيه . اذ لم تكن سلبيته ولانشاطه نحو أبيه يجدان مخرجاً مرضياً . وبتعليم الصبيان يحصل على مخرج لكلا الجانبين ، في محاضرته الصبيان يستطيع أن يتقمصهم . وهكذا يقوم تجاه نفسه بدور مزدوج : الابن والأب ، ويعيد تأسيس علاقته الطفولية التي أسعدته كثيراً . وإذا لم

يكن التلميذ الذي حاضر له ذكراً ، فان هذا التقمص يستحيل ويغـدو أسوأ من المستحيل : لقد أصبح والده وهو يحاضر لبنت صغيرة مثلت تومي ويلسون ذاته . وأحس بنفسه امرأة ، ولم يكن ذلك ليطاق ابداً . وقبل مضي ستة أشهر كان يبحث عن ممر الهروب .

وأصبح أمله متوجهاً نحو التعليم في برنستون . ومضى الى نيويورك ليتحدث في مأدبة لخريجي برنستون ويحدث انطباعاً عميقاً في نفوس الحضور يؤهله الحصول على مركز تدريسي . وضحك منه الجمهور ، هزأ به ، وانصرف من القاعة . وكان جرح نرجسيته عميقاً ، حتى انه كره نيويورك وكل مايتعلق بها .

وعاد الى انتسابه العزيز لغلادستون . ذهب الى واشنطون للحصول على وظيفة في « دائرة الولاية » . وأخفق .

كانت زوجه حاملاً . وأراد صبياً ، كما أراد ان يعلم صبياناً ، ليتدفق جدول الليبيدو عنده نحو أبيه . لكن زوجته ولدت بنتاً . وسُدّ مرة اخرى الجدول الجاري نحو أبيه ، فازداد عصبية . وحملت زوجته مرة ثانية . ومرة ثانية كان الوليد بنتاً . وازدادت عصبيته . وكتب الى صديقه روبرت بردج : «أشعر انه صحتي ستنهار اذا امضيت هنا عاماً آخر» . وحاول مرة أخرى فتح الطريق امام الجدول بسعيه لأن يعمل كسكرتير مساعد للولاية . وأخفق بذلك اقترابه من نكبة . ووصف نفسه بأنه « جائع الى (زمرة) من الرجال » . ودعا شتاء ١٨٨٧ – ١٨٨٨ « شتاء مريعاً » .

ان تأمل هذه التعاسة العصبية في حيـاة شاب متزوج وله بيت رائع ومركز مرموق في برن مور قد يغري بالقول ان علاقته مع زوجته لم تكن مرضية . ولاشك ان هذا خطأ . لقــد قامت إلين آكسون قياماً ممتازاً بالعناية بذلك الشطر من الليبيدو عنده الموجه نحو المرأة ، وقد وجد سعادة في ابنتيه . لكن الجدول الرئيسي لليبيدو منع مرة ومرة من المسيل في مخارج حاول جاهداً ان يفتحها . وكانت علاقاته مع الرجال أهم لديه بكثير من علاقاته مع النساء ، فلم تعوض له السعادة المنزلية عن تعاسته .

ويلقي رد فعله على موت أمه بعد « الشتاء المريع » ضوءاً على طبيعته :

« كانت أمي اماً بأكمل وأعذب ما لكلمة من معنى . وقد تركني فقدانها الشعور بحزن ضاغط بأني فقدت شبابي . اشعر بالهرم وبالرزوح تحت المسؤولية . لكن ماهو أسوأ من

حرماني ، حرمان والدي ، وقد تزوجت ابنتاه وذهب ابنه الثاني الى الجامعة فبقي بلا بيت . ان بيتنا الصغير السعيد يوبخني في هذه اللحظات الشجية ... »

ودعا والده الى السكنى معه .

ليست هذه الرسالة صرخة ناجمة عن فقدان موضوع للحب . ان كلماتها عن أمه مهذبة وتقليدية . لقد أخذت إلين آكسون مكانها ، وانتهى الأمر . لكن سلبيته تجاه أبيه رجّت بعمق عندما فكر بحاجة هذا الأب الى زوجة. لقد رغب في لاشعوره ، دائماً ، ان يحل محل أمه . وسرعان مافعل ذلك ، في لاشعوره أيضاً . لم يكن شعوره ، يعود الى فقدان أمه ، وانما الى فقدان شبابه ، لقد أزاح موت أمه العقبة التي منعت كونه - في لاشعوره، زوجة أبيه . « أشعر بالهرم وبالرزوح تحت المسؤولية »وهو شعور بضرورة انشاء بيت لأبيه . ويمكننا القول بأنه شعر بكونه امرأة هرمة : أمه . ولا تدهشنا دعوته لأبيه ان يأتي ويقيم عنده ، لقد كان يقوم بواجب الزوجة المخلصة لزوجها ، وقد فعل ذلك حتى مات المحترم جوزف ركاز ويلسون .

في التاسع من آذار عام ١٨٩٠ ، كتب لزوجته : « لقـــد جاءني شعور مميز بالنضج أو بعملية النضج . إن الشعور الطفلي الذي رعيته دائماً يتوارى الآن أمام شعور آخر .. » وأضاف أنه قد أصبح أخيراً واثقاً من نفسه في شعوره . فكر انه قد صار رجلاً ناضجاً ، وفي لاشعوره ، امرأة ناضجة . وهكذا ، فحتى موت أمه خدم رغبته غير الملباة في أن يحبه أبوه كزوجة . ولم يصبح في لاشعوره رجلاً ناضجاً حتى توفي أبوه .

وبسبب جوعه « لزمرة من الرجال » يفقد بينهم كلاً من سلبيته ونشاطه نحو أبيه ، وثب يمسك بأول فرصة أتاحت له مغادرة برن موز الى وزليان . وهناك وجد زمرة من الرجال . تحسنت صحته ومعنوياته فوراً . وكانت السنوات السبع التالية اسعد سنوات حياته وأعمرها بالصحة. لم تحدث له أية نكسة ، كما غاضت أعراضه المألوفة. وسكبت محاضراته على سامعيه الذكور تعميمات حارة رائعة، على طريقة واعظ يتحدث من منبر ، كان يلعب دور أبيه . وكانت محاضراته تامة النجاح . ومع ذلك ، لم يكن الا مخرج السياسة ليرضيه . وسر عندما حصل بعد عامين في وزليان ، على مركز في برنستون كان العمل فيه يقربه من الحياة العامة .

خلال هذه الفتره السعيدة ، كان ويلسون يكتب الى أبيه رسائل حب كلما انفصل عنه ، وكان في الثانية والثلاثين عندما كتب لأبيه هذه الرسالة الفياضة :

« أبي العزيز ،

أفكاري مليئة بك وبالعزيز (دود) طوال الوقت . إن تنيسي بعيدة « جداً » بالنسبة لغني جائع لرؤية الرجلين اللذين يحب ، وباقتراب عطلة عيد الميلاد أحس كما فعلت دائماً بالألم لقضائها بعيداً عنك . وكما تعلم فان احـــد الأشياء الرئيسية في متعتي وثقتي هو شعوري بأني ابنك .

إنني أدرك أ كثر فائدة كوني ابناً لك كلما نمت مواهبي وتجربتي . أدرك أن القوة التي تنمو بي نفس الطبيعة التي لقوتك . واصبح أكثر فأكثر شعوراً بالارث الفني الذي تناولته منك ، رأس المال العقائدي والأدبي ، والقدرة على تفكير من الطراز الأول . وأشعر يوماً بالميل المتزايد لأن أكون في طفلي الاحترام والتكريس الحاني الذي كونته بي . وكم سأكون سعيداً لو نجحت في أن أجعلهم يفكرون بي كما أفكر بك ! لقد اعطيتني حباً ينمو ، يصير أقوى الآن مما كان من قبل ، وســـوف يغدو اقوى من الآن عندما اصير شيخاً ، وهو حب مغروس في العقل لا في مجرد الشعور البنوي ، حب مستقر على اسس أبدية من « الخدمة » . لقد خصك الخالق بكل ما أنا ممتن لك به . انني أشكر الله لأجل امي النبيلة القوية الطهورة ولأبي الذي لا مثيل له ...

ولدك المكرس لك

« وودرو »

أعراض

إن انشغال ويلسون الاستثنائي « بالأسلوب » الأدبي ؛ وقد طبع سنواته السعيدة الأولى في برنسيتون ، تابع من الشطرين غير المرضيين لسلبيته ونشاطه تجاه أبيه . قالت عنه جوه : « كان عظيم الانشغال بالاسلوب الأدبي ، حتى كاد ان يصبح هوساً » . وقد كان ابوه مالكاً لهذا الاسلوب الى درجة غير عادية ، وبالنسبة لويلسون ، كان احتياجه عظيماً لهـــذا الاسلوب كما يصرف الشحنة الرئيسية من حاجته الى مزيد من تقمص استاذ الفصاحة . ولأن المحترم جوزف ركاز ويلسون قام بكل مافي وسعه لتحسين اسلوبه ، فقد ارغم ايضاً ابنه على هذا العمل ، وكان ذلك مصـرفاً لسلبية الابن تجاه الاب . صار التـأنق في الاسلوب — مثل الخطب — مخرجـاً لأقوى رغبات ويلسون .

إن ابوة ملامح هذا الاسلوب واضحة . لقد كانت ملامح اســـلوب صبي عميق التأثر بعبارات أب متحذلق : الكلمات المهجورة ، الرمزية ، البلاغة ، الهرب من الحقائق

الواقعية الى التعميات ، تكديس الصفات فوق بعضها بعضاً ، أستعمال التفضيل والكلمات الغامضة الدلالة . وكان يشعر بأن أسلوبه متميز بالحذلقة ، واحس بعجزه عن تغييره . ولم يكن هذا الاتجاه مفاجئاً ، لان الكلمات ليست أداته الرئيسية في نقل افكاره بل وسيلة للتعبير عن رغباته اللاشعورية .

ان بوسع اللاشعور أن يفرض تقمصات ويدفعها الى اقاصي مضحكة. ويمكننا ان نجد اندفاع وودرو ويلسون الى ابعد مما وصل اليه ابوه في الحذلقة والفصاحة . عندما قرأ الاب كتاب الابن عن جورج واشنطون ، وقد وردت فيه اختصارات عامية للتراكيب ، قال : «وودرو ؛ يسرني ان تترك جورج ينتحر في كتابك .»

عندما تحدث وودرو ويلسون ، كان في لاشعوره أبوه وهو يتبجأ لالقاء موعظته، وقد جهد في جعل بلاغته تغني بعذوبة وتعمم بذكاء ، اسوة بتأثير بلاغة ابيه فيه. ولم يضايقه أن تعمياته هزيلة الصلة بالواقع . لقد وجدت بذاتها ، وكمخارج لتقمص أبيه . الحقائق الواقعية اعداء التعميات ، وان عداءه لهذه الوقائع يعود الى صعوبة اخراج تعميات منها . لقد تدخلت في السيلان السهل للبيبدو عنده . وهددت اعتقاده بتسليمه لأبيه الرب . الحقائق تقف في طريق تفريغه للبيبدو بوجهيه السلبي والنشيط . وليس غريباً أن يتعود نسيانها عندما يجدتذكرها مقلقاً .

ان نوعية عمله لم تتحسن . لقد كان انتاجه الكتابي الكبير لـ « تاريخ الشعب الاميركي» بالغ الاختلال ، حتى انه اضطر لاعطائه ـ وهو رئيس ـ الى مؤرخ قدير ليراجعه وينقحه . لقد تجاهل الحقيقة المزعجة عن وجود معاهدة سرية بين الحلفاء. ونسي موضع ممر (برنر) فأعطى بذلك خمسين ألفاً ومئتي الماني ـ نمسوي الى ايطاليا . وفي اواخر حياته كان قادراً على نسيان اية حقيقة تصارعت مع سيلان الليبيدو عنده في مخارج السلبية والنشاط . وكان على شطر كبير من الجنس البشري ان يعاني بذلك من حب ويلسون الطاغي للمحترم جوزف ركلز ويلسون .

في خريف عام ١٨٩٥ عادت اعراض ويلسون اليه وكان يكتب كتابه: «جورج واشنطون» واستلقى على ظهره بسبب عسر هضم عنيف وعصبية شديدة ، وعالج نفسه خلال الشتاء ، وهو يتذمر : « لقد تعبت من التحدث في المهنة . أريد ان افعل شيئاً » . وفي ربيع ١٨٩٦ انتكس تماماً . وازدادت اعراضه بظهور عرض منعه من استعمال يده اليمنى .

في دراستنا النفسية هذه لويلسون ، اعطينا اهتماما قليلا للشطر الشعوري من عقله ، وليس لنا عذر في ذلك ، إن الجزء الاكبر والاهم من العقل، كالجزء الاكبر والاهم من جبل الجليد العائم ، يستلقي تحت السطح . ويستخدم الجزء اللاشعوري من ذهن العصابي جزأه الشعوري كأداة لتلبية الرغبات . ان قناعات العصابي اعذار يخترعها العقل ليبرر رغبات الليبيدو . وان مبادىء العصابي ثياب استخدمت لتقمط وتخفي عري رغبات اللاشعور.

ان الحضارة التي ينشأ فيها الانسان تؤثر على شخصيته . تقرر – على الأقل – زي الثياب التي ينبغي على رغباته أن ترتديها لتبدو محترمة . ويتنفس الطفل أفكار أسرته التي تجعله الجنتلمان المطلوب وتقرر صيغة قناعاته . ويتغير افقه في الزمان والمكان . قد يغدو رب عصر ما شيطان عصر آخر . ان الشيطان في الديانة المسيحية يملك قرني الاله (باث) وأظلافه .

مع ان انماط الحضارة غير مستقرة ، كأزياء النساء ، فالطفل لايعرف هذا . وهو يتقبل مبادىء اسرته على انها قوانين للطبيعة لاتتغير، وصيغ فكرية للجنتلمان المطلوب . وهكذا تتقرر انماط قناعاته ، وتبقى .

لقد تشرب توماس وودرو ويلسون وهو طفل بأفكار ومثل الطبقة المتوسطة من قراء الانجيل البريطانيين الذين نشروا وجهة نظر الحياة في العهد القديم على الارض الامريكية . وعلى نحو محتوم ، ألبس ويلسون رغبات الليبيدو عنده الاثواب الأليفة للطبقة البريطانية المتوسطة .

في جميع كلماته المسجلة لاتوجد إشارة الى انه فهم الحضارة الفرنسية او الألمانية او الايطالية . ناهيك عن الحضارة الاغريقيـــة . كانت قناعاته قناعات الطبقة الوسطى في بريطانيا وحسب . وبالنسبة له كانت أفضل حديقة للروح الانسانية هي حديقة لولاردي والمذهب المشيخي . وكان عداؤه لوجهات النظر الأخرى عن الحياة عميقاً . وكان ثمة أمريكي واحد على الأقل قد فهم وأجل الحضارة الاغريقية ، ذلك هو توماس جفرسون ، الحر في حياته ، الحر في تفكيره ، المتعدد الجوانب ، والذي ألف كراس اعلان الاستقلال وأسس جامعة فرجينيا ، والذي كان معمارياً ، وفيلسوفاً ، ورئيساً للولايات المتحدة ، لقد اقصى وودرو ويلسون هــذا الانسان من مؤلفه « تقويم عظماء الامريكيين » الذي كتبه عام ١٨٩٤ ، لأن جفرسون « لم يكن امريكياً كاملاً بسبب

شريط الفلسفة الفرنسية الموجود في تفكيره » لقد أحس ان الامريكي الكامل هو ذلك الذي يؤمن بأفكار ومثل الطبقة البريطانية الوسطى فقط .

لقد انبثق هذا الاعجاب المتطرف بالطبقة البريطانية الوسطى من احترامه لأسلافه . كانوا جميعاً ينتمون الى هذه الطبقة . كانت أمه ووالدا أبيه مهاجرين من الجزر البريطانية . وبالانتساب اللاشعوري أحس أنه بريطاني من الطبقة المتوسطة . وقد جعلته نرجسيته الوفيرة ، يعجب بالزيجات التي أعادت خلق ذاته . ويمكن ان تصحح المعرفة المتزايدة بالعالم هذا الاعجاب القديم المؤسس منذ الطفولة . لكن وودرو ويلسون قطع احتكاكه المباشر بالحياة الاوربية بجهله للغات الاوربية . كان جميع ابطاله بريطانيين : برك برايت، بيغهوت ، غلادستون . وقد وجد فرنسا والمانيا وايطاليا كريهات جداً . وعندما زار القارة عام ١٩٠٣ ، هرب الى وطنه بعد أسابيع قليلة كانت تعيسة جداً . ولم يعد اليها حتى عام ١٩١٩ عندما وصل ليعيد ترتيب أوربا . وبقي عقله الواعي طوال حياته عقل قس بريطاني من الشمال مشيخي المذهب .

لقد حاول أربع مرات بعد نكساته ان يتداوى بزيارته للجزر البريطانية . وكانت تجربته في ارلنده مقصورة على ايام قليلة من الازدراء . لكنه عشق سكوتلاندة، وحركت فيه الجامعات الانكليزية نشوة . منطقة البحيرات في شمال انكلترة صارت وطنه القلبه . وقرر أن يقضي بقية عمره ، ليس في امريكا ، بل في ريدال بمنطقة البحيرات ...

وصارت صيغة حياته مركبة من نكسة ، ثم راحة حتى انحسار النكسة ، فعودة الى العمل بتعميم شرس على تأكيد ذكورته ، ولذلك اعقبت كل نكسة عدوانية متزايدة . وعاد الى العمل مصمماً على ارضاء هذه العدوانية عبر تقمصه الطويل الأمد لغلادستون.

ولقد جاءته فرصة التقدم نحو القيادة التنفيذية بسرعة : طلب اليه ان يلقي خطاباً في الذكرى الخمسين بعد المئة لتأسيس جامعة برنسيتون . واختار عنوان موضوعه « برلسيتون في خدمة الأمة » . وقال :

« ليس من شيء يعطي للخدمة العامة قوة مثل الدين . عندي رؤية للمكان الأمثل للتعليم .. كل عين فيها وضيئة في النهار الصافي وسريعة في توجهها نحو السماء لتطلب عوناً يحقق الأمل . من سوف يرينـــا الطريق الى هذا المكان ؟ » .

لقد كان لسؤاله الأخير هدف واضح ، هو أن يجاب عنه بكلمتي وودرو ويلسون . كان كثير من سامعيه مستائين من المحترم فرانسس ل . باتون رئيس الجامعة . ولم يكن من

بينهم من هو أشد استياء من ويلسون نفسه . لقد احتقر باتون . لكنه كان حريصاً على أن يبقي قدماً في معسكره ، وقدماً أخرى في معسكر العميد وست ، مخفياً عداءه للاثنين ومستهدفاً دعمها معاً ، ليكون رئيساً للجامعة .

في التاسع من حزيران عام ١٩٠٢ انتخب ويلسون رئيساً لجـامعة برنسيتون ، وكان في الخامسة والاربعين . وكان في نشوة عارمة . « اشعر كأني رئيس وزراء جديد مستعد ليخاطب وزراءه ». لقد صار غلادستون اخيراً، اخيراً استطاع سيلان الليبيدو في قناة النشاط تجاه ابيه ان يجد مخرجاً ، بتقمص غلادستون ذلك التقمص الذي بدأ قبل خمس وعشرين سنة .

وخلال سنوات رئاسته لبرنسيتون ، كان ويلسون يكرر غـالباً فكرة كونه « يشعر بأنه رئيس وزراء » : « إنني اشعر دائماً في مناسبات كهذه كأنني وزير مسؤول يدلي ببيان إمام وزرائه». وقد اعتاد ان يسمي التربية في الجامعة بـ« السياسة الصغرى». ذلك أنه عندما انتخب رئيساً صار في لا شعوره غلادستون .

ان انفتاح المخرج الذي تمناه طويلا لنشاطه العدواني نحو أبيه ، والرضى الذي حاز عليه من انتخابه رئيساً للجامعة ، اعطيا أناه العليا ونرجسيته رضى وإراحة من السخط . وكتب الى زوجته :

« أجد ان انتخابي للرئاسة قد منحني شيئاً مليئاً بالأمل. لقد اقر مستقبلي واعطاني الاحساس بالمركز وبالمهات المحددة الملموسة التي تنتزع (الخفقان) والقلق من روحي »

ان كلمة خفقان (بالانكليزية) انثوية في معانيها الاصلية والفرعية الى درجة تدفع بالانسان الى التردد في استعمالها في وصف رجل . ولكن ، بما ان ويلسون استعملها واصفاً نفسه ووضعها بين هلالين ، فيمكننا ان نقول انها وصفته بدقة . لقد قضى معظم حياته في خفقان .

(التتمة في العدد القادم)

مجموعات « المعرفة » المجلدة

يسر ادارة مجلة « المعرفة » أن تعلم قراءها واصدقاءها عن وجود كميات محدودة من مجموعات مجلة « المعرفة » منذ صدورها مجلدة – كل أربعة اعداد في مجلد واحد – وادارة المعرفة مستعدة لارسالها لطالبها بثمن ٢٠ ليرة سورية لمجموعة السنة الواحدة المؤلفة من ثلاثة مجلدات يضاف اليه اجرة البريد للخارج ، حسب رغبة صاحب الطلب .

يرجى ان يكتب الى محاسبة مجلة « المعرفة » وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي – دمشق – مع ارفاق الطلب بالثمن المذكور . والمحاسبة مستعدة لتقديم المعلومات اللازمة بشأن التحويل من الخارج والارسال بالبريد العادي أو الجوي وفق الطلب .

الآداب

الكتاب والموضوعات

نحو واقعية وجودية *

للكاتب الانكليزي كولن ويلسون

ترجمة خلدون الشمعة

– لندن

في رأيي ان ثمة اعتراضاً بسيطاً واحداً على الروايات : انها لاتؤدي الى نتيجة . تأمل في القصتين التاليتين المأخوذتين من فلسفة « الزن »[1] كما نقلها الدكتور « سوزوكي » :

(*) هذه الدراسة خص بها المؤلف المترجم لكي يتضمنها كتاب (رجل بلا ظل) الذي يتوقع صدوره بالعربية خريف هذا العام، وهي تتناول مذهب « كولن ويلسون » الروائي.

(١) **فلسفة الزن** ZEN من فلسفات الشرق الاقصى القديمة التي تؤمن بالخلاص الفردي . ازدهرت بالصين في عهد اسرة تانغ (٦١٨ — ٩٠٦) وابتدأت بالانحدار في الفترة الواقعة ما بين (١٣٦٨ — ١٦٤٤) . وهي تدخل ضمن الاطار العام للبوذية ، وتعترض على التمذهب او محاولة الشرح والتفسير . يقول معلم الزن : « كل فرد يجد الجواب على سؤاله في الداخل ». انتشرت فلسفة « الزن » في اوربا وامريكا عقب الحرب العالمية الثانية . « المترجم » .

سأل المعلم « هسو فينغ » .. « تشانغ تشينغ » حينما جاء الاخير لزيارته في غرفته قائلاً :

– ماهذا ؟...

فقال تشانغ : – طقس جيل .. الطقس المناسب لقضاء أعمال في الهواء الطلق .

ومرة اخرى اومأ « هسو فينغ » الى أحد الرهبان حينما همّ في الطريق ان يقترب ، وتساءل قائلاً : – الى اين انت ذاهب ؟..

فأجاب الراهب : – أنا ذاهب لأشارك في الاعمال العامة .

قال المعلم : – إذن فلتذهبن .

إن هاتين القصتين خاليتان من المعنى ، وأشك كثيراً في أن تكونا منطويتين على اي معنى رمزي يمت الى العمق بصلة. غير انك عندما تقرأ عدداً من حكايا « الزن » هذه يحدث شيء غريب : فجأة تلاحظ أمراً يتعلق بالطريقة التي تفكر بها ، تتوقع أن تعثر على العقدة في السطر الأخير من الحكاية .. ولكن عندما لا يحدث ذلك ، يعتريك شعور بالخيبة : لقد خدع عقلك بوجود معنى ما .

نقول بجدة : – ان القصة تفتقر الى المعنى . وما لم تخدم حوادثها غرضاً معيناً ينبثق منه المعنى ، فاننا نشعر بأن هذه الحكايات غير مبررة . ولكن هل يعني هذا ان الحكاية نفسها خالية من المعنى ، لمجرد أنها تفتقر الى العقدة ؟..

او ليست الحقيقة اننا نحمّل العقدة في « حكاية جيدة » عبء المعنى كله ، وبالتالي نجرد بقية القصة من مغزاها ؟..

هذا يمكنني من ايضاح مشكلات الرواية في انكلترا كما اراها منذ « ديفو » .. و « ريتشاردسون »[1] . ان هذه الرواية تتطور بهدوء لكي تحقق « غرضها » . ولكن اي **غرض** ؟.. ان باميلا تتزوج من السيد « ب » .. و « روبنسن كروزو » يموت في فراشه بسلام ؟.. اننا مستعدون لقبول ذلك على انه **«الغرض»** أو **«النتيجة»** وهذا يسمح لنا بأن نلقي بالكتاب جانباً وننساه . وفي هذا يكمن الاعتراض على التقليد الروائي بأكمله : إنه عقيم .

---

(١) **ريتشاردسون** (١٦٨٩ – ١٧٦٢) أبو رواية التحليل العاطفي في « باميلا » . (١٦٨٩ – ١٧٦١) .

أجل ان هذا العقم او فقدان الغرض هو الثمن الذي يجب تأديته مقابل المزايا النادرة التي تتمتع بها الرواية . ان الشكل الروائي يمنح الكاتب حرية غريبة النوع : فلنقارن — على سبيل المثال — بين كتابات «**جون كاوبر باوس**»[1] النقدية وبين أفضل رواياته . في «**فن الاكتهال**» و «مباهج الأدب» يفصح عن وهن في المخيلة ، عن عجوز ثرثارة الى حد يجعلك على وشك سماع صوت اصطدام سنانير الحياكة فور بدئك في القراءة . فما الذي تفعله هذه الكتابات لتبيتنك لجابية مد القوة والتأثير في رواية «**جوبر سكالد**» أو «**وولف سولينت**» أو «**قصة غلاستونبري**» ؟. ان الانقسام واضح هنا الى حد ان (**باوس**) يمكن ان يكون كاتبين مختلفين.. وهذا الانقسام أقل حدة لدى الكتاب الآخرين . ومع ذلك فن الذي يصنف كتاب تولستوي «**ماهو الفن**» في مرتبة روايته «الحرب والسلام» . ؟

أجل ان الرواية بلاريب تمكن الكاتب من التعبير عن قوى كان من الممكن أن يجد من المستحيل التعبير عنها في مجالات أخرى . فلنأخذ كلا من «**أنتوني ترولوب**»[2] «**آرنولدبينيت**» .. «**توماس مان**» : من الذي سيرتاب في انهم سحرة لو أنهم كانوا تجاراً او باعة خضراوات .؟ هل كانوا سيكتشفون أمر انفسهم ؟ أشك في ذلك . غير أن الثمن باهظ لقاء هذه الحرية : فالكاتب محصور ضمن عجلة العواطف الانسانيـــة الصاعدة الهابطة.. عجلة القصة . فـــاذا ماتجشمت عناء شق الطريق عبر صفحات «**جين كريستوف**» أو «**الحرب والسلام**» أو «**كلاريسا**» التي تبلغ الألف والخمسائة صفحة ، انتابك الاحساس نفسه الذي مر بك وانت تقرأ حكايات «**الزن**» — التي أوردتها في الصفحة السابقة — وبخاصة اذا مااصطحبت هذه الروايات في رحلة طويلة بالقطار ، واستمررت في قراءتها حتى عندما تشعر بالتعب. فان تطرأ تطورات وتعقيدات جديدة حتى تبدأ بالتفكير : وماذا بعد ؟

في خلال مائتي صفحة ستظل تتابع مصائر ابطالك ، منتظراً بفارغ الصبر لحظة يكبون فيها كبوتهم على السرير ، أوينتصرون او تنتابهم الرؤى . غير انهناك لحظةتدرك خلالها ان تمتعك بهذه الانتصارات يعتمد على احساسك بأن شيئاً ما قد اصبح ناجزاً .

(1) **باوس** .. شاعر ، روائي ، وكاتب مقال ولد في عام (١٨٧٢) .

(2) **ترولوب** من كبار روائيي فترة (١٨١٥ — ١٨٨٢) .

وعندما يدخل الكتاب في تعقيدات اخرى ، تدرك ان هذا الاحساس بالكمال والانجاز مجرد وهم .

وحقيقة الامر هي ان الرواية مبررة بقدر ماتنجح في منحك اجازة بعيداً عن نفسك . ان معظم القصص لاتؤدي الى نتيجة عندما ينظر اليها نظرة ناقدة . اذاماطالعت مؤلفاً في الفلسفة ، فقد تشعر في نهايته وكأنك قد وصلت الى هدف ما ؛ على الرغم من ان قضية اقتناعك به امر مختلف . في نهاية **« الحرب والسلام »** أو **« جوبر سكالد »** تشعر وكأنك قد قمت برحلة دائرية ممتعة بالباص ، غير انك تترجل في نفس المكان الذي بدأت منه . فاذا كانت الرواية قصيرة — او اذا كان بالامكان قراءتها على دفعات قصيرة — تبين إن الهدف ليس بذي أهمية : حسبك انك قمت بجولة ممتعة إخترقت فيها حدوداً جديدة أشعرتك بالنضارة والنشاط . أما اذا كانت الرواية طويلة ، وانكببت على مطالعتها لكي تستكشف ماذا سيحدث في المرحلة التالية ، تبخر احساسك بالنضارة وكففت عن الاستمتاع بالمشهد ، وصدمت فجأة بعبث رحلة الباص الدائرية .

عندما كانت الروايةيافعة ، لم يكن الروائيون قدبلغوا مرحلة يشعرون خلالها بأن القصة هي الشيء الأم : لم يسأل « هوميروس » عما اذا كان **« يوليسيس »** سيارس الشعور بالانهيار عندما عاد أدراجه إلى **« إثيا كا »** كما ان من الواضح أن مؤلف «سفر يعقوب» قد شعر ان في عبارة : **« وعاش بقية حياته في غبطة وهناءة »** تكمن نهاية مقنعة كل الاقناع . ولم يبدأ الكتاب بالاعتراف بأن نهاية الرحلة أقل اهمية من المشاهد على الطريق حتى منتصف القرن التاسع عشر . وكثير من روايات القرن الثامن عشر المبكرة اتبع فيها اسلوب الرسائل ، وهذا يعني انها لم تكن تحتوي الا على النزر اليسير من المشاهد ، وانها كانت تقرأ من اجل الحادثة فقط . وعندما اعتبر **« فلوبير »** ان الهدف ليس هاماً بقدر أهمية مايحدث في الطريق إلى الهدف ، مرت الرواية بعملية تطهير . فبدلاً من أن تروى القصة بالرسائل او المذكرات .. الخ .. أصبح الشعور سائداً بأن على الرواية أن تطرق سبيل الوحدة الداخلية ، وبالتالي أن تعير واقعية المشاهد الفردية اهتماماً أكبر . واذا ما كانت الرواية **« ستخرجك من نفسك »** فان مهمة الروائي هي أن يجعل عالمه مقنعاً قدر المستطاع .

غير انه حتى « فلوبير » و « تورجنيف » لم يكونا صافيين ، وكتبا كتباً لم تكن تتمتع بهندسة خارقة . إن « هنري جيمس » هو الذي يمثل مدرسة : **« الوسيلة قبل الغاية »** في أنصع وجوهها ، فكتبه رقصات طقسية للحوادث . يقول جيمس :

ثمة طريقة واحدة مناسبة لرواية كل قصة على حدة ، طريقة كاملة واحدة ، وإذا مادرست القصة بجهد — كما هو الأمر بالنسبة لمسألة رياضية — وبالطريقة المناسبة ، لابد أن يظفر المؤلف بها في النهاية . إن مقدمات « جيمس » ممتعة لانه ، كرياضي متحمس ، يجد متعة في أن يروي لك بالتفصيل ، كيف توصل الى حل المسألة .

هذه التعليقات لايقصد بها نقد أعمال « جيمس » . إن من السهل جداً القول إن ماتكسبه رواياته من حيث الشكل تخسره في المضمون .. وان الكثير من التقنية الرياضية يفقد القصة حرارة الحياة . ولست أقصد بذلك ان رواياته تفتقر الى الحيوية ، فروايته : « السفراء » تضارع في حيويتها « أبراج بارتشيستر » . انها عبارة عن ادراك فكري وحكم اخلاقي حقيقيين ؛ ومشكلتها هي انها ليست فكرية بما فيه الكفاية . اجل لقد كان جيمس بارعاً في حل مشكلات خلقها بنفسه ، غير انه لم يسأل مطلقاً عما إذا كانت تستحق عناء إيجاد حل لها .

وفي مراسلات بين « شو » و « **جيمس** » حول مسرحة الأخير لروايتــه « **أوين وينغريف** » التي تدور حول شاب مسالم يكره الحرب ، يتحدى شبح جده المحارب ، مؤكداً شجاعته الأخلاقية ، ولكنه يموت في خلال عملية التحدي .. كتب « شو » :

« **إنماينقص المسرحية ، إضافة فصل ثالث بقلم والدك** » ...

(هنري جيمس الأب أوجد نظاماً دينياً هاماً جداً) . ومضى « شو » يصر على أن « أوين وينغريف » يجب أن ينتصر ويعيش ، وان نهاية المسرحية بشكلها الحالي تبشر بالجبن والخور . وانتهى بالقول : « **إن الناس لايريدون أعمالاًفنية منك . إنهم يريدون معونتك** » .

لقــد كان « **شو** » على حق .. ورد « **جيمس** » عليه، ذلك الرد العاطفي ، دفاعاً عن القيمة المطلقة للفن ، قد أخطأ الهدف .

إن أهداف « **جيمس** » الفنية — في حدود المرحلة التي قطعها — رائعة فعلاً . وليس علينا سوى مطالعة مذكراته لكي ندرك ان قصصه كانت تهبط عليه كمجموعة من الحدوس المفاجئة ، كرؤى ذات حيوية نادرة خاصة بها ، يصعب الحفــاظ عليها ، أشبه شيء بعطر نادر . كانت مهمة « **جيمس** » أن يُلقى قارورة تستطيــع ان تحفظ كل قطرة من ذلك العطر وألا تسمح له بالتبخر . وقد استطاع ان ينجز ذلك باتقان

فائق . غير أنه عندما يقبض على « **رؤيا** » القصة ، ينسى كل اهدافها وغاياتها باستثناء كيفية روايتها باتقان . والنتيجة هي ان عمله يفيض بالانهزامية التي سادت عصره (وقد ادرك بنفسه ان معظم انهزاميته كانت ارواء رومانتيكياً لغليل النفس) .

لقد شن « **شو** » هجوماً على الهرطقة التي تسود نظرية الرواية بأكملها . ان كون القصة لاتؤدي – عادة – الى نهاية ما ، لايمكن ان يكون سبباً يدعو الى انتصبح القاعدة الاساسية ألا تحاول القصة الوصول الى غاية ما . ومع ذلك فقد كانروائيوالقرن التاسع عشر يقبلون هذهالنظرية على انها أمر مسلم به .

لقد كان « **تولستوي** » على حق عندما اعلن ان « كتاباته الأخلاقية » هي على قدر من الأهمية يماثل انتاجه الروائي . فنظرية « **الفن المطلق** » قد منحت المؤمنين بها تبريراً لتوقفهم عن التطور كمخلوقات بشرية .

ان دراسة معظم تلامذة « **فلوبير** » و « **زولا** » عن كثب ، قد أثبتت انهم ، كأساتذتهم ، مراهقون أخلاقياً . انأعتراض «**فلوبير**» الفج على العالم ، قد ظهر مجدداً في الرومانتيكية الأخاذة التي تميزت بها كتابات كل من « **غيسينغ** »[1] ، « **مور** »[2] ، بينت ، موباسان ، **هايزمانز**[3] ، جويس ، وأوسكار وايلد ، كل هؤلاء يتهربون من عبء المسؤولية الأخلاقية بالادعاء بأنها ليست من شأن الفنان .

ولعل « **جويس** » هو الممثل الأفضل لهذا الموقف ، فهو يعلن ان الفن يجب ان يكون سكونياً . الجمال سكون . الفن الذي يفتقر الى نتيجة ما ، يفتقر الى الصفاء. الا ان مذهبه لم يكن سلبياً بالمرة ، فقد كان كجيمس ، يرى ان مهمة الفنان هي أنيعبي، **جوهر** الواقع بطريقة ما .

---

(١) جورج روبرت **غيسينغ** (١٨٥٧ – ١٩٠٣) .. روائي وناقد .. أشهر كتاباته النقدية مؤلفه عن « تشارلز ديكنز » .

(٢) جورج **مور** (١٨٥٢ – ١٩٣٣) روائي إرلندي .. من أشهر رواياته « الأخت تيريزا » ، التي تنهج نهج الرواية الفلسفية الفرنسية .

(٣) **هايزمانز** روائي فرنسي من أصل هولندي (١٨٤٨ – ١٩٠٧) . كانت رواياته الاولى ذات طابع شيطاني معاد للدين .. الا انه لم يلبث ان عاود الإيمان عندما اعتنق الكاثوليكية . — المترجم —

ان حركة الفن للفن كانت الى حد ما ، ثورة على تفاهة الفكر المحض ، وعقلانية القرن الثامن عشر . فقد شعر رواده ان الفكر عاجز عن معالجة جوهر الحياة : قد تكون الرواية شكلاً أقل قيمة من البحث العلمي ، ولكنها مع ذلك تستطيع تعبئة « الجوهر » بعبارة بعيدة عن متناول الفكر . وهذا صحيح فعلاً : ان القسم الثاني من المناقشة هو الذي يحتمل الشك . فعلى الرغم من أن الرواية لاعلاقة لهـا بالغاية ، بالمفهوم الذي يدركه فيها المفكر ، الا انه ليس من المدهش ان يكون النقادقد ظنوا بأن (**يوليسيس**) قد مثلت نهاية الرواية . صحيح ان يوليسيس في بعض وجوهها ، متفوقة على كل ماتقدم عليها من روايات .. انها أشد واقعية . وفي أحد فصولهـا يحاكي « جويس » أساليب عدد من الكتاب الذين سبقوه بدءاً بـ « **مالوري** » [1] حتى « **جورج إليوت** »[2] . ويبدوان هدفه من ذلك ، البرهان على انه — بشكل ما — متفوق عليهم جميعاً . وهو كذلك فعلاً . الا ان النقاد ، لم يلكوا الا ان يلاحظوا بأنه في كسبه لدرجة متفوقة من الواقعية ، قد خلف وراءه جميع عناصر الرواية .

وهذا الاتجاه ظهر واضحاً في أعمال « بيليت » على سبيل المثال ، وهو كاتب تعتبر أفضل رواياته مؤثرة لانها شبيهة بالحياة اليومية بتفاصيلها ودقائقها .. لابل حتى بسأمها . ان « يوليسيس » تبدو وكأنها توحي بأن تطور الرواية نحو مزيد من الواقعية قــد أدى الى نفور من « القص » يصعب إرضاؤه . أما « **يقظة فينيغان** » فقد أبرزت هذه العمليات في مرحلة أبعد : فقد حاول « جويس » رغبة منه في تجاهل تطوير الروائيين غير المجدي للدافع والنتيجة ، ان يحول الرواية الى جوهر صافي للواقع ، يمكن ان يوصف بأنه « **التاريخ من خلال عيني الإله** » . كما انها أوضحت بالفعل ، انه اذا ماكانت الرواية تصارع من أجل « الواقع » بدلاً من عبث الحوادث ، فهي لابد سالكة درباً مسدوداً .

غير أن وجهة النظر هذه يمكن أن تقبل فقط اذا ماقبلنا بالافتراض **الجيمسي**[3]

---

(١) السير توماس **مالوري** من كتاب القرن الخامس عشر في انكلترا .. تأثر بالرواية الفرنسية .

(٢) جورج **إليوت** : الأسم المستعار لماري إيفانز (١٨١٩ — ١٨٨٠) .. تؤمن بالأخلاق الوضعية بدلاً من الدين .. اشتهرت كروائية وشاعرة معاً .

(٣) نسبة الى « **هنري جيمس** » . — المترجم —

فاذا ماقبلنا عوضاً عن ذلك بوجهة نظر « شو » برز مجال للاختيار : لقد افترض جويس أن ثمة طريقين تسلكهما الرواية ، طريق قصة تافهة لايمكن ان تصل الى نهـاية حقيقية (**لأن الحياة مستمرة**) ، أو طريق بحث شبه صوفي عن الواقع .. يعتبر القصة امراً يأتي في الدرجة الثانية من الأهمية . ان الطريق الثانية هي الأشق في عملية الاختيار ، ولجويس أن يفخر باختياره سلوكها .

غير أن ثمة احتمالاً ثالثاً أشد صعوبة من هذين الاحتمالين : انه محاولة رواية قصة ولكن **برفع القصة الى مستوى الواقع**. وقد يكون بوسع المرء القول بأن القصة المثالية لهذا النوع من الرواية هي **قصة حياة قديس يصل أخيراً الى مرحلة «الواقع المُصَعَّد»** .

واذا تمكن الروائي من وصف ذلك الواقع بطريقة ينقل فيهـا القارىء اليه ، استحقت روايته أن تمنح سمة العظمة لأنها تسير على مستوى **القصة** ومع ذلك توصـل القارىء الى مستوى **الواقع** .

إن كلاً من « ميلفيل » و « **هيس** »[1] و « دوستويفسكي » قد حاول ممارسة هذا النوع من الرواية (التي يدعوها ي . م . فورستر ب **الرواية النّبيّة**) .. ولكن احداً لم ينجح بعــد في كتابة واحدة حازت حتى على نجاح جزئي في نقل القارىء الى عالم الواقع .

وهذه الروايات النّبية هي — الى حد ما — روايات أفكار .. ذلك ان احد اهدافها تغيير أفكار قرائها . وبالطبع فان رواية الأفكار قد عرفت في القرن التاسع عشر : روسو، « **بيكوك**[2] » ، وحتى « **لاندور**[3] » يدور في هــذا الاتجاه . غير ان ذلك كان أقرب مايكون الى تغزل هاو بالافكار ، وليس محاولة للاقتراب من الواقع اكثر من قبل. **دوستويفسكي** كان في طليعة هذه الطبقة الجديدة من روائي الأفكار : كان يريد الاقتراب

---

(١) هيرمان **هيس** .. روائي المأني (١٨٧٧ — ١٩٦٢) .. له بعض القصص القصيرة والقصائد . نال جائزة نوبل لعام (١٩٤٦) .

(٢) **بيكوك** (١٧٨٥ — ١٨٦٦) .. روائي وشاعر . كان صديقاً للشاعر شيللي ..

(٣) **لاندور** (١٧٧٥ — ١٨٦٤) روائي انكليزي من اشهر أعماله (**الكونت جوليان**) .

— المترجم —

من عالم الواقع اكثر ، وكان مستعداً ان ينفق بعض الزمن في الدفاع عن نظريته ، ثمة كتاب آخرون ، لعل افضلهم .. واشد الروائيين الذين غمطوا حقهم « **ه.ج.ويلز** ». ان كتبه المبكرة تحمل تشاؤماً سيالاً ، فهو يستطيع الكتابة عن نهاية العالم في « **آلة الزمن** » أو قسوة الطبيعة في « **جزيرة الدكتور مورو** » بالدرجة نفسها من عدم الاكتراث الذي ينطوي عليه **موباسان** . وقد استمرت هذه الفترة حوالي عشر سنوات ، الا انه اجتازها بنجاح في عام (١٩٠٦) حينما كتب اتهامه عن الغباء الانساني في «**طعام الآلهة**» ، ورؤياه عن الانسانية المتحولة في « **أيام المُذنّب** » .

أما في « **تونو بونغي** » التي ألفها في عام (١٩٠٩) فتتضح المميزات التي تتسم بها جميع أعماله اللاحقة : رغبة ملحة في الكتابة عن المشكلات الحقيقية ، المشكلات التي أحس بها خلال عملية الكتابة ورواية القصة في الوقت نفسه . أحياناً تكون النتيجة رائعة كما في روايته « **المستر بولي** » ، واحياناً اخرى تكون عادية كما في « **زواج** » .

في « **النار المتأججة** » يرتفع « ويلز » الى درجة من الحدة تضعه في مستوى « دوستويفسكي » ، وفي « عالم وليام كلسولد » يحاول أن يجعل الرواية كبيرة كالحياة .. ولكنه يخفق . ومع ذلك فكل واحدة من رواياته — روايات الأفكار — تقرأ اليوم بمثل الاقبال والحماس اللذين قوبلت بهما يوم صدورها . وهذا ليس عائداً الى الأفكار التي تتضمنها (فالأفكار يتقادم الزمن عليهـــا بسرعة) وانما الى الاخلاص المتأجج لعقل « ويلز » وهو يحاول أن يسبر غوره مسألة كون الحياة فارغة من المعنى . وحتى عندما يحاول الكتابة بروح من عدم الاكتراث كما في « **مطاوي القلب السرية** » و « **النجم المولود** » فهو يكتب بحرارة تثير اعجاب القارىء . وفي رأيي ان أعمال « ويلز » التي اعقبت روايته « **تونو بونغي** » أشد اهمية من روايات القصص العلمي التي ألفها في وقت مبكر (على الرغم من درجة اتقانها) .. ويظل كذلك حتى النهاية .

ويبدو لي ان الجدل الذي ثار بين « **ويلز** » و « **جيمس** » حول كتاب الأول « **نعمة** » انما هو مثال آخر يدل على حوادث سوء الفهم التي يكثر تكرارها في تاريخ الفن . ان « جيمس » معذور اكثر من زميله ، فقد كان عاجزاً عن فهم اصالة « ويلز » بسبب الضباب الذي كان يحيط به دائماً . كما ان (ويلز) كان شهيراً ، وثرياً ، وصاحب

متفوق ، بينما عاش « جيمس » في بلد تفتقر الى رصيد حضاري(١) ولم يظفر بالتقدير الذي يستحقه : لا ريب انه سيكون بعيداً عن احساس البشر ، لو انه لم يشعر بنوع من الحسد تجاه ويلز. غير إنه لم يكن لدى « ويلز » من سبب يدعوه للحسد . لقد كان انساناً عنيداً .. وقد اعتبر هو و «شو » و « د. ه. لورنس» أشد ابناء جيلهم ثورة وحيوية .

ومن جهة اخرى كان ويلز ، كروائي ، يفتقر الى ما كان يمتلكه جيمس ، أي الرغبة في إسباغ روح الواقع على كتبه حتى لو احتاج الأمر الى الف ضربة فرشاة ناعمة . كان باستطاعته أن يكتب جيداً عن حياته وتجاربه الخاصة فقط ، وليس عن الآخرين . ومع ذلك فان ما أراد ان يفعله في المضمار الروائي لم يكن قديماً قدم ما ادعاه كل من « جويس » و « إليوت » . وحينما تكون رواية « ويليام كليسولد » جيدة فان ذلك يتم على طريقة « الارض الخراب » نفسها .. او مشهد البلدة ليلاً في (يوليسيس) ، كهزباء ، وشعور ، وكثافة شخصية . وكرواية اختبارية ، تضارع « كليسولد » رواية « يوليسيس » في جرأتها . والى حد ما في نجاحها . و« كيوليسيس » تكشف عن حقيقة ان اشكال الرواية القديمة غير كافية . وهي تحتوي ، صفحة بعد الأخرى ، على عدد من الصفحات يماثل (يوليسيس) في اثارة السأم ، باستثناء ان (يوليسيس) مليئة بتجارب واوصاف طبيعية عقيمة ، و « كليسولد » محشوة بقطع عقيمة من السياسة او علم الاجتماع . كلاهما ينطوي على حيوية تتغلب على هذه المشكلة .

في هذه المقدمة ، اجد اهتمامي موجهاً الى المشكلات والطرق المسدودة التي تتعلق بـ « كليسولد » اكثر من تلك التي تثيرها (يوليسيس) . ذلك ان من الواضح لي ان مشكلات روايتي الاخيرة « رجل بلا ظل » تماثل في طبيعتها مشكلات « ويلز »

ان ما ارغب في تحقيقه – اشعر انه سيكون من الممكن انجازه يوماً ما – هو كتابة White Dwarf(٢) ، تأليف كتاب مكتنز الى حد يمكن معه ان يقرأ خمسين مرة . انه ليس كتاب افكار بنفس معنى كتابي « اللامنتمي » ولكنه كتاب يعالج الحياة بنفس دقة التسديد التي نضطر لأن نحياها . وبالطبع فان مثل هذا الكتاب لايمكن ان

---

(١) يقصد الولايات المتحدة .

(٢) White Dwarf نجم زالت الفراغات بين كهاربه بحيث يمكن لقطعة بحجم حبة الحمص ان تزن مئات الاطنان .

يكون رواية جيدة على ضوء مفاهيمنا الراهنة ، على الرغم من احتمال نجاحه في سرد قصة تتميز بلون من الوحدة الداخلية .

ان إبسط اعتراض يوجه لرواية الافكار (من نوع بيكوك) هو ان **الافكار ميتة** ، بينا يتعين ان يكون الكتاب بطريقة ما ، **عضوية حية** ذات معان متراوحة المستويات ، كلوحة يمكن النظر اليها بعشرات الطرق المختلفة . ولكن أليست هناك افكار ذات حيوية من هذا الطراز ؟ إن (**فاوست**) و (**الانسان والسوبرمان**) يمكن ان يطلق عليها اسم تمثيليات أفكار ، وهذا لايمنع كونها من الروائع الفنية الكاملة .

لقد عالجت هذه المشكلة في « **طقوس في الظلام** » التي تعتبر « **رجل بلاظل** » نتيجة لها . غير انني فشلت هناك واقنعت نفسي بقبول تسوية :

رواية تروي قصة وتسبرغور الافكار أنى استطاعت ، مادامت هذه الافكار لاتؤثر على فعالية الحركة كما في كليسولد .

أما في « **رجل بلاظل** » فقد طرقت المشكلات من طريق جانبي . وبتقديم الكتاب على شكل مذكرات ، عدت القهقرى الى شكل من إشكال الرواية اقلع عنه فلوبير بدعوى افتقاره للصفاء . اما اختياري « الجنس » محوراً رئيسياً للرواية فقد جعلني استغل فرصة تنطوي على الاجحاف . وربما لم تكن رواية من وجهة نظر « ديفو » و « جويس » . الا انني اقل اهتماماً بالاسم الذي إطلقه عليها ، محاولة الحدس بالشكل النهائي الذي تنطوي عليه قوانينها الداخلية . ذلك أنني في الوقت الذي كنت منهمكاً في كتابتها ، كنت مدركا ان قول الاشياء بهذه الطريقة امر من الضرورة بمكان . فان من الواجب وجود نوع من الرواية **يشن هجوما اماميا على الواقع** كما يعرفه الروائيون ، ليس الرواية الواقعية او الخيالية ، او رواية الافكار ، وانما تلك التي تستخدم الافكار . لأن الهجوم على الواقعية يتطلب الى حد ما ، **تحويل المشكلات الى افعال** . ومع ذلك فهي رصاصة مدرعة تحاول فتح ثغرة عبر السطح بحثاً عن المعنى الكامن قبل ان تكون كتاباً بالمعنى التقليدي .

والكتابة عن الجنس تثير مجموعة اخرى من المشكلات التي قتلت بحثاً كما هو الامر بالنسبة لمشكلة الرواية . فالقراءة عن معظم الاشياء أمر يثيرنا عاطفياً اوفكرياً . أما القراءة عن الجنس فقد تثيرنا فيزيولوجياً ايضاً . غير ان الكتابة تستهدف الفكر والعاطفة معاً . وبالطبع تبرز مشكلة مماثلة في عالم « الرسم » . فان صورة فاحشة يقصد

منها هدف مختلف كلياً عن لوحة (**اغتصاب لوكريس**) ، على الرغم من كونهما في الواقع ، متشابهتين الى حد ما . والمشكلات تثار في منطقة التشابه هذه. لقد اضطر « **د . ه . لورنس** » أن يغلق معرضاً للوحاته على الرغم من ان هذه اللوحات كما رأيتها ، **إيروطيقية** ، ولكن بالمعنى الذي يمكن ان نطلق فيه هذه الصفة على رواية « **نساء في الحب** » .

لقد أردت ان اكتب رواية وجودية تدور حول الجنس . فاذا ماكنت أكتب لمجموعة من المثقفين الذين يمكن **ألا** تثيرهم جنسياً ، فليست هناك من مشكلة : الأفكار والجنس يمكن أن يتزجا امتزاجاً كاملاً ، ثمة خيار واضح بين حلين نهائيين : ان تتجاهل احتمال ان يقفز بعض القراء متجاوزين الفكرة بحثاً عن المقاطع الجنسية .. او ان احاول دفع الرواية باستخدام الرموز ، والإيماءات ، والسطور المليئة بالنقاط .. لقد كنت أميل الى الحل السابق ، على الرغم من ادراكي بأن ذلك يعني رواية غير صافية .. وربما **أقل** نقاء من وجهة النظر الجنسية .

ومها يكن من أمر فانا أكرر سؤالي : **أليس الوقت ملائماً لكي نخلق نوعاً جديداً** من الرواية ، نوعاً أستطيع تلمسه تلمساً خفيفاً فيما كنت أكتب « رجل بلاظل » ؟.

لقد كانت رواية القرن التاسع عشر أشبه شيء بسفينة في عرض البحر ، تمخر العباب دون اكتراث بمشكلات قرائها .. فلا تصطحبهم في رحلتها البحرية . وقد استهدفت الرواية « **الجوزسية** » الكتابة بصفاء كما استهدف « **سيزان** » الرسم بصفاء أيضاً ، رصد الواقع في اماكن حيث لايحمل الموضوع سوى قيمة زهيدة : أنبوب المدفأة يعامل كالجبل ، والأسلوب هو كل شيء . ولكن عندما أفكر في ذلك النوع من الرواية الذي كتبه « دوستويفسكي » و « ويلز » ، أفكر ببلطة تنهال على شجرة وتجعل الشظايا تتناثر في الهواء : **ليس مراوغة الواقع أو أوصافه .. بل الهجوم عليه** . وكما أصفها هنا ، تبدو غامضة مبهمة كالواقعية الاشتراكية كما تبشر بها الآيديولوجية السوفييتية .

غير ان **الواقعية الاشتراكية** لاتنفذ الى الأعماق بما فيه الكفاية . ان مانحتاج اليه هو « **واقعية وجودية** » . وكما هو الأمر بالنسبة للواقعية الاشتراكية ، فان **موقفها من الواقع لن يكون سلبياً أو متشائماً** . وبمعنى مخفف يمكن أن ندعوها « واقعية عملية » : إنها تريد تغيير الأشياء . أما ماتريد تغييره فهذا ما أتركه دون تحديد ذلك انه يمكن أن يستنتج من تجربتي الروائية .

الأرانب البيض

قصة ليانورا كارينغتون E. CARREINGTON

ترجمها عن الفرنسية صلاح دهني



آن الأوان لأروي الأحداث التي جرت في الرقم ٤٠ من شارع الطاعون. فالبيوت كانت تميل الى السواد الضارب للحمرة ، وهي اشبه ما تكون ببقايا غامضة تخلفت عن حريق لندن. كانت الدار المواجهة لنافذتي – وقد كللتها مصادفة حفنة من النباتات المتسلقة – تبـــدو باهتة مهجورة كأي مسكن اجتاحته النكبة ثم لحسته ألسنة اللهب، وجللته بزبد الدخان. ولم أكن لأتصور مدينة نيويورك على هذا النحو .

كان الطقس من الحرارة بحيث كنت أصاب باضطرابات قلبية كلما خاطرت بالنزول الى الشوارع . لهذا جلست وجعلت اتأمل الدار المقابلة ، وبين الحين والحين كنت ادع وجهي يستحم بالعرق .

لم يكن النور فقط شديد السطوع في شارع الطاعون . وكان ثمة ذكرى دخان يزعج البصر ويغبش الرؤية . غير انه كان متيسراً للمرء ان يدرس الدار المقابلة في تأن ، بل في دقة تامة . وأنا في كل الاحوال ، اتمتع دوماً ببصر ثاقب قوي .

ولقد قضيت اياماً عديدة اترقب شارة تدل على حركة ما مقابلي ، غير ان شيئاً ما لم يحدث ، وفي آخر الأمر تعودت أن اتعرى بحرية تامة امام نافذتي المفتوحة وأن اقوم بحركات تنفس نشطة في جو شارع الطاعون ، الثقيل ، الأمر الذي سوّد رئتيّ دونما ريب ، شأن ما فعل بالبيوت . وفي ذات عصر ، غسلت رأسي وجلست في الهواء على هلال حجري مختصر جعل على صورة شرفة ، كيما يجف شعري . وقد جعلت رأسي بين ركبتي وأخذت اراقب ذبابة زرقاء كانت تمص جثة محنطة لعنكبوت بين قدميّ . ورفعت رأسي عبر خصلات شعري الهابطة ، فرأيت شيئاً ما اسود في السماء ، في هدوء مقلق ، فليس هو بطائرة . فلما فرقت ما بين خصلات شعري ، وسعني ان ارى غراباً ضخماً قد اقعى على شرفة المنزل المقابل . كان قد جثم فوق حاجز الشرفة وبدا يتفحص جهة النافذة الفارغة ، ثم انه دس رأسه تحت جناحيه ، كما لو كان يبحث عن القمل . فما تصرمت دقائق ، حتى اخذني العجب إذ شهدت النافذة تفتح على مصراعيها ، وتخرج منها الى الشرفة امرأة ، كانت تحمل طستاً مليئاً بعظام افرغتها على الشرفة . فنعق الغراب سريعاً نعيق عارف وقفز الى الارض وجعل ينقر وجبته غير الشهية .

وكان للمرأة شعر طويل كأنه الحبل ، فمسحت الطست مستخدمة شعرها لهذه الغاية .

ثم ألقت ببصرها الى صراحة وتبسمت متوددة . فرددت الابتسامة وحركت المنشفة . وبدا ان ذلك مني قد شجعها اذ هزت رأسها في ظرف ورشاقة وبعثت الى تحية رفيعة منمقة على غرار الملكات . ثم انها صاحت :

— هل يصدفك هناك أن يكون لديك لحم فاسد لاحاجة لك به ؟

فصحت بدوري :

— ماذا ؟

وأنا أتساءل ان كانت اذناي لم تخونا .

— لحم كريه الرائحة ؟ لحم ... لحم في حال التفسخ ؟

— ليس لدي منه الآن ! .

أجبتها بهذا ، وانا اتساءل ان كانت تجرب معي الغدر .

— أفلا يكون لديك منه في نحو نهاية الأسبوع ؟ لئن وجد، أكون لك جد ممتنة اذا جئتني به الى هنا .

ثم انها تراجعت ضمن النافذة المفتوحة واختفت . وطار الغراب .

وقد دفعني حب الاستطلاع في شأن المنزل وساكنته الى شراء قطعة لحم ضخمة منذ اليوم التالي . ووضعتها على الشرفة فوق قطعة جريدة وانتظرت البقية . فما انقضى وقت قصير نسبياً حتى فاحت رائحة كانت من الشدة بحيث اضطررت في متابعة شؤوني اليومية لأن أسد منخري بسدادة كبيرة من الورق . وبين الفينة والفينة كنت أهبط الى الشارع لأتنفس .

ومع اقتراب مساء الخميس ، لاحظت بأن اللحم قد تغير لونه . فما كان

متي ، وأنا أهش على غمامة غليظة من الذباب الأزرق ، الا ان حشرته في حقيبة المؤن وتوجهت الى البيت المقابل . وقد لاحظت ، وانا اهبط الدرج ، بأن المالكة تتحاشاني . وانفقت بعض الوقت حتى وجدت باب الدخول الى البيت المقابل . وقد اكتشفته في كنف شلال من غصون اللبلاب . وكان يوحي بأنه لم يدخل البيت او لم يغادره انسان منذ سنين . وكان الجرس من ذاك النوع الذي انقضت موضته ويهز باليد ، هززته بشيء من العنف اكثر بما كنت ابغي حتى بقي في يدي . ودفعت الباب دفعة مغيظة ، فانقلب الى الداخل ، وفاحت رائحة مقابر من لحم فاسد . وبدا المدخل وقد غلبت عليه العتمة ، مصنوعاً من الخشب المحفور.

وهبطت المرأة الدرج بنفسها في هفهفة مسموعة حاملة شعلة . وغمغمت مرحبة : « أهلاً وسهلاً ، أهلاً وسهلاً » ، وقد ادهشني ان رأيتها ترتدي فستاناً عتيقاً جميلاً من الحرير الأخضر . غير أني رأيت عندما اقتربت مني ، ان بشرتها كانت في شحوب الموت ، تلتمع كما لو انها انغرزت فيها آلاف النجوم الدقيقة .

وتابعت وهي تأخذ ذراعي بيدها البراقة :

«أليس هذا لطفاً منك؟ كم ذا ستسعد تسمر أو اني الصغيرة المسكينة!»

وصعدنا الدرج وكانت مرافقتي تسير في حذر شديد حتى لقد خيل اليّ انها كانت خائفة متهيبة ؛

كان أعلى الدرج يؤدي الى بهو مزين بقطع قاتمة من اثاث قديم ، ومساند حمراء . وقد بعثرت على الأرض عظام منهوشة وجماجم حيوانات .

قالت المرأة باسمة :

« نادراً جداً مايزورنا أحد ، ولهذا فقد هرعت جميعا الى اماكنها الصغيرة . »

وصفرت صفرة ناعمة خفيضة ، فرأيت وقد تجمدت اوصالي ، مايقرب من مئة ارنب في بياض الثلج تخرج محترسة من كل زاوية، بعيونها الكبيرة الحمر وقد تعلقت ثابتة لاتطرف بالمرأة .

« تعالوا ياأحبائي الصغار ، تعالوا ياأحبائي الصغار » ، هكذا أخذت تقول ، وهي تولج يدها في حقيبة مؤنى ثم تسحبها وفيها قبضة من اللحم الفاسد .

فتراجعت الى احد الزوايا ، وقد غلب علي شعور بالقرف العميق ، ورأيتها تلقي بالجيف وسط الارانب التي تقاتلت كالذئاب لتحصل عليها .

وتابعت المرأة :

« ان المرء ليزداد تعلقا بها . فلكل منها اساليبه وطوائفه . وانك لتدهشين اذ ترين كيف ان لكل من الارانب شخصيته . »

كانت الارانب المذكورة منشغلة بتمزيق اللحم بأسنانها القارضة الدقيقة .

« ونحن بالطبع نأكلها ، عند اللزوم . فزوجي يُعد منها طبيخاً غاية في اللذة كل ليلة سبت . »

اذ ذاك لفتت انتباهي حركة في الزاوية ، وتبينت أن ثمة شخصاً ثالثاً في الغرفة . فلما صافح ضوء الشعلة الذي كانت تحمله زوجته وجهه ، رأيت جلده يلمع كأنه الزينة على شجرة عيد الميلاد . كان يلبس رداء غرفة احمر اللون ، ويجلس منتصباً تماماً ، وقد استدار جانب وجهه نحونا .

كان يبدو منعدم الشعور بوجودنا شأنه بأرنب كبير ابيض كان مقعياً على ركبته يقرض لقمة ضخمة من اللحم .

وتابعت المرأة نظرتي وصاحت : **« هذا زوجي ، وقد تعود الأولاد مناداته بالعازر » .**

على رنة هـــذا الأسم المألوف ، أدار وجهه نحونا فرأيت رباطاً يلتف حول عينيه .

وسأل بصوت يغلب عليه الضعف :

« إثيل ؟ لا أريد هنـــا أي زائر . تعرفين تماماً أنني منعت ذلك منعاً باتاً . »

«تريث ، ياصغيري العازر ، لاتركب جيادك العالية » ــ كان صوتها شاكياً . ــ **« لايمكنك أن تحرمني من صحبة صغيرة . لقد انقضى اكثر من عشرين سنة دون أن أرى وجهاً جديداً . ثم انها جاءتنا ببعض اللحم للأرانب . »**

واستدارت واشارت اليّ ان اقترب . **« أنت ترغبين بالبقاء معنا ، أليس كذلك ، أيتها العزيزة ؟ »**

فانتابني شعور رهيب بالخوف والذعر ، ورغبت بالهرب بعيداً عن هذين المخلوقين الفضين المحنيين وعن الأرانب البيض آكلة اللحم .

« أظن انني يجب أن أذهب ، فقد حان وقت العشاء . »

وانفجر الرجل الجالس على كرسي بضحكة ثاقبة القت الذعر في الأرنب المقعي على ركبته . فقفز الحيوان الى الأرض واختفى .

وقاربت المرأة وجهها من وجهي حتى لقد كاد لفح لهاثها المريض يخدرني .

« ألا ترغبين في أن تبقي وأن تصبحي مثلنا ؟ » .

ففقدت توازني وترنحت وجعلت اركض ، وقد خنقني شعور عارم بالرعب . غير ان الرغبة الجامحة بالاستطلاع دفعتني لأن امد بصري من فوق كتفي إذ بلغت باب الخروج ، فرأيتها تهز يدها من اعلى حاجز الشرفة ، وفيما هي تهزها ، كانت اصابعها تنفصل وتتساقط على الارض كأنها النجوم المذنّبة .

الجدة

قصة للكاتب الروماني باربو ديلا فرنشيا BARBU DE LAVRANCEA

ترجمها الأب أميل مرقدة



أراها كما لو كنت في حلم .

أراها بوضوح كما كانت ،طويلة ، شديدة النحول ، ذات شعر أبيض جعد ، وعينين قاتمتين ، أراها بشفتها العالية المحززة كأسنان المشط والتي تمتد من أنفها الى اسفل .

اذكر انها ما فتحت الباب لي مرة الا وثبت أمامها .

فكانت تضع يدها داخل صدرها وتقول لي :

ـ احزر.
ـ بندق !
ـ كلا ..
ـ زبيب . !
ـ كلا .
ـ حمص !
ـ كلا .
ـ حلوى !
ـ كلا ..

ولم تكن تخرج يدها من صدرها حتى احزر . وكان صدرها دوماً ممتلئاً باشياء واشياء . كنت أقبل يدها .

فترفع شعري وتقبل جبهتي . ونذهب لنجلس في ظل شجرة التوت التي تقع في نهاية الحديقة .

ثم لاتلبث ان تغرز في زنارها عصا في رأسه مشاقة الكتان وتبدأ في سحب خيوط طويلة رفيعة تأخذ بيرمها وغزلها .

اما انا فكنت استلقي على ظهري ببطء وتكاسل واضعاً رأسي في حجرها ...

كان المبرم يرن في اذني ..

كنت انظر الى السماء من بين اوراق التوت . وكان يخيل الي ان مطراً ازرق اللون يتناثر من عل .

كانت تقول لي جدتي بوجهها الباسم وهي تدغدغ هامتي :

ـ ايه ،ماذا ترغب ؟ سأقص عليك ...

وارغب في ان اقول انه لم يبق لها ان انهت حكايتها في يوم من الايام .

كان صوتها العذب يدهدني فتقترب اهدابي لتلتحم وكنت اغفو وكانت تنتابني رعشات احياناً فأطلب منها ان تحدثني .

— كان دُما كان .. في قديم الزمان .. كان يوجد ملك كبير ، كبير ..

— كم هو كبير ؟

— كبير جداً .. وكان يحب الملكة كحبه لعيني رأسه .. ولم يكن عنده اولاد ، الأمر الذي حز في نفسه وجعله حزيناً .

— جدتي ، هل هو امر سيء ان لا يكون للانسان اولاد ؟

— طبعاً انه امر سيء ، فالبيت الخالي من الاولاد ، بيت مقفر .

— جدتي ، ليس عندي اولاد ومع ذلك فانا لست آسفاً .

عندها ، كانت تترك الغزل وتضحك آخذة شعري بيدها .وتقبل هامتي .

كانت تتساقط بعض اوراق تنفصل عن اغصانها من شجرة التوت وهي تتمايل وكنت اتبعها بنظري واقول :

— تابعي حكايتك ياجدتي ، تابعي ..

— كان آسفاً جداً لأنه لم يرزق باولاد .. و .. . وكم كان يؤلمه هذا الحرمان ..

في ذات يوم قدم اليه شيخ مسن ، كان يجر لحيته على الأرض لكبره ولانحناء ظهره . كان قصير القامة ، كان قصيراً جداً .

— وكم كان قصيراً ؟

ــ ربما كان مثلك .

ــ يعني لم يكن قصيراً جداً . .

ــ نعم ، كان قصيراً ولكن لم يكن قصيراً جداً جداً . قـــال له : ياصاحب الجلالة ، لديك شجرتان من التفاح في حديقتك ، الواحدة ملتصقة بالثانية حتى انه يصعب على الانسان ان يميز اغصان احداهما من الثانية . وحين تزهر الاثنتان ، لايمكن ان نميز زهر الواحدة من زهر الاخرى ، تورق الشجرتان وتزهر اغصانهما ولكنها كانت تتناثر قبل ان يعقد الزهر ، فاعلم ياصاحب الجلالة ، انه حين تثمر الشجرتان ستحمل المملكة وستاد اميراً من ذهب ، ذهب كله . .

رحل القزم واسرع الملك الى الحديقة يفتش في كل مكان عن شجرتي التفاح حتى وقع نظره عليهما . كان الزهر يعم الشجرتين ولكنه كان يتساقط دون ان يعقد فتفرش الارض تحت الشجرتين بلاطة بيضاء كالثلج ومع ذلك كانت الشجرتان لاتثمران .

ــ لم لاتثمران ياجدتي ؟

ــ من اين لي ان اعرف . . الله يعلم .

كان الطقس حاراً جداً . . ما اجمل حضن جدتي . . كانت تهب نسمة ناعمة تلطف جبيني . . . وكانت السحب البيضاء تتدافع في السماء الزرقاء . . كنت اغمض عيني . . اماجدتي فكانت تتابع حديثها وهي تسحب الخيط بسرعة حيناً وحيناً ببطء من مشاقة الكتان .

ــ وفكر الملك في امر هاتين الشجرتين ، ماالعمل لكي يعقد الزهر فيهما؟ نصحه بعضهم بريهما باستمرار . فأخذ الملك يسقيهما دائماً . ونصحه آخرون ان يعرضهما للشمس فقطع الملك كل الشجر الذي يحيط بهما . وبدأت تزهر الشجرتان

في كل أسبوع ولكن الزهر كان يتناثر دون ان يعقد .

وذات يوم جاءت امرأة مسنة ، مسنة جداً ، متعبة الوجه مثلي وكانت ضئيلة الجسم مثلك . .

— هل كانت ضئيلة كالشيخ ؟

— نعم . كانت مثله .

— اذن لم تكن ضئيلة جداً .

— اجل ؛ لم تكن ضئيلة جداً . . قالت للملك : ياصاحب الجلالة ، لن يعقد الزهر إن لم تملأ جرة من حليب اميرة الزهر ، النائية هناك وراء وادي البكاء ، في سهل الاقحوان وتسقي شجرتي التفاح من حليبها . حذار ياصاحب الجلالة ان يشعر بك الزهر ، فانه يتحرك وان تحرك مال على بعضه وقد ييأس وجنتي الامـــيرة فتستيقظ لأن نومها خفيف كنوم العصفورة ، والويل لمن تراه فانها تحوله تبع هواها إما الى عشب كريه الرائحة واما الى زهرة يفوح العطر منها . وعلى كل حال فانه لن يتحرك من مكانه .

— مابالك ، هل نمت يافتى امه ؟

— لا . . لا . . اعرف اين وصلت . . الى . . الى . . اميرة الزهر . .

وكنت غارقاً في الحلم .

وتهدلت اجفاني المثقلة من الكسل والنعاس والانشراح . وكنت اشعر بنفسي خفيفاً كقطعة من القطن تسبح فوق الماء بهدوء وهدوء . . اما جـــدتي فكانت تتابع الحكاية والمغزل في يدها يدور ليوصل الى اذني طنينه المتواتر . .

— وركب الملك احسن فرس عنده .

— احسن فرس عنده . . كنت اردد كلماتها خوفاً من سيطرة النعاس علي . .

— واخذ معه خرجين وضع فيهما زاده وذهب . .

— وذهب ..

— وسار .. وسار .. وسار ..

— وسار .. وسار ..

— الى ان وصل الى غابة كبيرة كثيفة ..

— كثيفة ..

— فتوغل حتى غاب عن الانظار . وحيث وصل ربط فرسه الى سنديانة قديمة . ووضع الخرجين تحت رأسه واغمض عينيه ليستريح . واذا بالغابة تصدح بلين وطراوة تطلق زفراتها المسحورة . فحركت من الملك احاسيسه فاسترخى حتى نعس ونام .. ونام .. ونام ..

وحينما استيقظت كانت جدتي قد انهت الغزل .

ولكن الحكاية ؟

لم اسمع في حياتي حكاية بكاملها ورأسي على حضن جدتي .

كان لها حضن عجيب ، وصوت ومغزل يفعلان في السحر . كنت دون شعور انام سعيداً من خلال نظراتها المحبة وابتسامتها العذبة ..

القرن الأبيض

قصّة للكاتب السّوفييتي إفريموف Afrin ov

ترجمها عن الروسيّة هشام الدجاني



أوقف أوسولتسف جواده والتفت الى الخلف . كان يرتفع على البعد جبل عمودي شاهق ، قد استقر على رأسه مايشبه السن الابيض . كان هذا الجبل عالياً يشمخ فوق كل مايحيط به من جبال ، قد شابهت قمته البيضاء الحادة قرناً عملاقاً .

نظر أوسولتسف طويلاً الى الجبل الممتنع ، وحز في نفسه شيء من الخجل والألم . لقدفشل عالم التربة في نفس اللحظة التي بدا له فيها أن النجاح بات قاب قوسين . لقد حاول وقتئذ أن يتمسك

بالمنحدر الصخري للجبل الذي تكسوه الحجارة الناعمة ، وشعر أن أدنى حركة من فوقه او اسفل منه ستلقي به حتماً من علو شاهق . كم مر الوقت بطيئاً الى ان حزم امره في النهاية واندفع وهو يتدحرج ويلف تارة ، ويتعلق ممسكاً بنتوء الحجارة بأصابعه تارة اخرى .

كان صراعاً يائساً صامتاً في قبضة الموت .

* * *

قارب عمل الفرقة الجيولوجية على الانتهاء . ولم تؤكد المخططات ظن أوسولتسف حول وجود منجم غني بالقصدير . وبات الجواب الشافي في فم « القرن الابيض » ، كما بات مفتاح الثروة المعدنية على ظهر قمته المنيعة ، دفينة في باطن الأرض . القصدير ! ما أشد حاجة البلاد إليه ! انه يدرك هذا بحكم عمله ، ولقد كانت فترة تجربة الصعود الفاشلة الى « القرن الأبيض » ثقيلة على نفسه . لقد عد نجاته من الموت معجزة ، ولكنه أدرك في الوقت نفسه ان عليه ان يعيد التجربة ثانية .

وانطلق اوسولتسف فعلاً بصحبة الدليل أرسلان كي يدرس عدوه الذي لم يقهر .

كان أوسولتسف قد نجح من قبل في الصعود الى شاهق يزيد عن ثلث ارتفاع الجبل ، ولم يبق أمامه كي يصل الى القمة سوى مئتي متر ، كل متر منها لم تطأه قدم بعد .

أخذ عالم التربة يتفحص قمة الجبل عن بعد ، وفجأة لاحظ منبسطاً صغيراً عند قدم السن الابيض . لم يكن سطح هذا المنبسط بادياً من المكان المنخفض . « عجباً ، كيف لم أر هذا المنبسط من قبل ؟! لو أمكن الوصول اليه ، اذن لأمكن الوصول الى السن » .

تعب اوسولتسف من الوقوف ، ولكنه لم يبعد ناظريه عن الجبل .. عن القرن الأبيض .

ضحك الدليل وقال :

ــ اراك حزيناً ايها الرئيس . هلا جلست قليلاً واصغيت إلي . انك تحب « القرن الابيض » ولكن يجب الا تتسرع في الصعود اليه . عندنا حكاية قديمة عن رجل صعد القرن الابيض و ..

صاح اوسولتسف باهتمام :

ــ لماذا لم تحك لي تلك الحكاية من قبل يا ارسلان ؟! قصها علي !

فقص عليه ارسلان الحكاية التالية :

« كان يحكم كل هذه المنطقة خان قوي شجاع . وذات مرة انطلق مع حاشية كبيرة في مسيرة طويلة فالتقى في طريقه احدى قبائل اللصوص . وجرت بينها معركة حامية . وهزم اللصوص وولوا مدبرين . وغنم الخان غنيمة كبيرة . بيد ان سروره كان عظيماً لما وقعت يده على سبية ذات جمال آخاذ ، كان اللصوص قد خطفوها عند وادي فرغانه [1] بينما كانت مسافرة الى ابيها من بلاد بعيدة . وحمل الخان جاريته الى جبال بلاده حيث اضحت ، حسب تقليد قديم ، محظيته وحظية ولديه الكبيرين المفضلة .

ومر عامان . وذات صيف نصب الخان معسكراً عند طرف واد اخضر . ووفد اليه زعماء القبائل الصديقة المجاورة . ودخل المعسكر على غير انتظار محارب طويل القامة مكفهر الوجه . جاء وحيداً لايمتطي صهوة جواد ، ولا يعتلي ظهر جمل . وطلب الوافد ان يسوقوه الى الخان . ووضع المحارب سلاحه بهدوء على البساط ، وانحنى للخان بجرأة واحترام .

(١) وادي فرغانة : واد يقع بين اوزبكستان وتاجكستان وكير غيزي .

كان وجه القاسي ينم عن وجه محارب مقدام ، وعن رجـــل باسل شريف .

قال المحارب :

ــ ايها الخان العظيم ! وفدت اليك من بلاد بعيدة حارة . وكان مجيئي شاقاً ، جبت فيه الجبال والأودية عاماً كاملا حتى قادتني الاشاعات والقصص اليك . قل لي ايها الخان اعندك فتاة سميتها انت سيديوروش ؟

اومأ الخان برأسه بالايجاب .

فتابع المحارب قوله :

ــ هذه الفتاة عروسي ايها الخان . لقد بحثت عنها طويلا ، وعبرت من اجلها بلاداً كثيرة ، وحبي لها مازال قويا . اعدها الي ايها الخان القوي ! انا اعرف انها انتظرت عودتي طويلا .

ارتسمت على وجه الخان ابتسامة خفيفة . قال الخان :

ــ كن ضيفي ايها المحارب النبيل .

قبل المحارب الصارم الدعوة ، وجلس مع المحتفلين . كان قد وفد الى الاحتفال جمع غفير من الضيوف . وغنى المنشدون اغنياتهم ، وكلهـــا غزل بسيديوروش ــ عشيقة الخان وابنائه .

لاحظ الخان وجه المحارب وهو يزداد اكتئابا . وعندماانشد كبيرالمغنين اغنية عن حب سيديوروش لسادتها ، قفز المحارب من مكانه وصاح بالعجوز:

ــ اخرس ! ان كل ماتقوله افتراء !

وسرت ضجة بين جمهور الحاضرين . واندفع بعض الشبان نحو الرجل الغريب . والتمعت السيوف وواجه الغريب جمهرة اعدائه بشجاعة . وسقط

رجلان .. ثلاثة .. خمسة رجال ، وسال الدم غزيراً، لكن المحارب لم يصب بسوء.
عندئذ اوقف الخان المتقاتلين . وسأل الخان مغضباً :
— ماذا تريد ؟
فأجاب المحارب :
— الحق !
— الحق ؟ حسناً . اذن فاعلم ، وانا لم افتر كذباً في حياتي ، ان كل ماقاله المنشدون صحيح !
ارتج القول على الغريب ، والقى بسلاحه على الارض ، وصار وجهه يحاكي وجوه العجائز .
سأله الخان :
— ماذا ! امازالت تطلب ان اعيدها اليك ؟
استقام المحارب في وقفته ، وعيناه تقدحان بريقاً ، واجاب :
— اجل ايها الخان !
ضحك الخان وقال :
— حسنا سأعيدها إليك ، ولكنك ستدفع من اجل هذا ثمناً غالياً .
اجاب المحارب :
— انني مستعد !
— انها الان سنة الثور[1] ، ومن يستطيع في هذا العام ان يغمد سيفه في قرن الثور الحجري ، يجد نسبه الف سنة . لقد حاول بعض الشجعان ان يقوموا بذلك ، ولكنهم لاقوا حتفهم جميعاً ، وظل « القرن الابيض » صعباً بعيد المنال. هذا هو الثمن ايها المحارب ! اصعد القرن الابيض وضع سيفي الذهبي على قمته ، وعندئذ تأخذ هذه المرأة .

(١) تسمي بعض الشعوب الشرقية القديمة أعوامها باسماء الحيوان .

رن امر الخان في اذني الرجل الغريب كحكم بالاعدام لكنه لم يتراجع . وحملوا اليه سيف الخان الذهبي المشهور ، وانتقل خلق كثير الى حيث القرن الابيض . وعند المساء ترجل الخان وضيوفه عن صهوات جيادهم المتعبة عند سفح الجبل الرهيب .

امر الخان الغريب ان يرتاح ليلته ، فنام هذا نوماً هادئاً طوال الليل يحرسه جنود الخان .

وحل صباح كئيب . كانت الريح تصفر حول الجبل المنيع . خلع الغريب ملابسه وعلق على ظهره سيف الخان الذهبي .

لقد فعل مالم يستطعه احد من العالمين منذ كان القرن الابيض ، فقد وضع السيف على قمة القرن وعاد ادراجه . وحافظ الخان على كلمته واعاد للغريب سيدبوروش .

ارتدت المرأة على عقبيها خائفة عندما رأته . ولكن المحارب جذبها اليه بقوة ، واماط الحجاب عن وجهها الجميل ، ثم نظر الباطوبلا نظرة ملؤها الحزن . ثم اخرج سكيناً واوقعها قلبها . اندفع اولاد الخان عندئذ الى الرجل الغريب في صرخة ضارية ، لكن الخان حال دونهم قائلا :

ـ لقد دفع من اجلها ثمناً غالياً ، وهي ملكه الآن . ردوا اليه سلاحه وجمله .

انحنى الغريب للخان باكبار ، وسرعان ما اختفى جمله الابيض وراء الأفق .. »

• • •

كانت السحب تتسارع في السماء تسوقها ريح شديدة . وبدت الجبال

عابسة كئيبة . شعر اوسولتسف ان حنجرته تضيق كأنها تحـاول ان تكبت مايجيش في صدره من انفعالات .

خلع الرجل ملابسه وحذاءه وربط مطرقة الى يده ..

ومرت بضع ساعات . وتجاوز عالم التربة في هذه المرة المكان الذي عاد منه في المحاولة الأولى . وهاهو ذا يقف على علو مئة وخمسين متراً ، وقد انحنى على منحدر صخري عمودي ، وهو يرتعش من الاجهاد . وادرك اوسولتسف انه لايستطيع ان يرفع يده عن الصخرة ثانية واحدة . وبدا له الوضع يائساً ، ودب في اعماقه القنوط . لكنه فكر في تلك اللحظة : « ولكن كيف تمكن المحارب الاسطوري من ذلك ؟ بالريح !.. اجل لقد صعد المحارب في يوم عاصف كهذا .. » . وفجأة خطا اوسولتسف خطوة جانبية ، ونقل جسمه عبر النتوء ، وهو يغرز اصابعه في الجدار الناعم .. ومال الى الخلف . في تلك اللحظة دفعته موجة ريح في ظهره دفعاً ليناً . كانت الريح خلف النتوء شديدة عاصفة . وشعر اوسولتسف انه يستطيع بمساندة الريح ان يتحرك صعداً . وارتقى خمسين متراً اخرى . كان عالم التربة ينقل قدميه المخضبتين بالدماء ببطء ، ويتابع صعوده . وادهشه انه لم يسقط مع كل هذا . لقد زلت قدمه غير مرة ، وتعلق بيديه طويلاً حتى خطر له انه ودع الحياة . وفي النهاية بذل جهداً يائساً اخيراً ، وتمسك بحافة المنبسط عند قدم القرن ، وجر نفسه بيديه ثم ارتمى على السطح المنبسط . واضطجع زمناً وقد انهكه الصراع الطويل ، يسمع عويل الريح الرتيب .. لاشيء غيره . ثم نهض على ركبتيه والتفت بوجهه نحو القرن الأبيض الغامض . لقد اضحى الآن امامه ، يستطيع ان يلمسه بيده ويقتطع منه ماشاء له من عينات . ولكن تكفيه نظرة واحدة حتى يرى في الصخر الابيض مادة القصدير ؛ وهي الهدف الرئيسي لصعوده .

نظر عالم التربة الى الاسفل . كان الجبل ينحدر انحداراً شديداً . وبدا له انه قد انقطع كل مابينه وبين العالم السفلي من اتصال . بيد أن اوسولتسف دفع عنه هذه الأفكار السوداء وراح يقوم بواجب عالم التربة . وتحت ضربات مطرقته تطايرت بجلجلة قطع كبيرة من الصخر الأبيض، فتابع سقوطها بانتباه ، ثم لاحظ مكانها على المخطط المرسوم في دفتره .

فتح عالم التربة الصفحة الاولى من كراسه وكتب عليها بصورة عرضية وبخط كبير واضح : « انتبه ! هنـــا معلومات عن منجم القرن الابيض الذي اكتشفته بنفسي » .

ووضع الكراس في جيبه، ثم فك عنه الحبل . كان الحبل قصيراً، ولكنه يجب ان يكون كافياً للانحدار على قاعدة القرن العمودية .

ولكن اين يشت الحبل ؟

وبدأ عالم التربة يضرب بالمطرقة على الارض بحثاً عن شق . وفجأة اصطدمت المطرقة بجسم معدني ، غير ان هذا الصوت الصامت اذهله . ثم لم يلبث ان اخرج من الارض سيفاً طويلا ثقيلا تلمع قبضته الذهبية بشدة . تجمد اوسولتسف عندئذ في مكانه مذهولاً .

لقد وقف المحارب المنتصر على القرن الابيض في الاسطورة الشعبية امامه حياً . فهزه ظل الماضي ، كما هزه الشعور بالخلود الابدي لمأثرة الانسان .

شعر عالم التربة بقوى جديدة تسري في بدنه كأن صديقاً عزيزاً، على هذه القمة التي امتنعت على كل انسان ، يهزه ويلتفت اليه بكلمات التأييد . ورفع السيف بحذر وربطه الى ظهره ربطاً مكيناً، ووضع مطرقته على ذلك المنبسط وهو يبتسم .

وقف عالم التربة عند حافة المنبسط ومرت من امامه مباشرة سحابة تطاردها الريح . امتلأ اوسولتسف ثقة بقوته ، فأعطى صدره للريح ونشر يـــديه على

اتباعهما ، وراح يهبط المنحدر مسرعاً، محافظاً على توازنه بمساعدة الريح وحدها. لكن الريح همدت فجأة، فبدأ صراع يائس من جديد. وراح اوسولتسف ينزلق على المنحدر تارة ، يتمسك ويلتفت ، ثم ينحدر من جديد . وانزلق .. ولم يعد يستطيع ان يذكر ابداً نهاية هبوطه من القرن الابيض. لم يبق في ذاكرته سوى اللحظة الاخيرة فحسب ، حين مال خائر القوى مجهداً الى الخلف . وقد ارخى يديه الممزقتين .. وهوى الى اسفل ..

سال الماء البارد على جبينه ودخل في فمه . عب اوسولتسف الماء عباً دون ان يشفي غله . وعندما فتح عينيه رأى فوق رأسه قبة السماء الزرقاء ، ووجه الدليل العجوز وقد ارتسم عليه الخوف . نهض عالم التربة على ركبتيه ، فابتعد عنه العجوز خائفاً .

ــ مم انت خائف يا ارسلان ؟ انا حي .

سأله ارسلان :

ــ اين كنت ايها الرئيس ؟

اشار اوسولتسف بيده الى السماء ، وقال :

ــ هناك ! حيث يتربع القرن الأبيض . إليك .. انظر !

واخرج اوسولتسف للدليل السيف ذا المقبض الذهبي . ركع العجوز على ركبتيه ، لكنه لم يلمس السيف بيده .

عاد عالم التربة يقول :

ــ مابك ؟ خذ ، انظر !

قال ارسلان وهو يهز برأسه :

ــ لا . لايستطيع احد ان يأخذ هذا السيف الا بطل مثلك ...

في سوق النخاسة

شعر علي كنعان



-١-

بلادي ـ تقول الحكايا ـ !
مراتع حبٍّ ، بيادر خيرٍ ،
ثرى كل طيب .
فياحرة من بلادي : (ضريح الأديب !)
لماذا تجوعين ؟ قولي .. لماذا ؟
وثدياك ، ثدياك نبعا حليب !

* * *

إذا ضاق صبري
بثلج الدروب ،
بشوك الدروب ،
بنار الدروب

سأرفو حذائي بأبيات شعري
فلن يجعل الله طيّ السماوات قبري
إذا مت يوماً بغير ذنوب

- ٢ -

كأغنية في ليالي الحصيده
يرددها عاشقان
سعيدٌ أنا ، يارفاق الحروف
ففي عتمة القلب رؤيا وليده
ونسرينة غضة الأرجوان
حنون الرفيف ..
فأمس اشتريت رغيفاً ، رغيف
لقاء قصيده !

- ٣ -

وأمشي مع النسغ أنساب حتى الجذور
فتزهر حولي رفوف الغبار
وتخضل حتى عروق الصخور
فيهوي جدار .. ويعلو جدار
ويرتاح قصري على كتف دجله
كأندى مظله
كأسطورة من رؤى ألف ليله
ينام عليها خيال الصغار

وفي ردهة القصر صُفّت جراري
تعبئها من كروم الشآم
مئات الجواري !
فمن ألف عام دفين .. وعام
أنا كنت شيخ الديوك
هنا .. كنت فحل الكلاب الضواري !
بحرفٍ أتوّج هام الملوك
بحرفٍ أخلّي قواهم حطام .
كتبت أغانيّ يوماً على
عمودي رخام
وبعتها الخليفه
كما باع طفلٌ السماء بهوذا
وكنت حريصاً على المترفات الحوام
وأخنق في داخلي صوت بوذا
وشعبي يحز العروق ليجني رغيفه
وكانت حروفي ، من الليف ، حبلاً طويلاً
يشد على عنق الشعب نير الخليفه !

— ٤ —

حزينٌ أنا ، ياضحايا الحروف
ويا أنبياء الليالي الشريده
حزين أنا ..

كصفصافة في سفوح الخريف
تسيل مع الدم فيها سموم الضنى
وتقتصُّ منها الرياح البليده
حزين ، حزين أنا
فأمس اشتريت رغيف
لقاء قصيده ..
لقاء ربيع من الدم أحرقته في قصيده !
.. ولكن تقيأته ، يارفاقي
وعاد الرصيف
يلوك ويدمي خطاي الوئيده



اغنية في الطريق

شعر محمد القيسي
— الكويت

« الى الأحباب ، الذين يقيمون هناك ، خلف الأسوار ، في الأرض المحتلة »



احبابنا ،
هل يبسم الزمان مرة لنا ؟!
وهل يعود حبنا
يعانق الحياة ، يسكب المنى
في غور أعماقنا ؟
أحبابنا
هل يفرح المعذبون في متاهة الضياع ؟!
وهل نظل نمضغ السؤال
ونذرع الطريق في ابتهال

وفي المسير نحو موعد تزفه لنا الصدف؟
ان كان يا أحبابنا الجواب ان نظل سائرين
ياويلنا
ياويل اعمارنا
من طول ما نسير
في دربنا المغبّر الحزين
في ليلنا الطويل دونما سنا .

* * *

الله يا أحبابنا
يابؤسنا ،
وياأحتراق الشوق في أهدابنا
ترى يطول بيننا البعاد ؟
ترى تظل هذه الاسوار بيننا
تحيل حلمنا رماد
تمزق الفؤاد ؟!

* * *

احبابنا وانتمو هناك في البعيد
فوق احتمال الوعد واللقاء
وفوق ان يضمنا مكان
نعيش رغم قسوة الجدار
نعيش في انتظار

بشارة بوعد
بكلمة تضم في حروفها الحنان

* * *

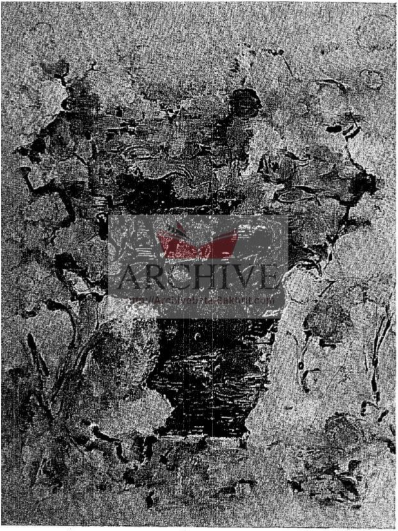
احبابنا سيضحك الزمان
رغم امتداد السور بيننا
فرعشة الحياة في الفؤاد
خفاقة المنى
تمدنا ببسمة الأمل
تنير دربنا

نوبار صباغ

اللوحة (تكوين)

ألوان نوبار في لوحته « تكوين » هي أميز ظاهرة في فنه . ألوانه تعتمد على الاحساس العفوي، وهو يرسم باللون ويعتمد عليه اكثر من اعتماده على الخط .

اللمسة اللونية مزيج من مجموعة درجات من مشتقات اللون الواحد نفسه . وهو يؤلف من هذه الألوان علاقات تشكيلية ذات وحدة عضوية .



الفنان نوبار صباغ　　　　تكوين　　　　



الفنون



الكتاب والموضوعات

• الفن والمجتمع الحديث
للدكتور عفيف بهنسي

الفن والمجتمع الحديث

للدكتور عفيف بهنسي

السؤال الذي نحاول الاجابة عليه في هذا المقال ، يقع في هذه الجملة القصيرة : ماهو مدى الدور الذي يلعبه الفن في المجتمع الحديث . وثمة اسئلة كثيرة قد تتفرع عن هذا السؤال الاول ، وسنترك لها المجال كي تبرز اثناء خوضنا تفاصيل الموضوع العام .

على انه لا بد اولاً من طرح مشكلة تعريف الفن لتسهيل تحديد علاقته بالمجتمع .

لقد امتلأت كتب الفن والفلسفة بتعريفات وافرة ، وهي ذات معان متقاربة احياناً ومتقابلة احياناً اخرى . فالفن لذة عند النفعيين ، وهو

حدس وفعل عند النفسانيين، وهو لعب عند المحللين. وبصورة عامة، هو وسيلة الانسان الى الجمال وبالعكس. او هو نوع من الفرح المشخص والمتوتر، ينشأ عند الكشف عن سر من اسرار الحياة. ويعني هذا القول ان محاولة الكشف هذه التي تبتدىء في ابراز الجمالية الدفينة في الطبيعة، ومساعدة الآخرين في التعرف عليها، تحمل في ذاتها ظاهرتين، الظاهرة الاولى، تأملية يشترك فيها المنتج والمتذوق في وقت معاً. فالمنتج لا يستطيع التعبير عن احاسيسه بالجمال إلا بعد المرور بحالة انفعالية خاصة، هي اشبه بالانجذاب او الوجد. وهي حالة التأمل المحض القريب من التأمل الصوفي.

وفيما يتعلق بالمتذوق، فان عملية التأمل تستمد شدتها وعمقها من قوة انفعال المنتج المنعكسة في العمل الفني ذاته.

والظاهرة الثانية هي (الفعل). وهو العمل والانتاج الفني عند الفنان. ولكن ماهو العمل بالنسبة للمتذوق. إنه مجرد رد فعل ومن الواضح ان رد الفعل هذا، عندما يكون منسجماً مع طبيعة العمل الفني، تكون عملية التذوق في اعلى درجات نضجها وقوتها. كما يكون العمل الفني في اصدق حالات استجابته للحالة الانفعالية المنتجة.

ويمكننا ان نستخلص من هذا التعريف ما يلي:

اولاً — أن الفن نوع من الفرح، والفرح كما يعرفه علماء النفس هو الحالة العاطفية والوجدانية الايجابية. وهو رد فعل وموقف ازاء عمل خارجي او سبب، ولذلك فهو انفعال، ولكنه انفعال ايجابي اذ انه جواب لمؤثر معين.

ثانياً — ان حالة التوتر التي ترافق الفرح الفني هي الشرط الاساسي الذي يجعل هذا الفرح ابداعياً وليس فرحاً عادياً. والواقع ان الفنان عندما يتأثر بمشهد

أو موضوع ما ، فان تأثره ليس تأثراً هيجانياً طائشاً بل هو اهتزاز عميق يصل الى اعماق اللاشعور . انه اهتزاز عفوي بعيد عن التحكم الارادي .

والفرق بين الفنان المبدع والناقل مثلا يفسر اهمية التوتر التي تعطي عمل المبدع قيمته الفنية العالية ، فنحن لانستطيع ان نعطي عملا عاديا نفس القيمة ، لانه لايصدر من اعماق النفس وبمعنى آخر لايعبر عن حالة وجدانية خاصة ، صادقة وعميقة .

ثالثاً — ان هذا الفرح المتوتر يأتي نتيجة عملية كشف ، وهنا يمكن ان نعالج آراء كروتشه في اعتبار الفن مجرد حدوس . و كروتشه لايفرق بين الحدس والرؤيا والتأمل والتخيل . وهو بهذا يستنكر كون الفن واقعة مادية ، كما يدعي الماديون ، بل يرى ان الظاهرات المادية، كالالوان ، والنسب والمقاييس ، غير واقعية بل هي نسبية ، ويستنكر ايضاً ان يكون الفن فعلا نفعياً ، فليس من المحتم ان يورث الجمال لذة خاصة بل ثمة عوامل اخرى تدعو الى اللذة والألم منفصلة عن الجمال نفسه .

والانكار الثالث الذي يبديه كروتشه كون الفن فعلا اخلاقياً ، فالفن لديه فعل نظري متعارض مع كل انواع التأثير العملي ، ولانه فعل غير ارادي فمن الصعب انطباق الميزة الاخلاقية عليه .

والانكار الاخير ان يكون الفن معرفة مفهومية ، اذ ان الفن يتضمن اختلاطاً بين الواقع واللاواقع بينما تعتمد المعرفة العقلية على الواقع المحض .

ونحن لانعني هنا بعملية الكشف غير مايعنيه الحدس ، ولكن الفرق ان الكشف يتضمن عملا بينما يقوم الحدس على التخيل الحسي المجرد الذي قد لايرافقه فعل ومما لاشك فيه اننا لانعني مطلقاً بالكشف درجة من درجات التصوف التي

يعيشها المؤمن بعيداً عن الواقع والحقيقة كي تنقله الى حالة الوجد الصرف كما يرى افلوطين وروسكان . بل نعني به نفس المعنى الذي جاء به برغسون وكروتشه وشيار ، الذي لايبتعد عن التأمل والتصور الا من حيث كونه تأملا منفعلا وفاعلا بنفس الوقت .

والشيء الجديد في هذا التعريف ، ان الكشف فيه ذو موضوع ، وليس كشفاً مجرداً ، فالحياة في حقيقتها معنى غامض ، ولعل مهمة الفنان ابعدمن مهمة الفيلسوف ، عندمايحاول ويستطيع التعبير عن اسرار هذه الحياة بنفس الصيغ الممكنة لذلك والمتطابقة مع السر بذاته ، في حين يضطر الفيلسوف الى استعمال عبارات المنطق والحكم واليقين ، وبهذا يتجاوز الحقيقة اذ يجعلها منجزة ومسامة . لذلك فإن عملية الكشف التي يقوم بها الفنان تبقى في طور المعرفة الحدسية وقلما تصل الى حدود المعرفة اليقينية الا اذا كان عمل الفنان نقلياً وتطبيقياً .

ومن هنا جاء تفريق العلم عن الفن ، فموضوع العلم هو الواقع ، ولقدمضى زمن طويل كان الفن فيه تحت سلطان هذا الواقع فلم يخرج عن دوره التطبيقي . ولكنه اليوم عاد فاسترجع مفهومه القديم وتركز فيه ، ويدل ذلك على مدى التطور الذي اصاب اتجاهاته اليوم ، وكان ذلك نتيجة تطور المجتمع هذا التطور المفاجيء الذي يصعب تحديده .

والحق أن تعريف المجتمع الحديث قد يكون مستحيلا ، ذلك ان المجتمع يتبع في تحديده مستوى معيناً من المفاهيم والمعارف والعلاقات ، وعلى هذا فان تعريف المجتمع الرعوي او المجتمع الزراعي والصناعي والتجاري يمكن ان يكون من اسهل الأمور ، ولكننا اليوم قد لانستطيع ان نطلق تسمية معينة على المجتمع الحديث الا بما يساعدنا على اعتباره مجتمع الاكتشاف العلمي ، فالعالم كله مسرح

مباراة كبرى للكشف العلمي . وفي كل يوم تفاجأ المجتمعات بكشف جديد وبمدلول جديد للحياة لم يكن قد سبقت معرفته .

ومن حسن الحظ ان نعيش في هذا العصر ، عصر القلق الايجابي والصراع مع المجهول والسر ، ومن حسن الحظ اننا نحن ابناء هذا الجيل الأخير نعيش حياة اذا ماقيست في اهميتها بحياة الملايين من الأجيال السابقة فانها تبقى متفوقة واكثر روعة وأعلى حضارة ، ومن الأفضل ان نتذكر المراحل التي مرت فيها الحقبة الأخيرة من التاريخ ، فلقد اكتشف الانسان البخار واكتشف المحرك الانفجاري ثم اكتشف قوة الكهرباء ، قفزات رائعة وانقلابات مفاجئة ، اعقبها اكتشاف قوة الذرة والصواريخ الصاعدة الى قبة السماء ،حدث هذا كله في أقل من قرن بينما مضت آلاف القرون دون ان تترك لنا أكثر من معرفة النار والدولاب . ان هذه المقارنة تبين لنا خصوبة هذا المجتمع الحديث الانفجارية التي يصعب معها متابعة حدود مجتمع من المجتمعات المتقدمة ، هنا تتجلى لنا بعض الاواصر القائمة بين الفن والمجتمع ، ولا تعني هذه الاواصر تبعية الواحد للآخر ، ولكن تعني التلاحم ، **فالفن ظاهرة بعيدة المدى تعبر عن حقيقة المرحلة التي يعيشها مجتمع من المجتمعات** . ففي المرحلة البدائية ، حيث كانت المفاهيم والمكتسبات جزئية ومحصورة كان الفن البدائي الذي خدم القيم المعاشة والغيبية في هذه المجتمعات . وفي المجتمعات المزدهرة كان الفن مظهراً من مظاهر الزها والترف . وفي المجتمعات الدينية ساهم الفن في تجميل العلاقة بين الأرض والسماء ، وفي العصور الرومانتية عبر الفن عن النزعات الفردية بكثير من البهاء .

ويمكننا قبل ان نتابع هذا التطور ان نلاحظ امرين ، الاول ان الفن كان يقف دائماً الى جانب الوسائل الاجتماعية العالمة ، ولم يكن ليخدم اغراضاً

فردية سطحية . ويرجع ذلك الى طبيعته كعمل ابداعي ، والامر الثاني هو ان الفن كان الظاهرة المعبرة عن حقيقة مجتمع من المجتمعات ، في مشاكله وازماته وعاداته ومفاهيمه .

وعندما نحاول ان نتدرج في متابعة تطور الفن التشكيلي بصورة خاصة ، فاننا نرى ثمة ظاهرات اساسية مشت جنباً الى جنب مع تطور المجتمعات ، فعدا التطور العلمي الذي هز جميع المفاهيم وفتح الباب واسعاً امام اكتشافات لاحصر ولا حد لها ، هناك التطور الذهني . ففي مجال الفكر سارت الفلسفات المعاصرة على نفس المنحى الصاعد الذي سار عليه تقدم المجتمع ، فلقد تغلغلت فلسفة نيتشه وشلنغ وكير كغارد واشبنغلر وبرغسون وماركس وهوسرل وسارتر في اعماق ازمة الانسان في العصر الحديث ، واعطت نتائج لم تنحصر فقط في مجال النظريات بل خرجت لكي تصبح قوانين للحياة احياناً ، ولكي تكون مبرراً سلوكياً وتفسيراً حضارياً لمجتمع من المجتمعات ، احياناً اخرى . كما دخلت نتائج التحليل النفسي التي جاء بها فرويد وأدلر إلى كثير من مناحي البحث والتطبيق ، واصبحت لفترة طويلة ، علاجات جاهزة لكثير من الأمراض الفردية والاجتماعية ، كما اصبحت وسيلة للتعبير الشعري والفني عند كثيرين .

ولنعترف أن الفلسفة أدت فعلاً واجبها في التعريف بالمجتمع الحديث تعريفاً داخلياً ، اي انها انبثقت في نظرياتها من اعماق المشاكل التي يعيشها المجتمع الحديث ، ولكن ماذا قدم الفن ؟ . وهل جارى الفلسفة في التعبير عن مشاكل المجتمع ؟

لسنا في معرض التمييز بين الفن والفلسفة ، ولكن لابد من التذكير بأن وسائل الفلسفة تبقى مختلفة كل الاختلاف عن وسائل الفن . فالكلمة كثيراً

ماعجزت عن مساعدة الفيلسوف على التعبير عن افكاره، ومهما اضيفت الى المعاجم من كلمات جديدة مبتكرة فان ذلك لايضيف شيئاً يذكر الى ما اتفق الناس على تداوله لتبادل الافكار . ولكن الفن يبقى ابعد شمولاً ، واوسع دلالة ، إذ أن رموزه تتسع الى مالا يحصى من الأفكار والأخيلة والصور . فعنــدما مر الفن بالمراحل الاجتماعية الاخيرة لم يقصر مطلقاً عن التعبير عنها بكثير من الدقة ، فحيث يتضح قلق المجتمع المنبعث عن الشعور بضرورة كشف مغلق الحياة ، فان الفن يستطيع ان يتجاوب الى اقصى حد مع هذا الشعور ، ويستطيع أيضاً ان يعبر عن مرحلة الكشف هذه بوضوح .

وباعتقادنا ان الفن يسير خطوة خطوة في سراديب الحياة مع محاولات الكشف عن المجهول ، فكلما تعمقنا في اسرار المجهول ، بدا الفن اكثر تمشياً مع مرحلة التجريد التي توصل اليها العقل المتحضر .

وهذا مايفسر لنا تطور الاتجاهات الفنية . فليس من قبيل النزوع الشخصي ان ظهرت الانطباعية عند مونيه ورونوار وسيسلي ومانيه وبيسارو في فرنسا بل لم يكن أتفاقهم بمجرد تقليد ، وانما كان ذلك تعبيراً عن ظاهرة ثقافية واجتماعية متقاربة عكست ضرورة اجتماعية بدت في فرنسا كما بدت في هولندا والمانيا ثم تفشت في جميع انحاء العالم الغربي ، واصبحت نقطة انطلاق الى مدارس اكثر بعداً عن الواقع واقرب الى التجريد ، وكانت اختلاف أشكالها واساليبها يتبع دائماً اختلاف الظروف الاجتماعية في مناخها الذي تعيش فيــه . وهكذا كانت الوحشية عند ماتيس ودوفي وفان دونغن وفلامنك ، وليدة تلك النسائم الغربية التي هبت على فرنسا من الشرق . وكانت التعبيرية في المانيا وريثة الروح المتأزمة المتأسية العميقة في الروح الألمانية ، والتي بدت على شكل قلق يبحث عن التفجر .

وبقيت هذه المدارس ضمن حدودها الاجتماعية القومية ، اما التجريدية فلعلها اوضح مثال للتعبير عن المجتمع الحديث .

وقد لايكون كاندينسكي الروسي وديلوناي الفرنسي وموندريان الهولندي وميرو الاسباني ومانيللي الايطالي وهارتونغ الالماني وبول كلي السويسري وبوللوك الامريكي متفقين جميعاً في الاشكال التجريدية التي عبروا عنها للدلالة على انفعالاتهم المحضة ، ولكن ماهو صحيح الى حد بعيد أن وحدة العالم الغربي التي نتجت عن تقدم وسائل الاحتكاك والتقارب ووسائل الحضارة ، قد قاربت الشبه بين المجتمعات ، واصبح القلق مسيطراً على اكبر جزء من اجزاء العالم الاوربي والامريكي ، لأنه يعاني مشكلة الكشف والاختراع .

وعندما انتقل التفكير من الجزء الى الكل ومن المشخص الى المطلق ومن المحسوس الى الغامض ومن المعلوم الى المجهول ، كان تيار الجمال اسبق في هذا الانتقال ، وكان الفن اكثر براعة في الوصول الى اعماق المعاني والتعبير عنها بوسائله ، ولم يعد هدف الفن نقل الاشيــاء المألوفة ، بل نقل المراحل التي وصلت اليها حضارة التفكير والعلم بكثير من الفرح والجمال .

ولقد استند الى وسائله الخاصة ، الى الالوان والخطوط والاشكال المجردة وادرك انه الى جــانب مايمكن ان تعطيه الخطوط من معان في حالة تركيبها تركيباً امتثالياً معيناً ، فان الالوان اقدر على اعطاء معان ومفاهيم مطلقة صالحة لكل مكان ولكل مجتمع للتعبير عن حالته الراهنة التي يعيشها اليوم . ولقد ابرز الفن المعاصر اهميــة اللون بشكل خاص لأنه لايقتصر على التعبير عن قيم جمالية بل يتضمن التعبير عن قيم اساسية تحتاج في حسابها الى مقاييس خاصة ، ولعلها هي المقاييس الاصلية التي اغفلها الفن القديم .

فلقد اصبح للون كثافة خاصة وثقل نوعي خاص لايمكن حسابه بأرقام، ولكن يمكن احساسه بدرجات دقيقة. ودرجة كثافة اللون قد تعبر عن اللين والقسوة وقد تعبر عن الضعف او القوة وقد تعبر عن الحب والكراهية، كل ذلك عندما تتداخل الذرات اللونية بنسب لايمكن تحديدها بشكل علمي، ولكن يمكن طرحها بعفوية فنية فتعطي تلك الصفات المطلقة. وللون مسافة لايمكن ان تقاس بالمقاييس المربعة، فثمة بقعة صفراء هي اكبر من مربع داكن كبير، ومقدرة الفنان تتجلى في حسن ادراكه لنسب هذه المساحات اللونية الخاصة. كذلك تحمل الالوان في ذاتها معان خاصة، فالاصفر لون الحقد والكراهية، والأحمر لون الثورة والهيجان والأخضر لون الهدوء والازرق لون السمو والامتداد والبنفسجي لون العقم والعطالة والوردي لون البساطة والسذاجة وهكذا. بل لقد استعار اشبنغلر الالوان للدلالة على الحضارات فالاصفر والاحمر لون المجتمع المتخلف المتوحش، بينما يعتبر الازرق والاخضر لون المجتمعات ذات المسؤولية والحضارة واللون الذهبي هو لون الحضارة العربية، لون يرفع الانسان من الارض الى الجنة الموعودة.

وعندما ندقق في لوحة ما، قد نلاحظ عند تحديد التوازن وعدمه، ان للألوان ثقلاً خاصاً، والواقع ان اللون الاحمر اثقل من الاخضر وهذا اكثر وزناً من الاصفر.

يتبين لنا مما ذكرنا ان دراسة اللون لم تعد امراً بسيطاً، اذ لابد من إحكام التوازن في المساحات والاوزان، لاستكمال العمل من الناحية الفنية. ولابد من ربط معاني الالوان بالخطوط والحجوم والكثافة لاعطاء المقصود من المعنى والافكار. وبهذا المعنى كان الفن الحديث اوفر قدرة على التعبير عن

الاحاسيس القلقة غير المحدودة ، وعن الافكار والاخيلة التي لايمكن تشخيصها . وحيث افتقد الكاتب اسباب التعبير المكثف عن أفكاره وأخيلته ،وجد المصور الفنان أسباب التعبير في الوانه وحجومه كاسبق ان وجدها الموسيقي في ألحانه . فلقد وجد الفنان نفسه مضطراً لاستعارة ماهية جديدة ومنطلقات جديدة من عالم الموسيقى تحرر بها من مفاهيم الفن التليدة القبلية ،لكي يصل الى حدود التعبير المطلق .



تحرص المجلة على التعريف بنتـــاج الفكر العربي الجديد بصورة خاصة ، ونتاج الفكر العالمي بصورة عامة . ويسعدها أن تتقبل شاكرة الكتب الجديدة التي تصدرها دور النشر العربية والأجنبية ، أو التي يبعث بها الينا مؤلفوها ، ليصار الى دراستها وعرضها في حقول المجلة .

• • •

— المقالات التي ترد الى المجلة ، لا تعاد الى اصحابها ، نشرت أو لم تنشر .

• • •

— ترجو المجلة من الكتاب الذين يبعثون اليها بمقالاتهم وبحوثهم ، أن تكون هذه مكتوبة بخط واضح جداً (والأفضل أن تكون مطبوعة على الآلة الكاتبة) وأن تتضمن اسم كاتبها الحقيقي كاملاً ، وعنوانه واسمه الأدبي الذي يرغب في أن ينشر مع مقاله .

• • •

— ترجو ادارة المجلة من مشتركيها ومن أصدقائها الذين ترسل اليهم المجلة هدية ، أن يعلموها كتابياً عن كل تبديل يطرأ على عناوينهم .

مقابلات المعرفة

مع الشاعر الايطالي سلفاتوري كوازيمودو

من الدكتور جون فياني

ترجمة الدكتور عادل عبد الله

في المكتبة العربية

التراجيديا البطولية في شعر العزاوي

لعزيز السيد جاسم

- بيادر الجوع .. وتربة التجارب

لماجد صالح السامرائي

- سر انحلال الأمة العربية

فنون

معرض في بيروت .. ومعرض في دمشق

تقديم غازي الخالدي

مسرح

حول مسرحية العنب الحامض

لسامي عطفة

في المجلات العربية

عام ونصف مع مدير مكتب جامعة الدول العربية في الأرجنتين

لظافر جمال الدين عبد الواحد

اخبار ثقافية

تأبين التنوخي

جولة الشهر

معضلات التطور في البلاد النامية

لأديب اللجمي

مع الشاعر الايطالي سلفاتوري كوازيمودو Salvatore Quasimodo

من الدكتور جون فياني – ايطاليا – ميلانو
ترجمها عن الانكليزية الدكتور [illegible]



من اكبر شعراء العقد الماضي ت. س. إليـــوت T.S. Eliot وروبرت فروست Robert Frost وسلفـاتوري كوازيمودو. ففي عام ١٩٥٩ منح كوازيمودو جائزة نوبل للآداب «لشعره الغنائي» ؛ وذلك الاعتراف بأن شعره يتضمن «حساً كلاسيكيــاً يعبر عن تجربة المأساة في الحياة في عصرنا» ساعد على نشر اعماله الى مناطق كان قد عرف بها قليلا حتى ذلك الوقت.

زرت البروفسور كوازيمودو في بيته في ميلانو للدردشة ، فلقد فكرت في ان اجعله يحدثني شيئاً عن نفسه واعماله لاضافة ذلك الى المعلومات القليلة المعروفة عنه والتي كانت عبارة عن نتف جمعت مع بعضها أثناء جمع ديوان المؤلفاته في لغات اجنبية .

بدأت اسأله وهو مسترخ تماماً في بيته مع ابنته اوريتا Orietta – وهي مدرسة اللغة الانكليزية – **عن ايامه الاولى وعن الكتاب والاعمال الذين كان لهم تأثير على حياته** ، فأجاب بما يلي :

« لقد ولدت في مديتشي (Medice) التابعة لراغوسا (Ragusa) في صقلية سنة ١٩٠١ وتلقيت تعليمي الاول في صقلية حتى سن العشرين ، وبما انني كنت مهتما بالهندسة ذهبت الى روما لمتابعة دراسات عليا في مدرسة البوليتكنيك . ولقد درست هناك الهندسة والطبيعيات بالاضافة الى اللاتينية واليونانية . وبعد انتهاء دراستي عدت الى صقلية لفترة ثم عملت كمهندس مدني في عدد من الاماكن امثال كلابريا (Calabria) وليغوريي (Liguirie) وسردينية (Sardinia) ولمباردي (Lombardy) حتى عام ١٩٣٨ . وبين عام ١٩٣٨ وعام ١٩٤٠ عملت كمساعد محرر جريدة (Tempo) وبعد ذلك اصبحت استاذ تاريخ الادب الايطالي في معهد فردي الموسيقي Giuseppe Verdi Conservatory في ميلانو »

وعندما سئل عن **المؤلفين والمؤلفات الذين أثروا به في شبابه** اجاب كوازيمودو قائلاً : « اعتقد بانه يجب ان اقول بان من بينهم القديس اغسطين (Saint Augustine) وسبينوزا (Spinoza) وديكارت (Descartes) والشاعر الايطالي ليوباردي (Leopardi) » .

ويقال بان كوازيمودو كان قد انضم الى الحزب الشيوعي لمدة ثلاثة اشهر فقط بعد الحرب العالمية الثانية . وقد سألته عن **آرائه السياسية** فأجاب :

« انني لا انتمي الى اي حزب سياسي ولكنني يساري بكل تأكيد ،

وداع للسلام بطبعي . انني ضد الحروب بانواعها وقد قاومت موسوليني والفاشيين بكل شدة كلما سنحت لي الفرصة . فمثلاً تبين قصيدتاي وعنوانها « يوم بعد يوم » (Giorno dopo Giorno) و « ميلانو في آب ١٩٤٣ » (Milano, Auguste 1943) قوة رد الفعل عندي ضد الحروب التي لا معنى لها :

يوم بعد يوم

يوم بعد يوم : ايتها الكلمات اللعينة والدم والذهب
إنني اعرفك ياوحوش الارض
فانت شبهي . لقد تساقطت الشفقة بعد عضة منك
كما وان الصليب اللطيف قد تركنا
لم أعد استطيع العودة الى فردوسي .
سنقيم القبور قرب البحر وعلى الحقول الممزقة ،
ولكن لن نقيم قبراً واحداً من قبور الابطال
لقد لعب الموت معنا المرة تلو الاخرى
ففي الهواء يسمع حفيف الاوراق الرتيب
كصوت دجاج ماء المستنقعات يتصاعد في سحابة
من ارض البور الشائكة بشجر الخلبخ عند هبوب رياح السموم

* * *

وهذه قصيدة اخرى عنوانها :

ميلانو ، آب ١٩٤٣

أيتها اليد المسكينة انك تفتشين عبثاً في التراب

في التراب فالمدينة قد ماتت .
لقد ماتت
وسمع آخر طنين في قلب النافيغليو (Naviglio)
كما تساقط العندليب عن سارية العلم في أعلى الدير
حيث غنى موة قبل غروب الشمس .
لا تحفو اي بئو في ساحات البيوت
فلقد فقد الاحياء عطشهم .
اتركهم في تراب بيوتهم
فالمدينة ميتة ، ميتة .

هاتان القصيدتان من النوع الثاني من الشعر الذي نظمه كوازيمودو منـذ الحرب العالمية الثانية ، فلقـد كان قبل ذلك احد زعماء المدرسة المغلقة (Hermetic) في الشعر وهي مدرسة ترتكز جذورها بين الشعراء الفرنسيين الرمزيين (Symbolists). ومن بين شعراء مدرسة الشعر المغلقة هـذه نجد يوجينيو مونتال (Eugenio Montale) وجيوسيب اونغارتي (Giuseppe Ungaretti) .

اخذت المدرسة المغلقة — او كما تعرف في إيطاليا باسم ارمتزمو (Ermetismo) — من الرمزيين الفرنسيين موقفهم التجريبي نحو الصيغة الشعرية والنظرية القائلة بان الكلمات يجب ان تستعمل ارتبـاطات لا شعورية من الشعور والفكر وذلك بربطها بترتيبات غير متوقعة .

قـد يكون من الضروري ان نخرج عن الموضوع قليلا لنعطي القراء فكرة مختصرة عن الرمزيين الفرنسيين وذلك لنتذوق مؤلفات شعراء المدرسة المغلقة . اطلق سم الرمزيين ، على مجموعة من الكتاب الفرنسيين في العقد التاسع من القرن التاسع عشر الذين قادوا الحركة من اجل نوع جديد من الشعر . كانت ثورة ضد الواقعية المطلقـة

(Naturalism) لكونها معينة وثابتة ، وضد البرناسية (١) (Parnassianism) لكونها محددة المعالم اكثر مما يجب لارضاء العقول الفنية التي اخــذت من إدغار ألن بو (A. E. Poe) وبودلير (Baudelaire) وغيرهما « الشعور بما يفوق الوصف » وكانوا يفتشون عن وسيلة التعبير .

لم يكن هدفهم الخطابة او الوصف او النقل الحرفي بل هدفوا الى الإيحاء : هدفوا الى التعبير عن لوينات التجربة . وقد انضم فيرلين (Verlaine) الى الحلقــة واعطاها شعاراً : « لا لون بل لوينـــات » . ومن بين أساتذة مدرسة الشعر هذه نجد « رمبو » (Rimbod) وكوربيير (Corbière) وابرزهم جميعاً ملارمي (Mallarmé) الذي زود الرمزيين بنظريتهم الجمالية وأكثر انماط اساليب الأوزان كمالاً .

ولقد سمي هذا النوع من الشعر مغلقاً ، (وهو كما اشرنا سابقـــاً له جذوره بين الرمزيين الفرنسيين) لأن معاني الكلمات محكمة الاغلاق ولان الشاعر يهدف الى عزل نفسه برمزية تهكمية لاهوادة فيها تعبر عن نظرته البائسة عن الحياة .

والشعر «المغلق» شعر يميل الى الايحاء اكثر مما يميل الى الوضوح القاطع ، وهو يهتم بالنغمات العاطفية المحيطة بالاشياء اكثر مما يهتم بالاشياء نفسها ويؤكد كيانه على وجود ما هو غامض لا سبيل للعلم او العقل اليه ، وطرائقه الفنية انما هي كشف لهذا . وهو قلما يقدم معنى حرفياً وسطحياً بل يعتمد على الايحاء والاشارة والتضمين . ولقد كانت نقطة البداية بالنسبة لمدرسة الشعر « المغلق » هي النقطة التي توقف فيها التمثيل والمجاز والرمز التقليديين . ولقــد كان ييتس (Yeats) وباوند (Pound) واليوت (Eliot) بين أولئك الشعراء الذين قضوا بعض الوقت يجربون الشعر « المغلق » .

والكثير من شعر كوازيمودو وخاصة منــذ عام ١٩٣٠ حتى بداية الحرب العالمية الثانية مغلق ، أو من نوع « الشعر الصافي » الذي يوحي بالصورة ، ولكن هذا الشاعر ذو الفصاحة الكبرى سجل تقدماً فنياً واعطى حيوية ومعنى جديداً لما كان يعتبر بالياً . فلقد طور أسلوبه الشخصي بموسيقاه الساحرة مضيفاً بذلك دفئاً إنسانياً وشعوراً بالقوة الخفية لآمال ومخاوف الانسان المتوارثة ، اضاف ذلك الى « مهارة مبتكراته الفنية والجافة والمدبرة » .

ولقد ظهرت قصائده الاولى في المجلة الطليعية سولاريا (Solaria) : «لقد نشرت قصائدي الاولى في مجلة «سولاريا» ، والواقــع انني بدأت كتابة

---

(١) وهي الحركة التي قادها (كزافيه دو ريكارد Xavier de Ricard) وغيره ممن تبنوا شعار مدرسة « الفن من اجل الفن » واهتموا اهتماماً خاصاً بالشكل وهدفوا الى بعض الموضوعية .

الشعر في الثانية عشرة » . هذا ما قاله كوازيمودو . « وفي عام ١٩٢٩ كتبت قصيدة (المـــاء واليابسة Acque & Terre) وهي تعالج موضوع الانسان ضمن الطبيعة ، ثم تابعت كتابة قصائد اخرى عديدة » .

سؤال : كم مؤلفاً نشرت حتى الآن ؟

جواب : حوالي ٣٧ . في القريب العاجل ستقوم مؤسسة موندارتي (Mondatti) — وهم ناشرون ايطاليون — بنشر جميع اعمالي في مجلد واحد كبير. ولقد ترجمت مؤلفاتي حتى الآن في ٣٩ بلداً ، وكلها قصائد ومقالات.

سؤال : هل نالت مؤلفاتك ماتستحق ؟

جواب : لقد منحت عدداً من الجوائز كانت اولاها جائزة فاورنسا المسماة (Atice Fattore) عام ١٩٣٣ ، ثم جائزة ميلانو واسمها (San Babila) عام ١٩٥٠ وفي عام ١٩٥٣ منحت الجائزة الدولية للشعر (International Prize for Poetry) مع ديلان توماس (Dylan Thomas) والمسماة جائزة اتنا ترمينا الدولية (Etna - Taormina) وفي عام ١٩٥٩ منحت جائزة فيارغجيو (Viareggio Prize) وفي عام ١٩٥٩ منحت جائزة نوبل وفي عام ١٩٦١ جائزة روما المسماة ترمرغانا (Ter Margana) عن جميع اعمالي .

سؤال : هل لك ان تحدثنا عن ارتباطاتك بالجامعات والمؤسسات ؟

جواب : لقد كنت عضواً مع « ت . س . إليوت » في اكاديمية الآداب والعلوم في بوسطن ، اما الآن وبعد وفاة إليوت بقيت العضو الوحيد . ثم هنالك عضوية اكاديمية برلين واكاديمية العلوم السياسية الدولية في جنيف ثم الاكاديمية الايطالية لعلم الحياة والفنون ، ومؤسسة الاغذية والزراعة التابعة لهيئة الامم المتحدة ، كما وانني عضو مؤسس لجمعية « سلام هوي » (Peace of Huy) مع عشرة

من الحائزين على جائزة نوبل بما فيهم الأب دومنيك بير (Father Dominique Pire) والبرت شويتزر (Albert Schweitzer) .

سؤال : ماهو وضعكم في معهد فردي للموسيقى في ميلانو ؟

جواب : استاذ تاريخ الادب الايطالي في المعهد .

سؤال : هل تكتب شيئاً آخر بالاضافة الى الشعر ؟

جواب : نعم ، مقالات ومؤلفات للمسرح الغنائي امثال «بلباد من ملفل» (Bilbad from Melvill) موسيقى مايسترو غديني (Maestro Ghedini) وحب جلاتية (L'amore di Gellatia) الموسيقى لمايسترو لزي (Maestro Lizzi)

سؤال : كيف تلخص فلسفتك ؟

جواب : ربما تلخصها قصيدتي التي عنوانها « وفجأة حل المساء » (Ed è Subite Sera) وهي قصيدة تعالج وحدة الانسان .

كل انسان وحيد على قلب الارض
يتخلله شعاع شمس
وفجأة يحل المساء

القصيدة عميقة في معناها ومعقدة الا انها مع ذلك بسيطة ولو أنها تبدو متناقضة في ظاهرها ، فيها ألم حقيقي . وفي ثلاثة ابيات استطاع كوازيمودو أن يتلمس بعمق تجارب الانسان ومشاعره العميقة .

سؤال : عن أي شيء تكتب عادة ؟

جواب : عن الحب والطبيعة والحروب والكرامة الانسانية ولاانسانية الانسان ومطامح البشر الفانين الخ ... ولكن ليس كمواضيع عامة بل كتجارب شخصية شعرت بها بدقة .

سؤال : ماهو رأيك بالشعر والفنانين الآخرين ؟

جواب : بالنسبة للكتاب الايطاليين : انني اعتقد بانهم في ازمة أدبية . عددهم قليل وحتى هؤلاء لايزالون يجربون الرمزية القرنسية . بعضهـم متأثر بالاتجاهـات الانكلو سكسونية وبعضهم مهتم بعلم تطوير المعـاني .. إلى غير ذلك . لقد قرأت مؤلفات فولكنر (Faulkner) وهمنغوي (Hemingway) وفورستر (Forster) وقد أحببتهم . اما اليوت فانني اقول مع الاسف بانني ما احببته قط ، واعني بذلك مؤلفاته وليس شخصه . ان اعماله ارتباك للروح الطبيعية . إزرا باوند (Ezra Pound) صديق حميم لي وقـد بدأ بنظم الشعر الرومانطيقي ولكنه الآن شاعر عصري حقيقي ذو اسلوب خاص به . هنالك اهرنبرغ (Ehrenburg) ثم شولوخوف (Sholokhov) والشاب يفتوشنكو (Yetuveshenko) وجميعهم اصدقاء حميمون و كتاب ممتازون . لقـد كتب يفتوشنكو اربعين بيتاً عني ، انني اعرف جميع الكتاب الروس تقريباً لانني قضيت سبعة اشهر في الاتحاد السوفيتي للعلاج الطبي .

* * *

علي هنا ان إتوقف قليلا لاوضح النقطة التي اثارها كوازيمودو بالنسبة للشاعر ت . س . إليوت . ليس من الضروري في جميع الحالات ان يفهم شاعر كبير شاعراً كبيراً آخر . وهناك اسباب وجيهـة لذلك إذ من المؤكد ان (إليوت) شاعر بارز ككوازيمودو ، وقد تأثر بالكتاب الفرنسيين الرمزيين شأنه في ذلك شأن كوازيمودو . وربما كانت محاولة إليوت التوفيق بين تناقضاته : تقليديته المتشفة ، وكلاسيكيته الرومانطيقية ، ولاشخصيته التي تتصف بقوة الشخصية ، هي التي جعلته موضع نقاش فكان هنالك من يحبه ومن لايحبه .

* * *

كوازيمودو : لقد أحببت بستوناك (Pasternak) كشاعر وليس كاتب ثم هنالك نيقولاس جيلين (Nicels Geillen) - يوجد رجلان بهذا الاسم من كوبا واسبانيا وكلاهما شاعر ممتاز - ، ثم هنالك الكاتب والشاعر إيم سيزير (Aime Cesaire) . لقد قابلته هو وزوجته عام ١٩٥٠ . ثم هنالك بيكاسو (Picasso) وهو صديق قديم ، بالاضافة الى عدد من الفنانين الايطاليين ، كما ويوجد عدة كتاب في فرنسا وبريطانيا وغيرهما من البلدان ممن اعجب بهم وكلهم أصدقاء عزيزون ومناقشة أعمالهم الآن تحتاج الى وقت طويل .

سؤال : لقد ترجمت قصائد غنائية يونانية ومؤلفات لشكسبير ومؤلفات لاتينية كما اعلم وهذه تجمع بين تذوق المؤلف الأصلي بالاضافة الى التذوق والتحسس العصري .

جواب : نعم ، لقد فعلت ذلك .

سؤال : لابد أن تكون طلقاً في عدد من اللغات

جواب : حسناً ، اللغات التي يمكنك القول بأني أعرفها جيداً وبالتساوي هي اليونانية واللاتينية والفرنسية . أما معرفتي بالانكليزية والاسبانية فهي أقل طلاقة .

سؤال : هل زرت الشرق الأوسط ؟

جواب : لسوء الحظ لا . آمل أن أتمكن من الذهاب الى هناك في يوم من الأيام .

* * *

المؤلفات التالية تعتبر بين أكثر أعمال الشاعر الرقيق شهرة : « الريح في تنداري » (Vento a Tindari) «والأرض التي لا تقارن» (La Terra Impareggiabile) و« رسالة الى أمي » (Lettera della Madre) و « الشتاء القديم » (Antice Inverno) و « تقليد البهجة » (Imitazione della Gioia) . وكلها نضرة ورومانطيقية ومثيرة . معظم قصائده على كل حال عن إيطاليا وخاصة صقلية موطنه .

التراجيديا البطولية في شعر العزاوي

نقد ديوان لن تراني الضفاف شعرمثنى العزاوي .
جمع جليل العطية وحميد سعيد — ٨٠ص–مطبعة البصرى – بغداد .

بقلم عزيز السيد جاسم
— العراق — الناصرية

الشعر عند (ورد سورث) عاطفة تستذكر في هدوء ، وفي هذا الاستذكار تبدو العاطفة كصورة ناطقة تماماً كما أشار لذلك (سيموندس) ، وبين أن تكون القصيدةباورةللمشاعر التي تسوق الانسان في طريقه واساوبه الخاص،او ان تكون هروباً وفراراً من المشاعر والدوامة (حسب تفكير اليوت) لا بد ان يميز الشاعر طابع خاص يمنحه الأصالةوالتفرد، وهذا الطابع هو محاولة الشاعر الدائمة لمعانقة المطلق المتمثل بالوجود ككل وبالقيم وبالانسان وبالتطلع الجريء الى ما وراء الأفق . والشاعر (مثنى) قدم في قصائده شيئاً عميقاً يتجذر في التقاء بطوليمأساوي صامد تتحرك فيه الكلمات بامتداد موسق تتصاعد نغميته وتهبط بتواز مشدود مع ارهاصات الروح وتوثباتها ور كودها . لقد قدم وبصدق نزيفاً او بالاحرى استطاع ان ينسف نفسه في عملية اعلان لا مفر منه ، اراد ان يقدمه كفداء يتكرر في ثنايا قصائده ثم ختمه بالتجربة الاخيرة حيث كان

النسف نهائياً وكأنه أراد ان يقول (ها أنذا انسف امامكم نفسي مختاراً لتعلموا عمق التضحية واعراس الكلمات) . ونحن متأكدون من شاعرية العزاوي لذا فالذي يهمنا هو ترسم المعاني التي يحفل بها شعره، والبطولة تبدو تياراً عنيفاً بروميثياً يرتفع بصداح العزاوي وأناشيده وبشكل يمتلك الروي بتعادل تضامني يهب المعاني اخصابا وثراء بعيداً عن حمى المراهقـــة الحمقاء والخادعة . والمشاعر البطولية لا تتأكد ابداً في استعراضات هرقلية زائفة بل في مواجهة أمينة شريفـــة للقيم ، او بمعنى آخر في امتحان لا بد منـه للحرية امام الرعب ، لذا بدت (المعاناة) كأحساس اصيل وتجـــدد تمتزج فيه كل التفاعلات والانعكاسات والاستجابات النفسية في علاقاتها مع المحيط .لقد حدد الشاعر عالمه، وهذا هو بالضبط ما يعني نقطة البـدء او الركيزة التي منها تسمى الاشياء ، انـه لم يلق نفسـه ابداً وبسرعة غبية في قبول ورضى تام لما هو موجود وهـذا ما ابعده بمسافات جد بعيدة عن التقليدية والاجترار والرضوخ والاستسلامية الذليلة . وهذا التساؤل هو المدخـل ، لقد تساءل عن العالم ليصل الى جواب ما ومن الجواب تظهر هوية الشاعر جليـة لا غبار عليها ، لقد كان العالم مزدحماً بكل ما يثـــير القرف والاشمئزاز ، ومن هنا كانت اللحظة مرعبة مخيفة ، انها (الصدمة) التي شحنت اعماق العزاوي بالرفض (اي عمر يطيقـــه الشاعر الملهم في عالم من الأوجاع ؟) ، وهذا الرفض ليس رفضاً برجوازياً غاضباً يبعده الحنق عن التبصر والادراك والمناقشة بل هو رفض ايجابي ابتدأ منذ الشوط الاول بتشبع تحسس المأساة لا كملامسة خارجية بـل بتداخل لا حواجز فيـــه ، (دع رياح الأسى تسوق شراعي ـ يا صديقي وألف الف وداع)، لكن رياح الأسى هذه لا تسوق امعة او جباناً او غريراً او مأخوذاً بـل انها رحلة لا بد منها يعرف فيها الشاعر أبعاد المأساة ، والمأساوي الذي لا تخنقه

مأساته هو وحده الذي يكون قادراً على تقديم شيء ايجابي ، وعندما يردد الشاعر « يا صديقي الحميم عد عُدْ الى النـــاس ودعني وشقوتي والشاعي » ، انمـا يؤكد الرمز الصلد في اعماقه ، فربما كان الصديق تنويهاً لا بد منه يفصح عن الجانب الآخر والمهم ، وهنا يبدو الجـــانبان بوضوح منكشف ، الجانب الذي يشير الى (الناس) والجانب الذي يشير الى العزلة والوحدة أمـــام الألم . ومن الجانبين كانت تهب رياح الشاعر لتتحول في شكل قصيدة طقساً !

فلم تكن المعاناة عنـــد (مثنى) استخـــداء وامتلاء مراً بأحاسيس اللاجدوى ، بل كان الطابع البطولي يغير كل حداء حزين بادخاله ضمن سلسلة الاختيار البطولي الصامد ، فابتدأت البطولة عندما تكلم الشاعر عن نفسه (لو قطعونا قطعة قطعة — حبيبتي — لن يقتلوا حبنا) ، كان في ذلك متحدياً لا على طريقة البوذيين بل على طريقـــة (سبارتاكوس) ، ان اعداء الحب لن يستطيعوا أبداً خنق الكروان ، وأعداء الحرية أعجز من أن يحتكروا التأريخ ، وكذا تتبلور البطولة في (المعاناة القومية) — (ولم تزل قريتنا هناك — غافية حالمة الأهداب — ترسمها ريشة فنان — يعيش في مضارب اليباب ! — مهجورة .. ولم يعد يمر في دروبها الغجر — حزينة ، لم تشعل النار بها — ولا تفتحت ابوابها — لقادم جديد) وهذا التصوير الرائع للقرية الفلسطينية هو البيت الجرح ، وفي قضية فلسطين لا نحمل هنا بالعار بطريقة احتفالية أو دعائية تتمغنط بسياسة عاجزة ، بل نرى الشاعر وكأنه ينظر برصاده الى القرية المهجورة والدروب المقفرة التي تنتظر أهلها ، وهذا القادم الجديد لم يقدمه لنا الشاعر بتطبيل وحماس أجوف ، بل غلق الباب ، والنار علامة الحي غير موجودة ، والقادم لم يأت ، ولكنه بذلك استطاع أن يقول لنا الحقيقة ، فالقادم الجديد لابد آت !

والبطولة احتدام صارخ ، وسندبادية لاتتخذل ، لذا ينفض الشاعر عن نفسه الدموع وينكر الاحساس الحزين الذي ينهشه من حين لحين ويتمرد على الجنائزية السوداء ، (موطني لن أدر بعد دموعاً — لن أناغيه في شجى وولوع .) وهـذا الموطن العربي ليس عزيزاً فحسب بل مقدساً ، والذي لايقدس وطنه ليس الا رعديداً أو موتوراً أو أناناً محتالاً ، ترى لماذا ؟ (موطني ، العز لم يزل في ثراه — عبق من محمد ويسوع ! — ترتمي الشمس في مساهه سكرى وتغني مع الربى والربوع) والشاعر قد لايجد حرجاً في أن يتكلم عن يأسه وأساه وحزنه ، ولكن ذلك محرم أمام الطفل العربي ، حتى لاينشأ معتاداً على عبارات الرضوخ للمهانة والانحطاط ، فيشب عليها . اذن كانت بطولة العزاوي حقيقية ، وحقيقتها لم تأت إلا من مصدر الادراك الواثق لطبيعة القوى الاجتماعية وزيف المجتمع حيث ينغل التفاوت الطبقي في كيانه (متعب يشقى ويلقى واحد — خير مايملأ اعطاف البلاد) ؛ أو من تشخيص لطبيعة الحكومات التي لاترتبط بالأهداف الأساسية للشعب : (كل من قام على العرش طغى) ، ذلك كله جعل من العزاوي انساناً بمستوى عصره ، كان عصرياً ، ولم يغلق نفسه في اطار محدود ، بل تكلم عن القرية والوطن والطفل والقومية العربية دون أن ينسى (الانسانية) . وانتصار العربي هو انتصار للانسان في كل مكان . وعند النضال يجعل الشاعر من كل تلك التضحيات طريقاً لانتصار الانسان : (ان أباه عاش نفيه من أجل أن ينتصر الانسان) .

كل ذلك كان محاولة جادة مخلصة اختارها الشاعر لمعانقة الصحو ولتحدي الضباب والظلمة ولكنه اخطأ عندما شد الصحو الى الاستحالة ، لقد افعم بالدراما المأساوية بشكل تأوه فيه وكأن الانسانية لم تزل مغلوبة على امرها (أيها الصحو الجميل ، ياسجيناً في قيود المستحيل آه لو كنت حقيقة !) ، ان العالم العربي يتمرد

على التحجر والجمود والانظمـــة النتنة والعبودية. وان أفقه المنير ينادي الجماهير الى عالم مشروع لا غدر فيه ولا دناءة ولا استغلال ولا اغتصاب. ولكن (العزاوي) انطوى على نفسه، حين كانت الظروف السياسية مسرحاً لمشاحنات وبغضاء، وكان هو يريد ويطمح ويرى القوى غير مهيأة لشيء. وهو جمالي بكاؤه غناء (أنا إن ابك اغني)، وكذا يحب بقوة لا توصف.

(يامن وهبتك احلامي وأحلاتي —
وعشت في شاطىء الاوهام انتظر)،

لذا فليس غريباً ان تتفاعل كل تلك العوامل لتؤثر على مزاج الشاعر بشكل عجيب قاس، عالم يمتلىء بالخطيئة، ورفض عنيف لهذا العالم، وجمالية تشده الى هذا العالم وحب يحاول ان يدس الضعف والمساومة والتساهل في تضاعيف الثورية! ذلك كله كان في اعماق العزاوي، وكان الامر شاقاً!

إن (الثورية) — كخط بياني سار عليه الشاعر — تشربت برومانسية صادقة غير متقطعة، فظهر القلق والحزن والجفاف والشكوى واليأس والأسى، وهــذه الصفات تظل لاصقة بالثورية بحيث تؤثر عليها احياناً، ولكنها تزول في طريق واحد هو طريق (الحركات الثورية الجماعية الموحدة) كحركة (الفيتكونغ) مثلاً وحركات الثورات المستمرة في اندلاعها واحتدامها، وهــذه الحركات لم تظهر في العالم العربي الا في اماكن معينة وفي فترة زمنية معينة تعوزها التجربة والنظرية وعدم التكامل ولو انهـا تأخذ بالتطور والعلمية ضمن مراحل تجريبية وصراعية عديدة. ان الثوري احياناً يكون مكبلاً بقيود عديدة اهمها (طبيعة العمل الثوري المتأخر) والذي ليس بمستوى تبديل الواقع، واحياناً عدم وجود آصرة قوية توحد الثوريين فيعمل كل في جهـة، واحياناً الانشطار البين بين النظرية والعمل، اضافة لعوامل اخرى عديدة اجتماعية وسيكولوجية، فتشوب الثورية نغمة

مأساوية لا يمكن اخفاؤها ، وهذا كله اثر على العزاوي الذي تجيش في اعماقه مشاعر عديدة قاسية لاهبة ، فلا عجب أن علت صيحة حزن جريحة من حنجرته : (الصبح مات ، هل تدركين ، وشيعته الامنيات كالراحلين ، وانا هنا من ألف عام ، رهن الظلام) . او (امسي كيومي بائس وغدي محال) او (انا شمعة صفراء) او (حتى دجانا بلا نجم ولاقمر ، ياليل طلت أما للصبح من اثر) ، لقد كان للسجن ظل كئيب رسم ملامحه على شعر الشاعر ، وفي السجن تهيج الاحزان وتمتد الكآبة عند اولئك الذين في اعماقهم عناصر للتوحد والعزلة فيحسون و كأن العالم ضدهم قد اقفل ابوابه بوجههم ، ولكن الحزن لايودي بالشاعر كما أودى بالفنان (فان كوخ) الذي تكلم عن (الشقاء الذي لن ينتهي ابداً) لان الشاعر اجاب مرة اخرى وارادف: (ان الصبح بالاثر) . ومع انه احس بخطورة السجن حيث يقول : (وانا هنا أمتص أذوي مثل اكمام الورود) ، لكنه مع ذلك كان يعشق فجره وفي داخله تشوق ولهفة وانتظار . وجبان تعيس ذاك الذي لا يتحرق شوقاً لفجره ، هذا سر بطولة الشاعر . كملحمة تمثل التراجيديا البطولية الرائعة ، وبهذا التلاحم وبهذا الاندفاع لابد من نهاية لكل ذلك . ويدرك الشاعر الخاتمة - لا كما تنبأ (شيلي) بنهايته المفجعة ، بل كما يتنبأ جندي المعركة اذ يستوي في عينيه الحياة والموت - ولم يعد يرى سوى مايملأ ذهنه واعماقه . وكما اختار الشاعر آراءه وتطلعاته وطريقه كذلك اختار ميتته : (ان أحلى ميتة أختارها - ميتة المقدام في يوم الجلاد) ، (لانبالي الممات في طلب الخلد ولانثني وراء البريق !)

لقد كان الشاعر يحمل روح الفدائي في شعره ، فجاء شعره قصيد شاعر لاحماس متشاعر .

وداع

فيما يلي تنشر (المعرفة) قصيدة (وداع) وهي القصيدة التي يفتتح بها

ديوان الشاعر الشهيد مثنى حمدان العزاوي (١٩٣٨ - ١٩٦٣) وتتضمن اسم الديوان (لن تراني الضفاف):

دع رياح الاسى تسوق شراعي
ياصديقي وألف ألف وداع
لن تراني الضفــاف ثانية لن
تلتقي بي فقد عشقت ضياعي
في البعيد البعيـد ألف وجود
غير هذا وألـف حقـل وراع
ألف ليل كأنه سجوة الحز
ن يلف الدنى بألف قنــاع

* * *

أنا أحــلى سر يطوف ويمضي
خلف رؤيا الزمان خلف السماع
أي عين يطيقه الشاعـر المل . .
. . ـهم في عـالم من الأوجـاع ؟
عــالم واطىء السماء غريق الـ . .
. . ـروح في لجـــة من الاطماع
أي نجم سقيتـه ضوء عيني
ما تهاوى ممزقاً للقــاع ؟ !
ياصديقي الحميم عـد عـد إلى النا
س ودعني وشقوتي والتيــاعي

* * *

لم يعد بعد في ما يذكر الأمـ . .
. . س فقد مات خافقي واندفاعي
لم يعـد لي إلا رمــاد خيالي
وانخذال الرؤى وراء انفجاعي
أنا أحيــا مع المقادير وحدي
بثبــاتي ، بهمتي ، بانصياعي
ليس لي مأمل ، فأي رجاء ؟
أي حلم لمن يريد اتبــاعي ؟
ليس لي مأمل دفنت طموحي
في صقيع الأسى وقصرت باعي
أنا أحلى سر يطوف ويفنى
خلف هذا الوجود هذا الصراع
صاح قد حان أن نودع بعضاً
حان للشمل موعـد الانصداع
لحظـــة البين لن ترق لجفن
راعف الدمـع أو لقلب مراع
عد إلى الآخرين أنت ودعني
لسجو الامواج للانقطــاع
في البعيد البعيــد ألف وجود
يتراءى مـلوحـــاً لشراعي !
عد إليهم فلن تطيق اصطحابي !
أنا مــاض ، فألف ألف وداع

« بيادر الجوع » .. وتربة التجارب

حول ديوان خليل حاوي

بقلم ماجد صالح السامرائي
ـ العراق ـ سامراء

خليل حاوي .. علامة بارزة في الشعر الحديث .. صوت خالص يتعلق بأجواء عالم غير محدود الأفق .. موسيقى صافية تُشبع جوع أذواقنا الملهفة لنغمة تسكب رحيق الصدق فيها بدفء وحنان .. ايماض جديد في ليل مشبع بالتجارب التي تشكو الكهولة . استطاع ان يقدم خلال مرحلته الشعرية ـ التي مداها دواوينه الثلاثة ـ شعراً يثبت أقدامه على ارض صلبة من التجارب ، هي عطاء معاناة حضارية وانسانية ونفسية ، يشكل امتدادها خطاً تصاعدياً واضحاً في طبيعة هذه التجارب ، وتبايناً في مستوياتها ، واختلافاً في اتجاهها من مرحلة الى اخرى . .

تربة تجارب « بيادر الجوع » ، تربة استخلص منها الشاعر عناصر الحيوية التي قذفت بحرارة في روح الانسان ، ليعايش ازمة واقعه الراعش باختلاجاته الممتلىء بصدى الرعب .. ولتحس ابعاد هذا الواقع برهافة يكتبها من خلال رحلته في دهاليز وجوده المغلقة . .

التربة التي نعيش عليها تتعدد صور

مرئياتها في اذهاننا المكدودة . . تلقي ظلها المتعب على نفوسنا اللاهثة في قيظ الحياة الذي يتخمنا حتى الأسنان .. رئاتنا المثقوبة تتنفس الهواء ممزوجاً بروائح الاسفلت الذي ينضح على نفوسنا غباراً ورمادياً .. نزيحه من خاطرنا النائم في هدأة الأحاسيس وصخب التجارب ؛ لنلقيه في جسد عبارة تاصفنا لحظات العذاب والتجلي معاً .

في لحظات الجنون العظيم تثقب العيون حواجز الرؤية ؛ وتخترق الحجب القاتمة ، لتتشي في استغراق حزين مع افكار تعيش في جمجمة لم تدمر صفاءها قلقلة الحديد . نلقي جمجمتنا بهيكلها المنخور على اسفلت شارع قائظ لتدوخ في زحمة العابرين ، وتتمطى تحت أرجل المارة .. ونكتب . . نكتب الشعر ذا الرؤيا البعيدة والمعنى الخالص الذي لن نفهمه مالم نذب عبير دمه في ارواحنا . نختلط به .. نتفاعل معه .

خليل حاوي . . شاعر يبحث عن المعجزة في عصره .. الا ان عصره اضحى بلا معجزات . . فلا غرابة ان نرى « الاندهاش » سمة بارزة في شعره الاخير ؛ الذي هو تساؤل مرير يلقيه على وجه واقعنا الانساني .

و « المعرفة » عند خليل حاوي تأتي كإنقاذ لصورة الانسان من عبثية الزمن التي تحاول ان تقتل « اللحظة » في الروح .. انها طريق صوب رؤيا يتفتح وجهها المكتظ في كل ارض يستمد الانسان نسغ ديمومته من ضوعها ..

تواجهنا قصيدة « الكهف » منذ البداية بفلسفة خاصة يحققها الشاعر عن طريق الاندماج الحار بروح اللحظة التي يعايشها ويعانق رؤياه في جوها .. والكهف ليس الا رمزاً لعزلة الانسان الحزينة . . صلاة يشوبها التأمل الذي يفضي اليه الفكر من خلال مغاليق الوعي التي تفضها ابتهالات الصفاء .. كما ان الكهف رمز للماضي بكل خيوطه التي ينشرها الافق .. افقنا الحزين المكتئب .

ان نظرية « المعرفة » كثيراً ماتبدو في شعر خليل بشكل استسلام فلسفي عميق ، يترقب النتائج من خلال الجو الذي تفضي اليه رؤياه . ليواجه مصيره بتساؤل يجذّ الحزن من روح الانسان . —

« .. ويدي تبيع وتنطوي في الرمل ،
ريح الرمل تنخرها ،
وتصفر في العروق ،
ويحزّ في جسدي وما يدميه
سكين عتيقٌ ،
لو كان لي عصبٌ يثورْ
رباه كيف تحطّ أرجلها الدقائقُ
كيف تجمدُ ، تستحيل الى عصورْ » ..

لكنّ « كيمياء التحوّل » تفعل فعلها في الزمن ؛ والارادة ؛ وفي الحياة وخط سيرها ... و « ضربة الساحر » هي الأخرى تغيّر مجرى الأشياء ، وتبدل صورتها !! : —

« النار تزهر ملء موقدتي
وتثمرُ ، والربيعْ
يحبو ويفرش غرفتي
غبّ الصقيع
والشمس تأوي من ضباب القطبِ
أدفئها ، وتقضي مطمئنّةْ
إني بغيبتها أحوّل الجمرة الخضرا
وأخصبُ أرضنا من غير منّة » ..

ان حاوي حين يعمد الى تجسيد معنى من معانيه ؛ لا يسلك المباشرة سبيلاً للافصاح عن الرؤيا التي تملأ ذاته .. انه يدع العبارة ، التي هي عنده دلالة كبيرة ، تفصح عن هذا المعنى وتجسّد الملامح ...

فالجفاف الذي يجتاح حياتنا ، والوثنية التي ورثناها عن فلسفة « القبول » ، والعزلة الحزينة التي عشناها عن انفسنا دون التحديق بعيداً .. حتى اصبحنا « كهفاً » معتماً يلقي الزمن فيه صوته الدهري .. فلم تنبت في ارض تجاربنا سوى العقم ، ولم نرث من الزمن غير الهزيل البالي من الأمور ... وهنا تأتي إرادة الرفض في الانسان الذي يندمج بروح العالم الحضاري .. متحداً ذاته التي كانت غارقة في خضم الاوهام ..

فتكون « النار » وسيلة تطهير يفترضها الشاعر منذ بداية الرفض ، لتزيل دثار الكهولة والهرم عن وجه الحيــــاة ؛ كي تواجهنا بأصالتها ، وتُدفّق نبعها الاصيل في جسد اليباب ، لتُجري الاخضرار في عروقه .

الرفض والمعرفة عند خليل حاوي صنوان .. يلتزم احـــدهما الآخر ، ويتجسدان عبر مواقف رؤياه الكبيرة .. فيجعلانه يحصد ما في ابعاد الهوة .. يستحصل ما ينام في اعماقها .. ان رؤياه تبلغ الاعماق في مداها .. تنتشل الصيحة المشنوقة التي ينام ظلها في خيالنا المؤرّق .. وهـــذا ماتحاول الكشف عنه قصيدة « العــازر عام ١٩٦٢ » .. انها تساؤل رهيب يطرحه الانسان في مشارف الحزن الذي يرقـد في ضمير الحقيقة حين يواجهها الانسان ؛ او تواجهه من خلال عذاب الذات .

انها سلسلة متعاقبة الحلقـــات من المواقف .. قد نلتقي بصورة فيها تجسد الحذر النائم في اعماق الانسان .. الحذر الذي يغتال فيه قوة الفعل ؛ ويطعن الحركة : —

« عمّق الحفرة ياحفار ،
عمّقها لقاع لا قرار
يرتمي خلف مدار الشمس ،
ليلاً من رماد
وبقايا نجمة مدفونة خلف المدار
لا صدى يرشح من دوامة الحمّى
ومن دولاب نار » ..

كما تواجهنا هذه القصيدة بفهم عميق للموت ، يستوحي الشاعر مدلوله من « تموز » الاسطورة .. من خلال الموت يحقق انتصار الحياة ؛ ويعود مع الربيع ، يعيد للحياة وجهها النقي الذي ربما تكون فقدت صورته مع الايام ..

الموت هو الميـــلاد .. هو الخصب والنماء .. هو البعث .. هذا ما يجسّد الشاعر معناه في تعبير يستولي عليه ذهول الرؤيا .. حين تردّد زوجة « العـازر » عند عودته من غربة الموت :—

« عاد لي من غربة الموت الحبيب ،
زنده من بيلسان جول خصري
زنده يزرع نبض الوردة
الحمرا بعمري
بعد أن ومّد في ليل الحداد
من يظنّ الموت محواً
خلته يحصي على البيدر
غلاّت الحصاد
ويرى وجه حبيبي
وحبيبي كيف عاد » ...

« مَن يظن الموت محواً خلته يحصي على البيدر غلاّت الحصاد » إن ذلك هو المعنى الكبير ، والمدلول الضخم الذي يستخلصه الشاعر من ثروة الأساطير لديه ...

وفي شعر خليل العديد من الصور التي تستلب منّا نظرة إنبهار لا تتكسف .. تتجلى فيها الحيوية الدافقة ، وتتحسس الامور تحسساً يحمل من البهات مايضخم مدى الرؤيا في رؤوسنا ، ويشبع جوع إحساسنا .. يطفئ لهفة الظامأ في نفوسنا الباحثة عن الاصيل الذي يعكس صورتها ، ويجسّم ملامح معاناتها في الوجود ..

« هل كنت في ليل المدينة
غير أعياد البيادر في الحصاد
تفاحة الوعر الخصيب ، وهبتُ
من جسدي ، دمي ،
خمراً وزاد » ..

* * *

كل تفسير في الشعر يقتل صوت الابداع فيه .. لذا آثرت أن الج عالم ديوان خليل حاوي هذا متذوقاً ؛ لا دارساً ..

سر انحلال الأمة العربية ووهن المسلمين[1]

للمرحوم محمد سعيد العرفي
عرض وتلخيص حامد حسن

قيض الله للأمة الاسلامية في مختلف عهودها وعصورها ، وفي حالتي تقدمها وتقهقرها ، وجذرها ومدها ، قادة مخلصين ، وذادة منافحين ، يتفانون في الذياد عن مقدساتها ، ويضحون بالنفس والنفيس في سبيل تأدية رسالتها ، واعـــلاء كلمتها ، واعزاز شأنها والحفاظ على كيانها ، ودفع غوائل اعدائها عنها .

رجالا آمنوا بصدق الرسالة الاسلامية ، وسموّها ، وقدسيتها ، وانها رسالة الانسانية فرداً ، واسرة ، ومجتمعاً .

(رجالا صدقوا ماعاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، ومابدلوا تبديلا .)

عرفنا من هؤلاء الرجال في العصور المتأخرة المصلحين الكبيرين جمـــال الدين الافغـــاني ، محمد عبـــده ، اللذين نفضا عن الامة الاسلامية غبار عصور الانحطاط ، ودفعا بها في طريق التطور بخطوات حكيمة ثابتة ، متزنة . واثبتا ان الشريعة الاسلامية كافلة لمصالح الفرد والجماعة ، وضامنة لسعادة البشرية

(١) الطبعة الاولى سنة ١٩٣٢ – الطبعة الثانية سنة ١٩٦٦ دمشق – مطبعة عبدالله الملاح –

بما تضمنته من مرونة في التشريع، ومن القواعد العامة للانسانية والمجتمعات، واسس العدالة والرحمة والمساواة، لاتتعارض مع التطور والانظمة الحضارية الصحيحة، بل هي خير رافد يمد التطور، واعذب معين تنهل منه الحضارة.

وعرفنا من هؤلاء الرجال في العصور الأخيرة العلامة المرحوم محمد سعيد العرفي، الذي امضى عمره منافحاً عن هذه الأمة، ومجاهداً في سبيلها خطيباً، وكاتباً، ومدرساً، ونائباً، ومفتياً ومسؤولا.

يعتبر هذا العلامة من كبار رجالات العرب والاسلام في العصور الحديثة، ومن اكثرهم عملا، واكبرهم جرأة في الحق، واوفرهم حماسة في الدفاع عن العرب والمسلمين. تشهد بذلك مواقفه في المؤتمرات العربية والاسلامية والقومية والوطنية التي عقدت في العديد من البلاد العربية في مطلع النهضة الحديثة.

كان – رحمه الله – عضواً في المجلس الاسلامي الاعلى، فرئيساً له، فعضواً في البرلمان العالمي المنعقد في القاهرة عام ١٩٣٨، وعضواً في البرلمان السوري، والمجمع العلمي العربي في دمشق، ومفتياً لمنطقة الفرات، ومدرساً دينياً، وخطيباً بليغاً، وكاتباً مجيداً، واضح العبارة، متين اللغة جريء الفكرة، صادق المقاصد، تمتاز افكاره وكتاباته بالتحليل العلمي والمنطقي، ودراسة الاسباب المباشرة. له عديد من المؤلفات، والدراسات التاريخية، والاجتماعية، والاسلامية، ومنها كتابه القيم «سر انحلال الامة العربية، ووهن المسلمين» الذي اعيد طبعه مؤخراً.

يعرض المؤلف في هذا الكتاب التاريخ العربي الاسلامي، منذ عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب حتى العصر الحاضر، عرضاً علمياً متناسقاً مترابطاً متسلسلا، موجزاً، فتخرج من هذا الكتاب الموجز، وقد تزودت من المعلومات بما لم تزودك به المطولات من الكتب والمراجع.

اذا درست هذا الكتاب وضعت يدك على مكامن الداء الذي اوهن عزيمة المسلمين ، وعلمت ان العناصر الدخيلة والشعوبية الحاقدة هي وراء أكثر النكبات والنكسات التي تعرض لها العرب والاسلام .

من هو ابو لؤلؤة ؟ كيف ادخله المغيرة — والي الكوفة — الى المدينة بحجة انه حداد ، ونجار ، ودهان ، ونقاش ؟ وماذا كانت النتيجة ؟

كيف انذر كعب الاحبار — وهو يهودي — الخليفة عمر بن الخطاب بدنو اجله ، وحدد له الزمن بثلاثة ايام ؟ وقد قتله ابو لؤلؤة في اليوم الثالث .

هل كان كعب الأحبار يعلم الغيب؟ كلا !! أم كان على صلة وعلم بالمؤامرة المدبرة لضرب الاسلام في مهده !

ما السر في الثورة على الخليفة الثالث ومقتله ؟ ومن المحرض على ذلك ؟

لماذا تآمر ثلاثة من الخوارج على قتل رجالات المسلمين الثلاثة في الاقطار الثلاثة البعيدة ؟ فقتل علي بن ابي طالب ، وجرح معاوية في الشام ، وسلم عمرو ابن العاص في مصر !!

من ادخل البدع والطرق الصوفية والانحرافات والخرافات على الاسلام ، وزينها وروجها بين المسلمين ؟

من قام بحملات التشكيك في الاسلام ، والادعاء بأنه لايجاري الحياة المعاصرة ، ولا يساير التطور الحديث ؟

من شكك بقدرة اللغة العربية — لغة القرآن — وزعم انها عاجزة عن استيعاب وتأدية اغراض العصر الحاضر ومصطلحاته ؟

كل هذه التساؤلات يجيبك عنها مؤلف هذا الكتاب بمرونة بيان وعمق تفكير ، وقوة اقناع ونصاعة برهان .

انه يجرد الشعوبية من اقنعتها العديدة . ويبرزها امام شمس الحقيقة عارية مكشوفة .

ويفضح كذلك دور المؤسسات

الاجنبيـــة من تبشيرية ، واستعمارية ، ودور عملائها الذين يكيدون للعروبة والاسلام .

ولانستطيع بهذه العجالة ان نحيط بكل اغراض هذا الكتاب النفيس ، ولكننا نقول بصدق وتجرد : ان هذا السفر القيم جمع فأوعى، وانه ايسر منالاً، واقوى مستمسك للباحثين في التاريخ العربي الاسلامي .



معرض في بيروت ومعرض في دمشق

تقديم غازي الخالدي



الجائزة الاولى للرسم في معرض بيروت (سان بلاش) لجون حديديان

معرض الخريف السادس

بيروت (متحف سرسق)

درج متحف سرسق في بيروت على إقامة معارض دولية جماعية لمختلف دول العالم وقد وضع في مخططه اقامة معرض سنوي كبير لاعمال الفنانين اللبنانيين المعاصرين اسماه معرض الخريف، ومعرض الخريف هذا العام الذي يقام حالياً في المتحف المذكور يختلف اختلافاً كبيراً عن المعارض السابقة ، فقد استدعت ادارة المتحف ناقدين معروفين من فرنسا هما جورج بوداي وجان جاك ليفك للاشتراك في عملية استجلاء وتحكيم اعمال الفنانين اللبنانيين ووضع امام اللجنة اربعمائة عمل فني اختير منها مئة وخمسة وعشرون فقط .

نستطيع ان نتصور من خلال هذين الرقمين كيف كان الاصرار على المستوى الفني الجيد والموضوعية في الحكم رائد اللجنة والأساس الذي اعتمدت عليه في التحكيم .

يقول جورج بوداي في شرحه للأسلوب الذي اتبع في اختيار اللوحات:

لقد ارتكز تقديرنا للاعمال التي بين ايدينا على امور ثلاثة :

١ – **الزمن** فالفنان هو مرآة تنعكس عليها صورة زمانه ، فهو لا يستطيع بعد انشتاين ان يصور كما كان سابقوه يصورون في القرن التاسع عشر. كذلك التقنية قد تطورت ، على ان هذا التطور لا يلغي اي ميل من الميول الفنية .

٢ – **الصفات** هي اوضح ما يكون، ومع ذلك فانا اعترف بأنها اقل ما يركن اليه : صفة الرسم وانسجام الالوان ، التوازن او الحركة في التأليف ، الايقاع ... الخ

٣ – **ذاتية الفنان** : اهمية عطائه ، اصالة الالهام في الانتاج ...

* * *

ومن خلال رؤيتنا لهذا المعرض يمكننا ملاحظة الأمور التالية :

التصوير

١ – ظهرت محاولات تجديد اعتمدت على اللون وعلى الحركة وعلى الاحساس الأول، فيها كثير من الجرأة وكثير من الثقة وعدم التردد كما ان فيها زخماً من الألوان التي تعتمد على حس اصيل، واللون بحد ذاته مركب من مشتقات عديدة من اللون الأصلي بحيث يشكل كل فنان قيمة لونية خاصة به؛ من ذلك مثلا لوحـة جورج حديدهان الفائزة بالجائزة الاولى ولوحة بول غراغوسيان الفائزة بالجائزة الثانية، اما اللوحة الاولى فقد اعتمدت على حركة حسية من خلال لون او لونين. تشترك بعض الخطوط اللانهائية في تحديد الشكل الجزئي للوحدات المستعملة في اللوحة الى جانب التضاد الذي لجأ اليه الفنان في مفهوم اللون والشكل وقد جزء اللوحة الى ثلثين وثلث، ثلثها الاول أحمر وبلون ازرق (كوبالت) والثلثان الآخران زهري مشرب بعنصر لوني خاص اعطى المساحة حيوية تشبه النغم العارض الخفيف في سيمفونية كلاسيكية.

اما اللوحة الثانية فقد كانت الشحنة العاطفية فيها اعنف الا ان اللمسات كانت كلها طولية وذات تباين واضح بالألوان، وقد يبدو للوهلة الاولى انها مجرد لمسات عريضة عشوائية شبه متوازية ولكنها في الواقع اعمق من هذا بكثير. فهي تؤكد ان الفنان يمتاز بوعي تصويري وفهم كبير للتأثير الحسي الذي تعطيه اللمسة اللونية الواحدة وهو بالفعل تجاوز من حيث المبدأ المفاهيم التشخيصية في التصوير واعطى جوهره بالذات.

ومثل آخر: مجموعة لوحات شفيق عبود وهي وان كانت على شكل انطباعات اولية الا انها تؤكد ملامح شخصية ذات طابع خاص فاللون عنده هو الذي يتحرك مشكلاً مجموعة علاقات لا ينقصها الانسجام واهم ما فيها الوحدة النسيجية التي تؤكد علاقة المساحة الصغيرة بالمساحة الكبيرة. ويضيف شفيق عبود لمسات صغيرة اخيرة

تشيع في اللوحة جواً من الايقاع الموسيقي الجميل ..

٢ ـ ظهرت بعض الاعمال تعتمد اعتماداً كلياً على الناحية التقنية . فقد عمد الفنانون الى الاستفادة من امكانيات عـديدة كالكرتون المضغوط وقصاصات الصحف والشمع الملون الممدد والملمس الخشن البارز فمثلاً . لوحة منى باسيلي (مفترقون منذ مدة بعيدة) رسمتها الفنانة باسلوب تشخيصي من خلال تكنيك نحتي بارز وهـذا الاسلوب يذكرنا بالاعمال الكرتونية التي تصنع للكرنفالات . واستعانت ببعض القصاصات من الصحف ورسمت ملامح الوجوه على المكان البارز المضغوط .

الفكرة مقبولة ولكن التنفيذ جاء توضيحياً بأسلوب الفن الاعلاني .

ومثل آخر حول هذا الموضوع ، اعمال جمانا بيازيد التي استعملت الشمع كاطار عام لوحدات زخرفية نفـذت باسلوب بدائي طفولي . عمدت هذه الفنانة الى تقليد رسم الاطفال باحساس الاطفال انفسهم الا ان اللون والتكوين وطريقة توزيع الاشكال وتبسيطها والتقنية تدل على خبرة واسعة في فن التصوير خاصة اللون البني (الجـوزي) الذي اعطى اللوحة جواً من الوقار والهدوء النفسي .

وهناك تجارب اخرى مثل لوحـة فينيقيا لوجيه نحلة الفائزة بالجائزة الرابعة للتصوير فقد امتازت بتشكيل منفصل عن الاطار ، جمع في وسط الشكل الداخلي قليلا من العلاقات والخطوط الانسيابية المستوحاة من الحرف والكلمة ، الا انه اكثر من استعمال الالوان لدرجة اصبحت معها الرؤيا المنظمة مستحيلة ...

وهناك تجربة خاصة للفـنـان خليل زغيب يرسم بها على طريقة التلقائية في فن الكبار حيث ألغى المنظور والبعد الثالث وغير قليلا في النسب واستفاد من فن الطفل من ناحية التكوين واللون وهي تجربة طريفة لا اكثر ولا اقل . وكذلك لوحتا جورج غيوف (شرود ، عرائس

الماء) . أعطى هذا الفنان احساساً تصويرياً فوتوغرافياً على طريقة (سلبية الصورة) باونين (الاخضر والبنفسجي) وهي محاولة يمكن الاستفادة منها عندما تتطور الاشكال التي تستعمل فيها ، اما أشكاله هو فكانت علامية غير محددة الهوية .

٣ — أعمال اخرى بين الواقعية التشخيصية والزخرفة البحتة كانت برأيي دون مستوى المعرض مثل اعمال جان خليفة .

الحفر

تبدو أعمال الحفر لأول وهلة مثيرة وذات شخصية خاصة الا ان مزيداً من التأمل في طريقة المعالجة توضح ان فن الحفر لم يصل في لبنان الى المستوى الذي وصل اليه التصوير . خاصة وان امكانيات الحفر واسعة ويمكن التصرف بها الى أبعد الحدود . والحفر الذي عرض على ثلاثة انواع : نوع اهتم بالخط ونوع آخر اهتم بالمساحة والخط معاً ، ونوع اعتمد على تقليد التصوير كلوحة الينبوع لوليام باسيلي ، اما الذي اهتم بالخط فهو كريكور نوريكيان . وفي محاولات تلوين الحفر لوحة واحدة فقط لونت بطريقة بدائية .

النحت

مما لا شك فيه ان النحت في لبنان من أبرز المظاهر الفنية الحضارية المعاصرة ، ويمكن تحديد الملامح الاساسية لهذا الفن بالنقاط التالية :

١ — ان مفهوم النحت الحديث ظهر بشكل واضح في أعمال جميع العارضين وباحساس جديد بالكتلة وبالخامة وباستغلال الفراغ وبتنويع الملمس وبطريقة المعالجة ، والاهم من كل ذلك باسلوب التفكير نفسه . فتمثال عارف الريس (حوار) — الجائزة الاولى للنحت — يمثل بالفعل حوار الانسان مع الطبيعة ولقاء الفكر مع الوجدان وانسجام الفراغ مع الكتلة . فقد استطاع هذا الفنان ان يخلق من كتلة حجرية صماء كبيرة قطعة جميلة ذات خطوط انسيابية فيها توازن دقيق بين جميع اجزاءها اذ أعطى لكل

زاوية فيها قيمة جمالية خاصة . فالفراغ امامه كتلة والكتلة يمكن رؤيتها من خلال الفراغ والعمل بالطبع تجريدي بحت ... هذا بالاضافة الى ملمس خشن ينسجم مع طبيعة الحجر القاسية . فالشكل العام لا يحمل طبيعة هندسية منظمة ولكنه يؤكد احساساً جمالياً عالي التوتر .

. وتمثال جوزيف بصبوص (حركة) هو قطعة حجرية واحدة متطاولة ذات تجاويف ونتوءات متصلة من القمة الى الارض واتصالها يعتمد على عدم التكرار في الجزئيات والنتوءات فتبدو وكأنها حيوان اسطوري من اعماق البحار بينه وبين الطبيعة اكثر من لقاء واكثر من همس .

اما تمثال ساوى روضة شقير (قرية عامودية) – الجائزة الثالثة للنحت . . فهو تجربة جديدة وطريقة استوحت من المساكن الشعبية في القرى وحدات مختلفة ركبتها باسلوب معماري متين يعتمد على التغير والتنغيم في الكتلة بحيث اصبح التمثال بمجموعه مؤلفاً من ستة قطع متشابكة بشكل عكسي متداخلة على طريقة العمارة القديمة . والمهم في هذا العمل هو هذا التفكير الجديد في التمثال المجزأ والمتكامل بنفس الوقت ، وهو بالاضافة الى ذلك تجريدي وتشبيهي ومستوحى من الواقع إلا أن الفنانة جعلت القرية عمودية بدلاً من ان تتركها افقية كما هو مألوف لدينا . وربما يعود سبب ذلك الى طبيعة القرى اللبنانية الجبلية .

وهناك اعمال نحتية في الخشب والحجر لم تصل الى مستوى الاعمال التي فازت بالفعل . بمعنى ان الفنان لم يستطع ان يطوع الحجر ولكن الحجر هو الذي فرض شكله على الفنان . اما أعمال الخشب فكانت مجرد محاولات تقليدية سطحية ، خاصة وأن خامة الخشب اسهل من خامة الحجر .

أما اعمال النحت التشخيصية مثل تمثال الياس لزافين حديشيان فقد كانت محاولة مشوهة للنحت الحديث ، خاصة وان

الموضوع يعتمد على الانسان كشيء مجسم ومحدد. فالحلول التي طرحها زخرفة معمارية مملة .

معرض جمعية اصدقاء الفن السابع :

دمشق (المركز الثقافي العربي)

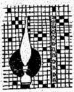
ثلاثة أمور هامة ظهرت في معرض الجمعية السابع :

أولاً : بوادر تطور حقيقي عند بعض الرسامين في الجمعية مثل: جورج جنورة، ووجيه مدور، وناجي عبيد، ونزار سوري.

ثانياً : وجه جديد يبشر بخير كثير وبعطاء جدي وهو وضاح الدقر .

ثالثاً : توقف بعضهم الآخر عند مرحلة معينة يجترون انفسهم بشكل مكرر ومل .

اما الذي لا بد من الوقوف عند اعماله فهو ناجي عبيد الذي يؤكد من خلال الاعمال التي عرضها انه يسير في درب رسمه بدقة بالغة لنفسه ، الا ان الذي يؤخذ عليه انه بدأ يكرر الوحدات الزخرفية التي يستعملها ، ثم ان هذه الزخرفة بالذات ليست ذات طابع معين ، وانما مجرد خطوط منكسرة ورتيبة ومكررة اي انها غير ذات هوية ، وفرق كبير بين لوحته رقم (٢٥) ولوحته رقم (٣٦) . فالاولى نابعة من نفسه والثانية فيها اثر واضح من اعمال غيره ، اما الخطوط السوداء التي حدد بها الاشكال في لوحته « في طريقي » فهي كالشريط المعدني فاقدة للاحساس تماماً . وهو بلا شك سيقف في القريب العاجل واحداً من الفنانين الطليعيين الشباب الذين يمتازون بطابع فردي متميز .



حول مسرحية العنب « الحامض »

بقلم : سامي عطفة



« إسمعوا يا رجال ساموس . . إسمعوا حكاية . . أسوب » من ثعلب بعنقود عنب معلق عالياً .. فأراد أن يصل اليه .. ولكنه لم يستطع فقال « ان العنب لحامض » تعلموا من هذه الحكاية . . تعلموا انكم احرار . . وانت يا إكسانتوس اعلم بأن كل رجل جدير بالحرية .. وأن كل انسان جدير بأن يموت في سبيلها .. »

هذه الحكاية البسيطة التي يرويها إسوب في نهاية مسرحية « العنب الحامض » وهو يندفع ليواجه ميتته ، معبراً بها عن أسلوبه في مواجهة حياته واختيار مصيره كرجل حر ، هي الامثولة الرائعة التي تعطي هذا العمل المسرحي العظيم قيمته ومغزاه .

ومسرحية «العنب الحامض» او « الثعلب والعنب» كما هو اسمها الاصلي ، التي اخرجها الاستاذ علي عقلة عرسان ، وقدمتها فرقة المسرح القومي ، هي من تأليف الكاتب البرازيلي جويلهرم فيجويرود الذي كان من رجال القانون ، حسبما جاء في تقديم الترجمة العربية ، ثم انصرف لممارسة الصحافة فالادب فالمسرح ، وقد كتب عدداً من المسرحيات منها هذه المسرحية التي قدمت لاول مرة في عام ١٩٥٧ ، وقد نالت شهرة عالمية واسعة فترجمت الى عدد من اللغات وقدمت في عدد كبير من البلدان كما حازت على جائزة مهرجان الموسيقى والمسرح في الاتحاد السوفياتي .

ومسرحية « الثعلب والعنب » تراجيدية كوميدية ، تؤلف بين المأساة والملهاة في وحدة عضوية تظهر في اساليب عرض الموضوع وبناء الازمات ، كما تظهر في الطابع العام للمسرحية ، فالابتسامة تعقبها دمعة ، والمرح يجلله الاسى .

وتتألف هذه المسرحية من ثلاثة فصول ، تدور حول قصة بسيطة مستقاة من الحياة اليونانية القديمة ، تجري احداثها في جزيرة ساموس حيث يحيا اكسانتوس (يعقوب ابو غزالة) وهو مخلوق غبي لايفهم ابسط الحكايات التي تروى له . ومع ذلك فهو يحمل لقب فيلسوف ويقوم بتعليم تلاميذه المعارف التقليدية الشائعة في عصره ، كما انه ثري يملك العبيد والإماء ، ونراه وهو داخل على زوجته الحسناء كليا (هالة شوكت) ليخبرها بخيلاء انه قد احضر لها هدية ، وهي عبارة عن عبد يدعى إسوب (عصام عبجي) . ولكن قبح إسوب وخلقته المشوهة يفزعا كليا وجاريتها مليتا (لينا باتع) ويضحكاهما . ولكن ما ان يتكلم إسوب حتى يحتل مكانته في النفوس وعلى خشبة المسرح . فهو رجل بالغ الذكاء ساحر الكلمة يتسم بالمرح واللطف ، كما انه بحكاياته التي يجريها على السنة الحيوانات ، يعبر بصورة غير مباشرة عن افكاره ومقاصده تعبيراً ينم عن البلاغة والحكمة ، ويبدو منذ اللحظات الاولى ان العبودية ترهق اسوب ، وانه يريد حريته ، ويسعى بدأب للحصول عليها . ولذلك فهو يتفانى في خدمة سيده الغبي ويخلصه من المشكلات التي يورط نفسه

فيها مؤملا ان يرق سيده له فيعتقه ، بل هو يحاول اقناعه بوجوب عتقه ، ولكن هذا السيد يأمر بجلده لقاء ذلك . ان اكسانتوس يصر على الاحتفاظ به لأنه – كما يصفه هو – كنز. ثم تأتي الفرصة لنيـــل الحرية ، حينما يلجأ اكسانتوس الى اسوب بعدما هجرته زوجته، ويعده بأن يحرره اذا هو استطاع أن يعيد زوجته اليه. ويجد اسوب الحل فتعود الزوجة، لكن اكسانتوس يحنث بوعده فينهار اسوب وقد امضه اليأس ، وتقترب كلايا منه فتشير الى انها لم تعد بسبب زوجها وحده ، وتطلب منه أن يأخذها بين ذراعيه ، أن ينالها لينتقم بذلك من زوجها ، لكن اسوب يرفضها . وتلح كلايا من جديد في موقف يعتبر من اكثر المواقف المسرحية اثارة وعمقاً في تحليل المشاعر والافكار :

« كلايا : احمق .. سأطلب بعد ذلك من اكسانتوس ايضاً ان يعتقك. الا تتوق وتميل الى الحرية .. ؟

اسوب : ليس عن هـذا الطريق يا كلايا .. ان الحرية نقية يجب ان نمسها بأيد نقية .

كلايا : تفضل اذن ان تبقى رقاً ؟

اسوب : نعم ..

كلايا : اذا عرف انك تنفعـــه اكثر فاكثر .. فسوف يحتفظ بك..

ان الانسان يرمي فقط الحاجيات عديمة الفائدة ..

اسوب : سأكون اذن نافعاً له وعديم الفائدة لك ..

كلايا : انت ترفض .. ؟

اسوب : ارفض

كلايا : اسوب .. لاترفض .. ارجوك .. اتوسل اليك .. أريد ان اكفر بجسدي عن كل المظـــالم التي تعرضت لها .. »

ولكن اسوب يرفض ، يصر على رفضه، انه يرفض حتى الحرية التي تأتي عن هذا الطريق . انه يرفض ان يلتقي بكلايا كما تلتقي الحيوانات في ظلام الغابة . فالضمير يقف حائلا دون تنفيذ رغباته ، دون الهبوط الى مثـــل هذا الدرك ، الضمير « ذلك الشيء القريب البعيد.. الذي يجعل منا طيبين بغض النظر عن طيبة العالم» ويظل اسوب محلقاً في افقه الرفيع ، يظل رجلا ، انسانا .

ويعود اكسانتوس ثانية ليطلب معونة اسوب على الخروج من الورطة التي اوقع نفسه فيها حينما راهن أغنوستوس قائد الحامية وهو ثمل، على ان يشرب ماء البحر كله واذا لم يفعل فانه يخسر منزله وثروته . وهو يقسم لاسوب بشرفه على انه سيعتقه اذا هو وجد له مخرجا من هذه الورطة ، وفي موقف درامي رائع نجد كلايا

تحث زوجها على ان ينقذ شرفه وكبرياءه فيجد بنفسه حلا للمشكلة دون الاعتماد على اسوب ، لكن اكسانتوس الذي يريد النجاة بأي ثمن يتجاهل نصيحة زوجته ورجاءها ، ويروح يرجو اسوب ويتزلف اليه كي يساعده ، بل إنه يغض الطرف عن العلاقة بين زوجته واسوب كاشفاً بذلك عن خسة ودناءة تجعلانه موضع احتقار الزوجة واسوب معـاً .. ويقدم اسوب الحل ، لكن اكسانتوس بدلا من ان يهبه حريته يأمر بجلده بينما يتأهب لملاقاة شعب الجزيرة الذي احتشد لمعرفة نتيجة الرهان .

ويدرك الشعب ان اسوب هو صاحب الحل فيطالب بتحريره كما تطالب بذلك كلايا التي تعترف لزوجها بأنها تحب اسوب وانها ستنفصل عنه كي تذهب مع اسوب حينما ينال حريته ، ويتردد إكسانتوس بدافع الخوف من هجران زوجته ، لكنه يستجيب لارادة الشعب حينا تعده كلايا بأن تبقى معه اذا هو حرر اسوب .

وينال اسوب حريته ، ويمضي فرحـاً مزهواً بها ، ولكنه لايلبث ان يعود مغلول اليدين بالسلاسل ، لقد مر في طريقه بمعبد دلفي وروى لكهنة ابولو حكاية الصرصور الكسول والنمل منتقداً بها اسلوب حياتهم واعتمادهم على جهد الآخرين فدسوا كاساً ذهبية في كيسه ، وقبضوا عليه بتهمة السرقة ، وكانت قوانين هؤلاء الكهان تقضي بأن يرمى السارق الى الهاوية من أعلى صخرة في اليونان اذا كان رجلا حراً ، اما اذا كان عبداً فيسلم الى سيده لكي يتولى تحديد عقابه . ولم يكن كهان دلفي قد سمعوا بتحرير اسوب ، وهكذا اعادوه الى اكسانتوس .

ويفرح اكسانتوس بعودة اسوب لأنه سوف يستفيد من حكاياته في الدروس الـتي يلقيها على تلاميذه ، كما تفرح بها كلايا .

وفي لحظات الانتظار الاخيرة يكون على اسوب ان يختار بين احد امرين : فهو اما ان ينقذ نفسه ويظفر بالحياة اذا قبل بالعودة الى العبودية واما ان يختار حريته . وحينئذ يتحتم عليه ان يواجـه الموت كرجل حر حسبما تنص القوانين .

ويرفض اسوب كل الاغراءات : يرفض حب كلايا وتنازل اكسانتوس عنها له ، كما يرفض دعوته إلى مشاركته في عمله ، يرفض الحياة الشهية التي تنتظره ، لأنهـا مشروطة بقبوله بالعودة إلى العبودية ، ان العبودية هنا موقتة وشكلية لانقاذه من الموت ، لكن اسوب يرفض هذه المساومة تماماً كما رفض من قبل ان ينال حريته عن طريق الاستسلام لحب كلايا . وهكذا وقف ليعلن : « انني اختار عقاب الرجل الحر » . وكان على اسوب ، الرجل الحر ، ان يتقبل الموت ، فبالموت وحـده يستطيع ان يؤكد حريته ، ان الموت هنا هو البديل الرمزي للحرية ، للحيـاة الحرة الكريمة ، لعنقود العنب الذي ظل اسوب طوال حياته يحن الى مذاقه ويسعى للوصول اليه » وداعاً يا كلايا . . انا رجل حر . . لن

ينال جسدي شيء بعد اليوم، لا سوط الحبشي.. ولا يداك يا كلايا .. لا الكراهية ولا الحب ..»

تلك هي قصة أسوب، قصة «الثعلب والعنب» والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: لماذا عاد فيجويردو – وهو كاتب معاصر – الى العصر اليوناني ليستقي منه هذا الموضوع في حين ان الحياة الحديثة من حوله غنيــة بالموضوعات التي تهم الانسان المعاصر وتشغل باله، خاصة وأن عودته لم تكن لمناقشة أية مشكلة من المشكلات القدرية كمشكلة صراع الانسان مع القدر بل لعرض مشكلة معاصرة هي مشكلة الحرية في مضمونها الاجتماعي؟

وللاجابة على هــذا السؤال، ومن ثم لادراك الاهمية الخاصة بهذا العمل المسرحي، لا بد لنا من ملاحظة أن العلاقات الاجتماعية في المجتمعات الرأسمالية الحديثة، وخاصة في البلدان المتخلفة شبه الاقطاعية، كالبرازيل وطن المؤلف، ما تزال قائمــة على أساس استغلال الانسان لجهد أخيه الانسان، رغم كل ما احرزته المدنية الحديثة من مظاهر الحضارة والتقدم التكنيكي، فرجال المال وملاك الاراضي متحكمون في كل شيء، بينما يعيش جماهير العمال والفلاحين الفقراء في شــروط مادية ومعنوية تجعلهم أشبه برقيق الماضي، وما الديمقراطية الحديثة التي تتباهى بها مجتمعاتنا الرأسمالية سوى وسيلة تمكن الرأسمالية من تنمية قواها وممارسة سلطانها بلا حدود. فالانسان في هذه المجتمعات يرزح تحت عبء العبودية الاقتصادية التي تفرضها العلاقات الاقتصادية الرأسمالية، والتي هي أشبه بعبودية الرق في المجتمع اليوناني من حيث أنها تسلب الانسان قيمته وحريته الحقيقية. لأن الحرية التي يتمتع بها في ظل الرأسمالية هي حرية فارغة ومجردة، فهو «حر في أن يختار مضطهديه».

وهنا يكمن وجــه الشبه بين مجتمعاتنا الرأسمالية الحديثة والمجتمع اليوناني القديم، بين الديمقراطية الحديثة والديمقراطية الاغريقية، هذا الشبه هو الذي يفسر لنا أسباب اختيار فيجويردو لهذا الموضوع، وها هو ينتقد الديمقراطية الحديثة من خلال النقد الذي يوجهه الى الديمقراطية الاغريقية على لسان كلايا «هذه هي الديمقراطية الاغريقية، من حق الفقير أن يختار مضطهديه، ومن حق الطاغية أنديقور إفقار هذا وإغناء ذلك، ومنح الحرية لهذا، وفرض العبودية على ذلك، والجميع يتمتعون بحرية الاستماع الى اكسانتوس وهو يعلن ان الظلم عدالة وان الالم لذة، وان العالم قــد خلق ليوفر له، لاكسانتوس، خمراً لذيذاً، وبيتاً جميلاً، وامرأة جميلة ..».

وهكذا نجد ان الموضوع الرئيسي في هذه المسرحية يجسد الصراع بين الطبقتين الرئيسيتين في المجتمع: الطبقة الغنية التي يمثل المتفلسف الثري اكسانتوس ملامحها وعقليتها وفكرها، والطبقة الفقيرة المضطهدة التي يمثل العبــد أسوب وعيها وتطلعاتها الى الحرية وأخلاقيتها، ويبدأ هذا الصراع منذ اللحظة التي يصبح فيها أسوب ملكاً لاكسانتوس، ذلك أن أسوب

يتطلع إلى التحرر من العبودية، بل ان حريته تصبح الهدف الوحيد الذي يسعى اليه ، فهو يحتقر القوة والثروة والجاه ويعزف عن الحب فما نفع الحب دون حرية .. ان الحرية هي كل شيء بالنسبة للانسان ، إنها جوهر انسانيته وكرامته ، واسوب يرفض ان يهرب . يريد أن يعترف الجميع بحريته « ليست حرية تلك التي يعيش فيها الانسان وهو في خوف دائم من أن يمسك من جديد !.. لا يمكن ان تكون الحرية أمراً سرياً . ان جوهر الحرية هو في أن يعرف الجميع أنك حر .. كل الناس يجب أن يعرفوا ذلك ويحترموه ... » وكذلك فانه يرفض أن ينال حريته عن طريق الاستسلام لحب كلايا « ليس عن هذا الطريق يا كلايا .. ان الحرية نقية . يجب ان نمسها بأيد نقية » . واسوب يملك وعيـاً خلقياً عميقاً وشاملاً « الضمير ذلك الشيء القريب البعيد .. الذي يجعل منا طيبين بغض النظر عن طيبة العالم».

واذن فان أسوب يجسد المناضل الذي يرفض معالجة وضعه الاجتماعي البائس بالهرب منه ، او بالتخلص منه بمساومة غير مشروعة . ان اسوب يتطلع الى الوسيلة الصحيحة لتحقيق هدفه . انه يختـار اسلوب المناضل ، وهو يختلف بذلك عن مليتا التي تعمل على نيل حريتها بالزواج من سيدها .

وعلى نقيض اسوب نجد إكسانتوس يجسد نقائص الرأسمالية ، انه ينظر الى الاشخاص ويعاملهم كما لو كانوا آلات او ممتلكات. وتبدو نظرته هذه واضحة في معاملته لزوجته كلايا، انه يعاملها كما لو كانت ملكاً له ، وهو ينظر الى اسوب من حيث انه شخص مفيد يخلصه من مشكلاته وينقذه من ورطـاته . ولذلك يصفه بأنه « كنز ». وهو وعد يحنث بوعده ويسفـ حتى ليقبل بعلاقة زوجته غير المشروعة بعبده في سبيل المحافظة على مصالحه . وهكذا فقد كان حريصاً على التمسك باسوب للاستفادة من ذكائه وامكانياته، مما زاد في حدة الصراع المسرحي بين هاتين الشخصيتين المتقابلتين .

ويكمل هـذا الصراع ويوضح ابعاده الصراع بين مليتا (لينا باتع) وسيدتها كلايا ، فهذه الجارية تعمل على ان تحل مكان سيدتها ، لانها سوف تنال حريتها بزواجهـا من اكسانتوس ، انها تعمل على نيل حريتها عن طريق الدخول الى طبقة السادة. ولكن، أهذا هو الطريق الصحيح لنيل الحرية ؟

ان اسوب يجيب على ذلك بقوله : « مليتا المسكينة . . لم تحسني اختيـار الطريق الى الحرية .. »

ويتدخل في هذا الصراع قائد الحامية اغنوستوس (محمود جركس) الذي يقدمه اكسانتوس على أنه رواقي وانه « رجل يحتقر كل ما في هذا العالم ويهزأ من الافراح والاتراح». وهو في البداية يبدو أشبه بالدمية يعبر عن مقاصده بالهمهمة تارة وبعبارات قصـيرة متشابهة تارة اخرى (زوجة جميلة ـ امة جميلة ـ بيت جميل) ثم يعترف لكلايا بمهمته التي قدم من اثينا لانجازها « انا هنا لحماية جني اشجار الكروم .. » . ثم انه يكشف عن موقفه ،

وبالتالي عن موقف الجيش في المجتمعات الرأسمالية من الصراع الدائر بين الطبقتين وذلك ، في الحوار الذي يدور بينه وبين اكسانتوس حول تحرير اسوب :

« اكسانتوس : كيف يستطيع الشعب ان يطالب بسلبي ماأملك . ؟ هل استولى الشعب على السلطة ياترى .. هل يجري الآن توزيع ثروات الاغنياء؟

اغنوستوس : كلا . . ان امثالي موجودون لمنع حدوث مثل هذا الشيء .. ان مايطالب به الشعب هو الحرية لاسوب .. اسوب فقط .. »

واذن فان مهمة رجال الجيش في المجتمعات الرأسمالية هي الحيلولة دون استيلاء الشعب على السلطة ، والمحافظة على مصالح السادة ، واذا كانوا يقفون احيانا لدعم بعض المطالب الشعبية الجزئية والمحدودة فان القصد من ذلك هو امتصاص نقمة الشعب بتلبية مطالبه الجزئية.

اما الحبشي (نابغة شبيب) الذي اشتراه إكسانتوس للقيام بالاعمال الشاقة والذي يقوم بجلد أسوب . فانه يرمز الى تلك القوى الشعبية السديمية الضائعة وكذلك الى الشعوب المستعمرة التي لم تع ذاتها ولا مصالحها ، ولذلك فهي تتحول قوة في ايدي السادة يستثمرونها لمنفعتهم ، وهاهي مليتا تخاطبه بقولها :

« هل انت تفهمني ؟ كلا .. انت تنتقل من بيد الى آخر .. ولاتسأل عن السبب .. أنت ترضخ للاوامر التي تصدر اليك وانا افعل هذا ايضاً .. الا انني اختلف عنك بشيء واحد هو الامل .. » انه كما تقول له مليتا ايضاً « انك لست القوة الحقيقية » فالقوة الحقيقية لاتكون الا بالوعي .. ان الوعي هو سر قوة اسوب . .

ولقد برع الكاتب ، لافي رسم الملامح السيكولوجية لشخصياته وحسب بل وفي رسم ملامحها الجسدية التي تقابل الملامح الاولى وتقوم بوظيفة تعبيرية دقيقة ، فاكسانتوس فيلسوف وثري ومظهره يدل على الوجاهة إلا أنه في حقيقته غبي لايفهم ابسط الحكايات التي تروى له وهو شحيح ومنافق ، وهذا التناقض في شخصه جعله مبعثاً للضحك . والمؤلف اذ يسخر من الفكر اليميني فذلك لابتعاده عن الواقع ودورانه في فراغ القواعد والتراكيب اللفظية ، كما ان سخريته من طبقة السادة القصد منها هو التدليل على ان امتيازاتها لاتستند الى الكفاءة والموهبة وانما الى استغلال جهد الآخرين .

وعلى النقيض من ذلك نجد ان التقابل بين الملامح الجسدية والملامح النفسية في شخصية اسوب يهدف الى دعم العنصر التراجيدي . ان اسوب الانسان الذي تذخر نفسه ذكاء وحكمة وطيبة ، هو ايضاً ذلك المخلوق الذي بلغ قبحه حداً جعل مظهره يثير الفزع والضحك معاً ، واذا كان وعي أسوب وحكمته يرمزان الى وعي الطبقة المضطهدة لوضعها ،

عان قبحه والتشويه الذي أصاب جسده إنما يرمز إلى الاوضاع البائسة التي تحيا فيها هذه الطبقة ، انها أثرات للبؤس والمظالم التي حلت بها عبر سنين ، وأسوب يعبر عن ذلك بقوله وهو يخاطب كلايا : « انظري الى هذه الأيدي التي اخشوشنت من العمل وفقدت الاحساس بالحب والى جسمي الذي تغطيه آثار السياط.. ان جسمي جرح كبـــير وتخدشه باستمرار ضربات الحياة والناس » ..

وهكذا ، يستمر نضال أسوب الواعي دون كلل، ويستمر الصراع حتى النهاية، حتى اللحظة التي يظفر فيها أسوب بحريته ، بل والى أبعد من ذلك ، فلا يكاد صراع أسوب للتحرر من عبوديته لاكسانتوس ينتهي، حتى يبدأ صراع أسوب ضد النظام السائد ممثلاً في أسلوب حياة كهان معبد دلفي . واثناء ذلك تمضي الحركة المسرحية بأناة ورفق دون أن تسقط في شرك المبالغة في الانفعالات والخطابة والجــدل . ويضحك الجمهور من سخافات اكسانتوس وتفاهته وغباوته كما يضحك من المشاغل التافهة التي تشغل بال هذا النمط من الفلاسفة الذين يقضون الوقت في تبادل النكت حول فضائح زوجاتهم وخياناتهن لهم . هذا في حين ان أسوب يثير تعــاطف الجمهور واعجابه .

وفي النهاية ، نجد أننـــا ازاء عمل مسرحي مليء وناضج ، ينم عن موهبة مطبوعة اصيلة وخبرة مسرحية عميقة . هذا فضلاً عما يتسم به المؤلف فيجويردو من وعي عميق بمشكلات الانسان وقضاياه في المجتمعات الرأسمالية المعاصرة .

* * *

في الحديث عن اخراج المسرحية. لابد من ملاحظة اولية وهي ان المخرج الاستاذ علي عقلة عرسان قد استطاع النفاذ الى دقائق هذا العمل المسرحي والاحاطة بأهداف المؤلف سواء فيما يتعلق بالافكار التي تعرضها المسرحية أو فيما يتعلق بالبناء المسرحي وملامح الشخصيات والطابع العام للمسرحية ، كما تجلت براعته في ضبط اداء الممثلين وحركتهم على خشبة المسرح وبذلك فقد استطاع ان يجسد هذا العمــل المسرحي في صيغة حية أخاذة . ومايؤخذ على الاخراج هو الغرق في الانفعالية بما يزيد عن الحاجة ، في بعض المشاهد ، وعلى الاخص لم يكن ثمة مايدعو الى اغراق اكسانتوس في الدموع عقب اختفاء زوجته فقد كان يكفي بيان يأسه وحيرته ، وذلك للمحافظة على جو السخر والتهكم الذي يحيط بهذه الشخصية . ايضاً لم يكن ثمة حاجة لكل هذه الدموع التي ذرفتها كلايا ، والتي غمرت المسرح بجو شبه درامي دخيل .

اما التمثيل : فقد اجاد كل من الفنانين

يعقوب ابو غزالة. وعصام عبجي دوره اجادة ظهرت في حسن تقمصها الشخصيتي اكساتتوس وإسوب كما ظهرت في القائها الجيد.

لقد كان تقديم مسرحية « العنب الحامض » عملا مسرحيا حيا وقيما مما يجعله جديرا بالثناء والتقدير.



وأبين التنوخي

● أقامت وزارة الثقافة حفلة تأبين للمرحوم عز الدين التنوخي (١٨٨٩ – ١٩٦٦) النائب السابق لرئيس مجمع اللغة العربية بدمشق. تليت برقية رئيس المجمع الاستاذ مصطفى الشهابي التي يعتذر فيها عن عدم تمكنه من الحضور بسبب إقامته حالياً في بيروت للعلاج، وتليت كلمة الدكتور مصطفى جواد عضو المجمع العلمي العراقي.

وتعاقب على المنبر الخطباء : وزير التربية الاستاذ سليمان الخش (تحدث عن أستاذه التنوخي في علمه وعمله)، الاستاذ عارف النكدي (زميله في المجمع)، الدكتور شكري فيصل (تحدث عن التنوخي الأديب)، الاستاذ عبد الهادي هاشم (تحدث عن التنوخي اللغوي)، الاستاذ بهجة البيطار (باسم اصدقاء الفقيد)، وأبن الفقيد قيس التنوخي.

● العدد الذي اصدرته مجلة «الفكر المعاصر» المصرية في شهر آذار الحالي خصص لدراسة الكاتب الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر، الذي وصل الى القاهرة ومعه الكاتبة الفرنسية سيمون دو بوفوار، بدعوة من صحيفة الأهرام المصرية. وسيمكث الكاتب الفيلسوف الكبير في الجمهورية العربية المتحدة حوالي اسبوعين.

● في ٢٦ شباط ١٩٦٧ بدأ «الاسبوع الثقافي البلغاري» في دمشق. ويتضمن مهرجاناً للرقص الشعبي وافلاماً ثقافية وسياحية.

كتب جديدة

● بعد ايام يصدر الجزء الثالث من كتاب (اسس النقد الأدبي الحديث). وهو كتاب في اجزاء ثلاثة يعرض مبوبه (مارك شورر) و (جوزفين مايلز) و (غوردن ماكنزي) قضايا النقد ومشكلاته ومبادئه وفرضياته ومواقفه وقيمه، من خلال ما اختاروه من نصوص لكبار النقاد القدماء والمعاصرين. ترجمت الكتاب عن الانكليزية السيدة هيفاء هاشم، وراجعت الترجمة الدكتورة نجاح العطار. منشورات وزارة الثقافة.

● تحت الطبع كتاب (سوسيولوجيا أفريقية الحديثة) للمفكر الفرنسي جان زغلر، ويتحدث فيه عن البلاد التي استقلت من أفريقية ونظم الحكم التي قامت فيها وأوضاعها الاجتماعية بشكل عام، ويتناول بالبحث بشكل خاص مصر وغانة والكونغو (ليوبولدفيل)، ترجمة الاستاذ احمد القادري، مراجعة الاستاذ انطون حمصي. وسيتبعه للمؤلف نفسه كتاب (الثورة المضادة في أفريقية)، وهو يبحث في البلدان التي آلت فيها مقاليد الحكم الى الأقلية البيضاء بعد أن نالت استقلالها، ويعتبر من هذه الزاوية متمماً للكتاب الأول. ترجمة الدكتورة مارسيل عبسي، مراجعة الاستاذ اديب اللجمي. منشورات وزارة الثقافة.

محاضرات

● نظمت وزارة الاقتصاد والتجارة الخارجية حلقة دراسات في المركز الثقافي العربي بدمشق ، ألقى فيها الدكتور سعيد النابلسي محاضرة عن (التنظيم المصرفي الجديد) ويحيى عرودكي محاضرة عن (الاتفاقات التجارية) وفخر الدين خليل محاضرة عن (أسس منح القروض في المصارف التجارية) .

● ألقت الطبيبة السوفيتية (تامارا داوروفا) محاضرة عن (العلوم الطبيعية والطب المعاصر) في المركز الثقافي السوفيتي بدمشق . عرضت مع المحاضرة أفلام وثائقية سوفيتية عن مواضيع طبية .

● ألقى الدكتور رفيق الصبان في المنتدى الاجتماعي بدمشق محاضرة شرح فيها احدى المسرحيات . كان اسم المسرحية (اضطهاد ومصرع جان بول مارا كما مثله الفريق المسرحي لمجانين مصح شارنتون العقلي باشراف المركيز دوساد) .

● ألقى الدكتور جمس روي كينغ James Roy King الاستاذ الزائر في جامعة دمشق محاضرة عن (الفن في الولايات المتحدة) في المركز الثقافي العربي بدمشق . رافق المحاضرة عرض فلم قصير في الموضوع نفسه .

● القى الدكتور غسان المالح محاضرة عن (أدب الشحاذين) في المنتدى الاجتماعي .

● القى الدكتور عبد الوهاب حميدة محاضرة عن (الامثال الشعبية ومدلولاتها) في المركز الثقافي العربي بدمشق .

● القى الاستاذ نجاة قصاب حسن في المنتدى الاجتماعي محاضرة عن (الربح والخسارة) . والقى الدكتور محمد الأطرش محاضرة عن (المصرف المركزي في النظامين الاشتراكي والرأسمالي) .

امسيات أدبية وفنية

● اشترك القاص فارس زرزور مع الشاعرين محمد الحريري واحمد الجندي في امسية ادبية في المركز الثقافي العربي بدمشق .

● اشترك طارق الشريف والفنان الياس زيات في ندوة فنية عن الفنان العالمي بابلو بيكاسو في المنتدى الاجتماعي، عرضت بالفانوس السحري لوحات تمثل مراحل مختلفة من حياة بيكاسو الفنية.

● اشترك القاص اكرم شريم مع الشاعرين علي الجندي وممدوح عدوان في امسية ادبية في المركز الثقافي العربي بدمشق.

معارض

● افتتحت وزارة الثقافة في المتحف الوطني بدمشق (معرض التصوير الضوئي الثالث). كما افتتحت معرض الفنان الإيطالي رفائيل ليوم بوري، في صالة الصوان.

● افتتح في المركز الثقافي العربي بدمشق المعرض السابع للرسم الزيتي لجمعية اصدقاء الفن، ومعرض الرسم المائي للفنان احمد وليد عزة.



عام ونصف مع مدير مكتب جامعة الدول العربية في الارجنتين

بقلم ظافر عبد الواحد

ارجو ان تتاح لي بضعة أسطر من (المعرفة) أردم بها البحر والمحيط بين دمشق وبونس آيرس، بضعة اسطر ارميها في صفحة بلا (زاوية) لتبقى الكلمة فيها حرة من كل قيد .

حين بدأت العمل في صيف ١٩٦٥ اميناً لسر مجلة المعرفة ، كنت اظن ان ارضاء ميولي في هذا العمل سيهون على جفاف العلاقة الموضوعية بيني وبين الاستاذ فؤاد الشايب مدير المجلة ورئيس تحريرها، واذا بالعلاقة الشخصية التي نشأت بيننا تهون علي مصاعب العمل .

كنت اظن أنني سأفيد (المعرفة) من خبرتي السابقة في الصحافة ، واذا بي اكتشف انني بلا خبرة ، واذا بالرئيس الصديق فؤاد الشايب يجعل القبة من اخطائي حبة .

قاريء اقتصد من لقمته نصف اشتراك في المجلة ، فيكمل الأستاذ الشايب من جيبه قيمة الاشتراك كيلا ينقطع الزاد عن القاريء .

خشي ان يظلم الأدباء الشباب ، فأحال إلى بعض إنتاجهم ، ربما ظن ان توسطي بالعمر بينه وبينهم يجعلني صالحاً للحكم ، حتى اذا خشي ان اظلمهم راح يشجعهم .

لن أهدر عواطفي حبراً على ورق ، بل سأحتفظ بها لنفسي شحنة أستمر بها في العمل مع رئيس تحرير جديد . وأحسب أن جلاً من الضحكات والنرفزات يختصر المسافات بين بونس آيرس ودمشق . ألم تعلمني أن أكبر عقدة لا تستحق اكثر من شتيمة ؟ فاما ان نحل وإما ان ندوسها ونمضي في سبيلنا .

- تسويق النفط العراقي
- لبنان واللغة العربية
- الميتافيزيقا في هذا العصر

تسويق النفط العراقي

نشرت مجلة (البترول والغاز العربي) الصادرة في كانون الثاني ١٩٦٧ مقالا فيما عالج فيه كاتبه الدكتور نقولا سركيس امكانات تسويق البترول العربي . ذلك ان النزاع بين سورية وشركة نفط العراق وماترتب عليه من مضاعفات قد فرض علينا ان نتساءل عن مستقبل علاقاتنا بشركات النفط الاجنبية ، وبالتالي عن امكان تسويق نفطنا اعتماداً على انفسنا . يقول الدكتور سركيس « من الملاحظ ان النقاش الذي دار حول تسويق بترول شمال العراق الذي توقفت الشركة عن ضخه قد اتخذ شكلا نظريا ولم تسبقه او ترافقه الاتصالات الاولية اللازمة مع البلدان المستهلكة[1] » ولكن اذا كان الامر مفاجأة لنا فهل نستطيع ان نجابه هذه المفاجأة ونجابه الموقف بجرأة وحسن تصرف ؟ يجيب كاتب المقال عن هذا السؤال بقوله : « ومهما كان المخرج من

(١) مجلة « البترول والغاز العربي » العدد (٣) كانون الثاني (يناير) ١٩٦٧ - ص ٢٥

الازمة الحالية فلابد لنا ان ننظر من خلال الواقع والارقام الى موضوع تسويق بترول شمال العراق[1] »

وتواجهنا ازاء حل هذه المشكلة حقائق بديهية هي : « ان العراق لا يحتاج لتسويق كل الكمية التي كانت تنتجها الشركة من حقول كركوك وعين زالة والتي بلغت ٤٣،٦ مليون طن عام ١٩٦٥ في محافظ على مستوى دخله من انتاج حقول الشمال أي ٢٥٩،٣ مليون دولار عام ١٩٦٥ . فنظراً لمبدأ مناصفة الارباح السائد حالياً، يمكن للعراق ان يحصل على هذا الدخل نفسه اذا قام بتصدير نصف الكمية المذكورة لحسابه الخاص اي ما يقارب ٢٢ مليون طن[2] »

والسؤال الذي يرد الآن « هل بامكان العراق يا ترى في الظروف الراهنة لسوق البترول العالمية، تأمين اسواق لهذه الكمية أي ٢٢ مليون طن تقريباً ؟ والجواب على هذا السؤال يقتضي التمييز بين الاسواق التقليدية للبترول العربي ، أي اسواق اوربا الغربية من جهة . والاسواق الرئيسية الممكنة الاخرى واهمها اليابان والبلدان الاشتراكية وبعض بلدان آسيا والصين وافريقيا والهند وباكستان[3] » .

ومن الثابت بل من المؤكد ان شركات النفط الاحتكارية الكبرى ستتضامن مع مجموعة الشركات المساهمة في شركة نفط العراق (IPC) وتقف في وجه محاولة العراق لتسويق نفطه بنفسه . « ولكن هذا لا يعني ان الأبواب مغلقة تماماً في وجه البترول العراقي في الأسواق الاوربية اذ أن المنافذ الى هذه الأسواق ليست كلها تحت سيطرة الشركات الكبرى . فثمة عدد من الشركات المستقلة والشركات الحكومية التي تملك ما لا يقل عن ٣٠٪ من طاقة التكرير وشبكات التوزيع في اوربا والتي لن تتردد عن شراء البترول العراقي اذا حصلت على شروط تجارية خاصة .

---

(١) و(٢) و(٣) نفس المصدر السابق .

هذا في المدى القريب . اما في المدى البعيد فيدل تطور الاستهلاك في اوربا الغربية على ان الحاجة ستزداد باستمرار خلال السنوات القادمة وان امكانات تسويق البترول العراقي على يد مؤسسة حكومية عراقية ستزداد تبعاً لازدياد الحاجات الاوربية التي بلغت ٣٧٦ مليون طن عام ١٩٦٥ والتي تشمل زيادة سنوية تتراوح بين ١١ و ١٣٫٥٪

اما البلدان الاشتراكية فكل الدلائل تشير الى انها تواجه عجزاً في حاجاتها البترولية والى ان وارداتها من البترول ستزداد تدريجياً خلال السنوات القادمة[١] » .

ويمكننا ان نلخص اسباب العجز هذه كما جاءت في المقال المذكور بانها زيادة في استهلاك الطاقة ، وهي ظاهرة طبيعية في البلدان الاشتراكية نظراً لضرورة انشاء صناعات ثقيلة ومن بينها صناعة السيارات التي تؤثر بشكل سريع ومباشر على استهلاك الوقود . وثمة سبب آخر لهذا العجز وهو انه ليس لدى البلدان الاشتراكية بما فيها الاتحاد السوفيتي والصين الشعبية سوى ٩٫٤٪ من احتياطي البترول الثابت في العالم . « بناء على هذه المعطيات وعلى التقديرات المتوفرة حول المستقبل يمكن القول ان اسواق البلدان الاشتراكية ستعطي خلال السنوات القادمة فرص تسويق هامة للبترول العراقي وغيره ... وتصح نفس هذه الملاحظات بالنسبة للدول الأخرى التي تسجل ارتفاعاً متزايداً في حاجاتها ووارداتها من البترول كاليابان وباكستان والهند وغيرها من الدول النامية[٢] » .

ويختم كاتب المقال مقاله قائلا : « وقد سبقت ايران الدول العربية لاستخلاص العبر من هذه الامكانات الجديدة اذ بدأت منذ زيارة الشاه لأوربا الشرقية في الصيف الماضي لاجراء الاتصالات اللازمة مع البلدان الاشتراكية ومنها الاتحاد السوفيتي لتأمين عقود بيع بعيدة الأمد لتصدير البترول والغاز الايراني الى هذه البلدان . ويؤمل ان يقوم العراق وغيره من الدول العربية بجهود مماثلة للافادة من هذه العروض الجديدة[٣] » .

(١) و(٢) و(٣) ص ٢٧ من العدد المذكور .

لبنان واللغة العربية :

وتحت عنوان « قضية اللغة العربية في لبنان »[1] كتبت سكرتيرة تحرير مجلة الآداب اللبنانية تقول : كان لقرار اليونيسكو باعتماد اللغة العربية لغة عالمية - عدا اهميته بالنسبة للعرب جميعاً - وقع خاص في الأوساط الثقافية اللبنانية. فقد اتى هذا القرار لحظة يصل التنكر للغة العربية في بعض هذه الاوساط الثقافية والتربوية الى حد لا يهدد مصير هذه اللغة فحسب ، وانما يهدد الى ذلك مصير القيم التي تحملها وتعبر عنها .

— إن اعتماد اللغة العربية لغة دولية في اليونيسكو اعتراف بدورها لغة للابداع وللثقافة على مستوى الانسان . ان هذا جدير ان يثير فينا نحن اللبنانيين، التساؤل حول وضعنا اللغوي ، وموقفنا من لغتنا، سواء من حيث صلتنا بها كوسيلة للتعبير، أو وسيلة للتعليم والتربية . اننا اليوم اكثر من اي وقت مضى بحاجة الى اعادة النظر في برامجنا التربوية وفي وضع المدارس والكليات والجامعات عندنا . ان لغتنا التعليمية الاولى هي عملياً غير لغتنا الام .وهذا وضع لا مثيل له في اي بلد متحضر في العالم . ومعظم اطفالنا يعرفون الفرنسية والانكليزية اكثر مما يعرفون العربية ، وكذلك الامر بالنسبة لمثقفينا . فجذورنا الثقافية والروحية غير عربية .

إن لبنان لم يظفر على الصعيدين الثقافي والفكري باستقلاله بعد . وهذا الواقع اسوأ من عدم الاستقلال . لانه يبقينا في حالة معلقة بين التبعية والسيادة . إن الابداع لا يمكن ان يتم الا باللغة الأم ، وان النهضة الفكرية لا تتم الا باللغة الأم .

لقد اثار قرار اليونيسكو حماسة المثقفين والمفكرين اللبنانيين ، فراحوا يوجهون الكتب والرسائل المفتوحة الى وزير التربية اللبناني من اجل اعادة النظر في البرامج .

ونأمل ان يكون لهذا الاعتراف الدولي اثره المرجو عند المسؤولين عن التربية في لبنان .

(١) راجع مجلة الآداب العدد ٢ شباط (فبراير) ١٩٦٧ ص ٦٩ — ٧١ .

الميتافيزيقا في هذا العصر

وكتب الأستاذ محمود رجب مقالا في مجلة (الفكر المعاصر) المصرية (العدد ٢٤ — فبراير ١٩٦٧ — ص ١٤ — ٣٧) مقالا عن (الميتافيزيقا في هـــذا العصر) جاء فيه :

« منذ مطلع العصر الحديث حيث بدأ العلم الطبيعي في الظهور ، وثمة سؤال رئيسي يتردد — على نحو او آخر — في مؤلفات الفلاسفة هو : ماهو فيصل التفرقة بين العلم والميتافيزيقا ؟ أيتمثل في الموضوع الذي يبحثه كل منها ، أم في المنهج الذي يستخدم ، ام في الموضوع والمنهج على السواء ؟ نعم انه منذ ارسطو والفلاسفة يفرقون بين الميتافيزيقا والعلم ، وخاصة من حيث الموضوع ، فالميتافيزيقا تبحث — في نظرهم — في الموجود «بماهو موجود» أما العلم فيبحث في الموجود « بحال ما » . لكن هذه التفرقة لم تكن اساسية ، ذلك لن التفرقة الاساسية عندهم كانت بين القسم العملي في الفلسفة وقسمها العامي الذي كان يضم العلم الطبيعي بوصفه العلم الأسفل ، والميتافيزيقا بوصفها العلم الأعلى انها لم تصبح اساسية الا في العصر الحديث عندماظهر العلم الحديث ، وعندما بدأ الفلاسفة يبحثون في مناهجه . وكان الهدف الذي يسعون اليه من وراء هذه التفرقة أحد امرين : اما استبعاد الميتافيزيقا من اجل العلم ، او استبقاؤها من أجل العلم ايضاً . .

قد يبدو للبعض ان استبعاد الميتافيزيقا باسم العلم ، دعوة جديـــدة استحدثها المناطقة الوضعيون في وقتنا الحاضر ، والحق انها قديمة قدم بيكون ، الذي يعد اول فيلسوف وضعي دق شعاب الطريق نحو استبعاد الميتافيزيقا ، فبيكون هو اول من أقام التفرقة بين العلم والميتافيزيقا من حيث المنهج ، فالميتافيزيقا في نظره تستخدم المنهج التأملي . اما العلم فيستخدم المنهج الاستقرائي ، أو بعبارة اخرى ، المذاهب الميتافيزيقية هي من صنع الخيال ، وتقابلها النظريات العلمية التي هي نتيجة للاستدلال الاستقرائي من الوقائع » .

وقال الأستاذ رجب في صدد نظرية بيكون :

(وهذا الرأي هو الذي ادى ، في الحقيقة ، الى مايشبه الطلاق البائن بين العلم والميتافيزيقا ، فأصبح ينظر الى منهجي الاستقراء والتأمل على انهما متقابلان . وقد ذهب بيكون الى ان البحث الاستقرائي السليم لا يكون الا بغياب كل الأفكار السابقة ، فأولئك الذين تملأ عقولهم التأملات لايصلحون للقيام بالتجربة والمشاهدة العلميتين ، ذلك لأنهم يتحيزون لتأملاتهم . وهذا التحيز يجعلهم مستعدين لملاحظة الوقائع التي تؤيد تأملاتهم فحسب ، وغير راغبين في ملاحظة الوقائع التي تفندها . ويترتب على ذلك انهم لايحصلون على الحقيقة ، وانما يدعمون آراءهم التي تصوروها من قبل ، وبالتالي تصبح تحيزاتهم فجة ومجرد خرافات .

والحق ان بيكون بتفرقته بين الميتافيزيقا والعلم قد فصل بين التأمل الذي يعين على تخيل الفروض والتجريب الذي يساعد على تحقيق هذه الفروض . انه – بعبارة اخرى – استبعد الفرض وحط من شأنه ، واعلى من قيمة الملاحظة والتجريب ، في حين ان العلم بمعناه الدقيق لا يكون الا بفرض الفروض اولاً ، فمحاولة تحقيقها ثانياً ، اي انه لا غنى للعلم عن الميتافيزيقا ، فالنظريات العلمية لاتجيء على نحو استقرائي من الوقائع ، وانما تتخيل اولاً ثم تحقق تجريبياً بعد ذلك .

ورغم اعتراف الكثيرين من علماء العصر الحاضر بحاجة العلم الى الميتافيزيقا ، اي حاجة التجريب الى التأمل ، فان الدعوة الى استبعاد الميتافيزيقا لا تزال آخذة بلب بعض الفلاسفة المعاصرين ، هم المناطقة الوضعيون ، بل لقد نشر احدهم ، وهو كارناب ، بحثاً – اشبه بالبيان او الدستور الرسمي لهذه الحركة – بعنوان « استبعاد الميتافيزيقا من خلال التحليل المنطقي للغة » ذهب فيه الى أن المنطق الحديث هو وحده القادر على تقديم اجابة دقيقة عما اذا كانت الميتافيزيقا ممكنة او لا ، وهذه الاجابة لاتكون

الا عن طريق تحليل اللغة ، ذلك ان تحليل اللغة يكشف عن وجود كلمات ومجموعات من الكلمات تشبه القضايا عند النظرة الأولى ، لكنها في الحقيقة وعند امعان النظر ، ليست قضايا اطلاقا . وهذه القضايا الزائفة هي – على وجه الدقة – قضايا فارغة من المعنى . وهي كذلك لأحد أمرين : اما لأن الكلمات الموجودة فيها كلمات لامعنى لها ، او لأن هذه الكلمات – اذا كانت ذات معنى – جمعت على نحو يكسر قواعد المنطق) .

ويوجز المقـال اعتراضات الماركسيين على كارناب :

(ولقد اخذ الباحثون الماركسيون على كارناب أن استبعاده للميتافيزيقا استبعاد شكلي صوري ، فقبل ان نستبعد الميتافيزيقا يجب – في رأيهم – ان ننظر الى الميتافيزيقا على انها وسيلة لدعم طريقة معينة في الحياة ، ولدعم عقيدة أو ايديولوجية سياسية او دينية معينة . واستبعاد الميتافيزيقا يجب ان يكون هدفه هو القضاء على هذه الايديولوجية غير المرغوب فيها . ويذهبون ايضاً الى ان كارناب يعمل على فصل النظرية عن التطبيق ، ويتجاهل الهدف العملي للميتافيزيقا ، ويعلن خلوها من المعنى) .

ويقارن المقـال بين الوضعيين والماركسيين :

(ان نقد الماركسيين لكارناب مثل على نقد اولئك الذين يهتمون بالعنصر البراجماطي للغة العلم . فكارناب لم يحقق بالفعل « استبعاد الميتافيزيقا » الذي زعمه لأنه حصر كلامه في العنصر المنطقي للغة . ولقد اثار البراجماطيون مثل هذه الاعتراضات ، ذلك أنهم يهتمون اصلا بالانجازات الاجتماعية للقول . فجون ديوي مثلا ذهب الى ان المرء لايمكن ان يستبعد الميتافيزيقا تماما ، الا اذا ادرك معناها ادراكا كاملا ، لا بأن يثبت فراغها من المعنى .

ولئن كان الماركسيون يختلفون عن المناطقة الوضعيين في المنهج الذي يستخدمونه في استبعاد الميتافيزيقا ، فانهم يتفقون معهم في الهدف الأساسي ، الا وهو : استبعاد الميتافيزيقا باسم العلم ومن اجله تقدمه . لكن ،مامدى

سلامة هذا الهدف ؟ هل صحيح ان تقدم العلم مرهون باستبعاد الميتافيزيقا ؟ هل فيصل التفرقة بين العلم والميتافيزيقا ، وبالتالي بين الكلام ذي المعنى والكلام الفارغ من المعنى ، هو قابلية التحقق من هذا الكلام بالرجوع به الى التجربة الحسية ؟ هل التأمل حقا حجر عثرة في سبيل التجريب ؟ هذه الاسئلة كلها اثارها **كارل بوبر** . ومن خلال اجابته عنها يرد على من ينادون باستبعاد الميتافيزيقا باسم العلم ، وينتهي — باسم العلم — الى وجوب استبقاء الميتافيزيقا من أجل العلم نفسه) .

وجاء في الحديث عن رفض بوبر **المنهج الاستقرائي معياراً لتفريق بين العلم والميتافيزيقا** :

(ولقد كان الرأي الشائع بصدد هذه المشكلة ان العلم يتميز بأساسه الذي يقوم على المشاهدة ، او بمنهجه الاستقرائي ، اما الميتافيزيقا فتتميز بمنهجها التأملي ، او انها تتناول — كما قال **بيكون** — توقعات الذهن ، وهي أشبه ماتكون بالفروض او التخمينات .

وبوبر لايقبل هذا الرأي ، لأن النظريات الحديثة في الفيزياء ، وخاصة نظرية اينشتين ، نظريات تأملية ومجردة في اساسها ، وهي بعيدة عما يسمى بأساسها الذي يقوم على المشاهدة . انها نظريات تشبه ماقد استبعده بيكون على انه توقعات الذهن .

لذلك ، يرفض بوبر المنهج الاستقرائي مميزا للعلم الطبيعي ، ومعيارا للتفريق بين العلم والميتافيزيقا ، ففي كتابه « تخمينات وتفنيدات » نجده يقترح معيارا آخر لتمييز العلم ، هو قابلية النظام او المذهب النظري للتفنيد او قابليته للتكذيب ، فالعلم — فيما يرى — لايكون علما الا بتوافر شرطين اساسيين : اما اولهما فهو مايسمى بالتخمينات Conjectures ، وهي الفروض او الظنون او التوقعات) .

ويلخص الأستاذ رجب رأي بوبر والماركسيين :

(ولايريد بوبر بهذا المعيار ان يضع خطاً فاصلا حاسماً بين العلم والميتافيزيقا ، ذلك ان ثمة نظريات يمكن اختبارها بسهولة ، وثمة نظريات يصعب تفنيدها

واختبارها واخرى لاتقبل الاختبار . وهـــذه الاخيرة هي التي توصف بأنها ميتافيزيقية .

وينتهي بوبر الى القول بضرورة استبقاء الميتافيزيقا من اجل العلم نفسه ، لانها تمده بالتخمينات والفروض الخصبة ، التي اذا ماخضعت بعد ذلك للتفنيد والاختبار ، اكتسبت صفة « العلمية » ، وحتى لو كانت الميتافيزيقا خرافة كما يزعم المناطقة الوضعيون ، فانها ضرورية للعلم ، فالخرافات اول العلم ، والخرافة نظرية لم تثبت ، والعلم خرافات ثبتت اصولها واطردت نتائجها الى حدما .

وان يستبعد ماركس الميتافيزيقا امر ليس بالمستغرب عند الماركسيين او عند غيرهم من المعارضين لهم . لكن ان يستبعد العلم ، فهذا هو الامر العجيب الذي يفجأ الماركسيين قبل معارضيهم ، ذلك ان الماركسيين يدعون انهم وحدهم العلميون والمدافعون عن النزعة العلمية الحقيقة . والحق انماركس ــ كماقال هو نفسه عن نفسه ــ ليس ماركسيا ، ففي مؤلفاته ــ وبخاصة « المخطوطات الاقتصادية والفلسفيـــة » ــ عناصر وجودية عديـدة تتمثل بوضوح في اهتمامه الشديد بمشكلة استلاب او اغتراب الانسان ، فالعلم عنده مثل الميتافيزيقا او الدين ، عالم فكري مجرد ، يبتعد به وفيه الانسان عن عالمـــه الواقعي ، فيغترب ويستلب .

وتصور ماركس للعلم ، مثله مثل تصور هيدجر له ، تصور لا انساني ، فقصد العلم عند ماركس هو استغلال العالم تكنولوجيا ، وهو عنـــد هيدجر الاستيلاء على العالم تكنولوجيا ، اي ان هنـاك توحيداً بين العلم والتكنولوجيا عند كل منهما . وكلمة « علم » عند اغلب الفلاسفة الوجوديين ، تدل على كارثة تهدد البشرية ، فالعلم عند هيدجر مثلا هو « نسيان الوجود » ، اي ان العلم يجعل الانسان الحديث مغترباً عن الوجود ، بعيداً عنه ، ناسياً اياه) .

وجاء في الحديث عن الاستلاب :

(ان جوهر فلسفة ماركس يتمثل في فكرة اغتراب الانسان او استلابه ، وهي فكرة اخذها عن فويرباخ الذي اخذها بدوره عن هيجل . ولقد كانت هذه الفكرة مقولة رئيسية في نظرية فويرباخ عن الدين، فليس الله - في رأيه - هو الذي خلق الانسان ، بل العكس هو الصحيح ، اي ان الانسان هو الذي خلق الله ، وذلك بأن اسقط وخلع افضل مافيه من صفات خارج ذاته ، وتخيله موجوداً آخراً غريبــاً اطلق عليه اسم الله . لذلك ، رأى فويرباخ ان قهر الاستلاب والقضاء عليه لايكون الا بنقد الفلسفة للدين ، عن طريق استئصال العناصر الاسطورية الــتي تكمن في الاديان ، وعن طريق تحقيق الانسان بوصفه كلا عينياً واقعياً ، بالتوفيق بين الفرد والانسانية . فلا يكون ثمة تقابل او تعارض بين الفرد من حيث هو جزء عيني والانسانيــة من حيث هي كلية مجردة. بيد أن ماركس تجاوز فويرباخ وذهب الى ان الاستلاب الديني ما هو الا تعبير عن استلاب واقعي عيني، وهو ذلك الذي يقوم في ميــدان الحياة الاقتصادية للانسان . وقوام الاستلاب الاقتصادي يتمثل في ان العامل سلب من نتاج عمله ، فاصبح عمله غريبــاً عنه ، يسيطر عليه وهو خــالقه وصاحبه . ويتجلى الاستلاب الاقتصادي بالملكية الخاصة لوسائل الانتاج والعمل التي سلبت من العامل وعزلت عنه .

واذا كان اساس الاستلاب الديني يقوم في الاستلاب الاقتصادي ، فعندئذ لن يكون الدين هو الصورة الوحيدة للاستلاب الروحي والايديولوجي ، ولن تكون الفلسفة هي الوسيلة للقضاء على الاستلاب الديني ، كما ظن فويرباخ ، بل تصبح مظهراً او صورة اخرى تضم الى جانب الدين والفن والسياسة بوصفهــا مظاهر تعكس الاستلاب الاساسي الذي هو اصلها، الا وهو الاستلاب الاقتصادي) .

ويلخص المقال رأي ماركس في ارتباط الميتافيزيقا بالواقع :

(إن الميتافيزيقا عندماركس ليست

شيئاً آخراً سوى الدين ، ولكن بعد ان اعمل فيه الفكر وتطور بالفكر . وماهي الا امتداد اوتتويج او مذهبة لجميع صور الاستلاب الايديولوجي من دين الى فن الى سياسة . والفكر الميتافيزيقي المجرد يتقابل ويتعارض مع الواقع المحسوس والواقعي . ولئن كان هو نفسه وليد تقابلات مادية ، فانه يولد بدوره تقابلات مثالية تكون مواد لفكره . ويرى **ماركس ان سيادة** الفكر المجرد انما **تعبر عن سيادة اولئك الذين يحتكرون وسائل الانتاج** ، فالفلسفة او الميتافيزيقا رغم كونها مجردة ، لاتكف عن ان تكون مرتبطة بالواقع ، ذلك ان الطبقة السائدة ، الطبقة التي تخلق الايديولوجيا ، تستخدم الميتافيزيقا سلاحاً تستعين به في تخدير اذهان الناس ، او الطبقة الخاضعة . والميتافيزيقا عبارة عن عالم من الافكار المجردة العامة ، معاد للحياة العينية الواقعية ، فالفرد لم يعد يعيش وجوده الانساني بما هو كذلك ، وانما يتمثله بوصفه وجوداً فلسفياً او ميتافيزيقا) .

ويتحدث الكاتب عن مهاجمة ماركس تقسيم العلوم بين علوم طبيعية وعلوم التاريخ الانساني :

(والميتافيزيقا — في نظر ماركس — ليست وحدها المستلبة ، بل العلم كذلك لا يقل استلاباً عنها . فالعلوم — كما يقول — لا تزال مقسمة الى علوم الطبيعة والى علوم التاريخ الانساني . وهذا والتقسيم بسبب الاستلاب ، لأن الانسان لم يجعل ابداً الطبيعة غريبة التاريخ ، او لتاريخ مستقل عن الطبيعة . وليس هناك اساس للعلم واساس آخر للحياة ، فالاستلاب هو الذي جاء بهذا الانفصال . وكان نتيجة ذلك أن ترك العلم الأرض — التي يجب أن تكون هي اساسه — التي عليها يرتفع ، ذلك ان العلم — في نظره — لا يكون علماً واقعياً الا اذا بدأ من المحسوس او الحسي في صورته المزدوجة : من الوعي الحسي ومن الحاجة الحسية على السواء ، ومن ثم لا يكون واقعيا الا اذا اتخذ من الطبيعة منطلقا . وهذه الطبيعة ليست منفصلة عن التاريخ الانساني بحال ، لأن الطبيعة التي تنشأ (والتي تصير وتتحول) في التاريخ الانساني هي الطبيعة الواقعية للانسان ، وهي بذلك

الطبيعة من حيث هي متحولة ــ ولو بصورة مستلبة ــ الى الطبيعة الحقيقة الأنثروبولوجية (اي الانسانية) وذلك بواسطة الصناعة . ويذهب ماركس الى ان الاستلاب العلمي يفترض ان هناك علوما للطبيعة من جهة وعلوما للتاريخ الانساني من جهة اخرى ، وان الواقع الفعلي وابنية المعرفة منفصلان . وهذا الاستلاب العلمي ، هذا الجزء التكميلي للاستلاب الايديولوجي ، الذي لا يشبع الحاجات الحسية (طبيعية وانسانية) للانسان ، يعبر عن الاستلاب الاقتصادي للانسان) .

•

تحية إلى فؤاد الشايب

بقلم أديب اللجمي

أديب بالفطرة ، والموهبة ، والممارسة . فنان يزخر خياله بالصور الناطقة التي تزدحم تحت قلمه . أصيل فكراً ، وبياناً ؛ رائد في دروب الأدب حتى أمام الأقلام الغضة الجديدة ؛ ذلكم هو فؤاد الشايب ، رئيس تحرير « المعرفة » ، وعقلها المخطط، بل ومخرجها من ضمير الغيب إلى دنيا الناس .

كانت « المعرفة » مهنته ، مثلما كان « الفكر » عقيدته . أعطى كلاً منهما خير ماجنت يداه وصاغ عقله . فقد أنشأ « المعرفة » كما تنشيء الأم وليدها ، ساعة إثر ساعة، ويوماً بعد يوم؛وسار بها — بل سارت هي به —

في مسالك شاقة ، موهقة . وكان عليه أن يتقبل الارهاق ، لأنه عزم على ألا يدع المعرفة تتردى . فليس أبأس على الانسان من أن يجعل الثقافة تجارة، وليس أشقى للثقافة من أن تصبح « إقطاعاً » لنفر صغير من أهل القلم .

وإيمان فؤاد الشايب بالانسان المفكر ، قوة تبدع القيم ، وتصنع الحضارة ، وتنسج التقدم ، وترفع البشر من أديم الأرض – إذ كانوا لاصقين بها الى منطقة التحرر منها والسيطرة على الطبيعة – هو الذي دفعه الى أن يجعل من « المعرفة » مجلة للمفكرين والباحثين عن الحقيقة ، والمستعدين البذل في سبيلها .

فلم يدخر وسيلة إلا ولجأ اليها لحمل الكتاب الصادقين – وبخاصة الكتاب الجدد – على الاسهام في المجلة ؛ ومن حقه ان يعتز فعلاً بأنه لم يغلق أبواب المجلة في وجه أي قلم من هذه الأقلام الشابة التي تبشر بمواهب فكرية وأدبية أصيلة .

وها أنذا أتسلم اليوم غرسة الأديب العربي فؤاد الشايب ، وقد إئتمنتني عليها وزارة الثقافة .

ان مجلة المعرفة يجب أن تظل قوة في خدمة « الفكر الحر » الذي ما فتىء يكافح في سبيل تحرر الانسان من سلطان الضلالات والأهواء ، ليضعه وجهاً لوجه أمام حقيقته وحقيقة الكون .

فتحية من صميم القلب الى فؤاد الشايب وهو في معركته الجديدة لسيادة « الفكر العربي » في المغترب ، تحية عرفان وتقدير وأخوة . ان مجلة المعرفة التي رأت النور على يديه ، يسعدها ان تفتح صفحاتها وأبوابها لاستقبال مقالاته وابحاثه . وهي واثقة من أنه لن ينساها . لأنها هي لن تنساه .

معضلات التطور في البلاد النامية

بقلم أديب اللجمي

تتحدث الصحف والاذاعات ، وبعض الكتب ، في السنوات الأخيرة ، عن حل مشكلات البلاد النامية والمتخلفة ، بفضل المعونات التي يقدمها العالم المتطور لها . وترى هذه الأقلام ، وتلك الألسنة الشادية ، أن سياسة المعونات التي ينهجها الغرب المتقدم بصفة خاصة ، ويضعها تحت تصرف بلاد العالم الثالث ، كفيلة بالقضاء على تخلف هذه البلاد ، أو كفيلة على الأقل بوضع هذه البلاد في طريق التقدم الصحيح ، وفق المنطق التقدمي الذي سار عليه الغرب . فما هي هذه المعونات الموجهة للبلاد النامية ؟ وما هي حدود قيمتها وجدواها ؟

* * *

ان أكبر مايميز البلاد النامية هو التناقض المزمن بين زيادة السكان من

جهة ، وركود الاقتصاد فيها من جهة اخرى .

وقد جرت أكثر من محاولة لتحديد خصائص البلد النامي ، كما طبق أكثر من معيار في هذا السبيل . ويمكن القول بوجه عام ان التحديد الأكثر شيوعاً هو التالي : يعتبر نامياً اومتخلفاً كل بلد يكون فيه الانتاج الداخلي الخام بالنسبة للفرد أقل من الوسطي العالمي — حسب احصاءات الأمم المتحدة — .

فأوروبا تعتبر قارة متقدمة ، لأن انتاجها القومي الخام بالنسبة للفرد يتجاوز الوسطي العالمي (٤٩٧ دولار في السنة) . ومع ذلك ، فان تقديرات سنة ١٩٦٣ ، بالاستناد الى المعيار السابق ، قد كشفت عن وجود عدد من الدول الأوروبية مازالت متخلفة : البرتغال (٣٨١دولار) ، أسبانيا (٤٤٤ دولار ، قد ازداد هذا المتوسط باستمرار فيها ، حتى انها اصبحت سنة ١٩٦٦ في زمرة البلاد المتقدمة ، اذ تجاوز متوسط الدخل الفردي فيها ٦٣٨ دولار سنوياً بوغوسلافيا ، ألبانيا ، بلغاريا ، اليونان (التي تتقدم بسرعة جيدة من ٢٩٧ دولاراً سنة ١٩٥٨ الى ٤١٢ دولاراً سنة ١٩٦٣) .

وفي أمريكا تعتبر البلاد التالية متقدمة : الولايات المتحدة (٢٧٩٠ دولاراً) ، كندا (١٩٧٠ دولاراً) بورتوريكو (٨٨٦ دولاراً) ترينيداد ، توباغو ، فنزويلا ، الأرجنتين ، الأورغواي (٥٤٤ دولاراً) ، اما البلاد الأخرى فهي نامية ، وأكثرها تخلفاً حسب آخر احصاءات الأمم المتحدة : البرازيل (١٥٦ دولاراً) باراغواي (١١٧ دولاراً) هندوراس (٨٥ دولاراً) بوليفيا (٨٥ دولاراً) .

والقارة الآسيوية بأسرها متخلفة عدا اليابان والكويت والجزء الآسيوي من روسيا ، وأكثر البلاد تخلفاً : الهند (٧٤ دولاراً) وبرمانيا (٧٥دولاراً) .

كذلك الحال في القارة الأفريقية ، فهي متخلفة كلها عدا اتحاد جنوبي أفريقيا (٦٢٥ دولار) . وبلغ التخلف في بعض

اقطارها حداً مريعاً : أثيوبيا (٤٠ دولاراً) فولتا العليا (٣٥ دولاراً) .

ان التخلف يشمل اكثر من مليارى نسمة ، اي حوالى ثلثي سكان العالم .

• • •

والقضاء على التخلف، او تحقيق الرخاء لبلد ما ، يعني زيادة مطردة في دخـــله القومي ، حتى يبلغ هذا الدخل مستوى يصبح بموجبه دخل الفرد السنوي اكثر من ٥٠٠ دولار .

فتقدير حاجات البلاد النامية ، في سبيل زيادة دخلها القومي ، يعتمد على فرضية **تحقيق هذه الزيادة باستمرار** .

ان (المنظمة المشتركة للتنمية الاقتصادية L'Organisation Commune de develo-ppement econ. mique) قدرت في سنة ١٩٦٢ الانتاج القومي الخام لمجموع البلاد النامية غير الشيوعية ، بما يعادل ١٨٢ ملياراً من الدولارات . وفي السنة ذاتها زاد هذا الانتاج القومي بنسبة ٤،٠٤٪ في البلاد المتقدمة وبنسبة ٤٪ في البلاد المتخلفة ، ولكن الزيادة السكانية في البلاد الأولى قد بلغت ١،٢٠٪ اي انها كانت اقل منها في البلاد الثانية (يقدر متوسط الزيادة السكانية في البلاد النامية بحوالي ٢،٥٪ ويبلغ عند بعضها ٣٪ بفضل انتشار الطب والعلاج الوقائي لدى الاطفال خاصة) .

معنى ذلك ان الزيادة السنوية في الدخل القومي الخام بالنسبة للفرد تبلغ ٣،٢٪ **في البلدان المتقدمة** (٤،٤٠ — ١،٢) بينما هي في البلاد المتخلفة لا تتجاوز ١٪ (٤ — ٣) .

في ضوء هذه المعطيات، يمكننا تحديد قيمة الاستثمارات الضرورية ، كي يرتفع الانتاج القومي الخام بالنسبة للفرد من ١٪ الى ٤٪ في البلاد النامية، اي لتكون زيادته اكثر بقليل مما هي في البـــلاد المتقدمة ، وذلك كي تتمكن الاولى ، مع الزمن ، وببطء شديد ، من اللحاق بالثانية .

فاذا اردنا ان نبلغ الهدف بزيادة الانتاج القومي الخام بنسبة ٤٪ سنوياً للفرد ، وبشرط ان نضع في حسابنا الزيادة

السكانية التي تبلغ ٣٪ سنوياً ، كان علينا ان نزيد هذا الانتاج بنسبة ٧٪ سنوياً . واذا عرفنا ان تحقيق زيادة ١ في الانتاج القومي يتطلب توظيف ٤ ، فالهدف المرجو يمكن ان نصل اليه بتوظيف ٧ امثال ٤ اي بتوظيف ٢٨٪ من الانتاج القومي الخام .

على البلاد النامية اذن ان توظف في السنة الاولى ٢٨٪ من اصل ١٨٢ مليار دولار (قيمة انتاجها القومي الخام) لأعمال التنمية ، اي حوالي ٥٠ ملياراً . من أين تأتي بها ؟

لقد استطاعت هذه البلاد ، حسب التقديرات التي جرت سنة ١٩٦٢ ، ان تخصص من انتاجها القومي السنوي ٣٠ مليار دولار اي ١٨٪ من انتاجها لاغراض التنمية . ولكنها لا تستطيع ان تضغط على نفسها اكثر مما تفعل لتبلغ رقم العشرين مليار دولار اللازمة . ان ما تقتطعه بالاصل انما تقتطعه من لقمة ابنائها ، ومن ضروريات حياتها .

تبقى مشكلة تأمين ٢٠ مليار أخرى ، هي بالضبط موضوع ما نسميه **معونة البلاد النامية** ، التي ينبغي للمنظمات العالمية ان توفرها من البلاد المتقدمة لحساب البلاد المعوزة . **عشرون مليار دولار سنوياً ، او بالأحرى في السنة الاولى من خطة المعونة ، تتزايد كل سنة بنسبة ٧٪ ؛ ذلك هو المبلغ الذي ترجو الدول النامية الحصول عليه ، اضافة الى الأموال التي ترصدها من دخولها القومية الخاصة لاغراض التحول من التخلف الى التقدم** .

وطبيعي ان تتولى المنظمات الدولية ، وفي رأسها هيئة الامم المتحدة ، السعي لتوفير هذه الاموال . ولكن المنظمات الدولية ليست مراكز للثروة ولا صناديق للادخار . انها لقاء بين دول العالم ، قويها وضعيفها ، فقيرها وغنيها . واللقاء بين هذه الدول ضرورة انسانية تمليها عوامل كثيرة ، اهمها الحرص على سلام العالم ، واحلال التفاهم محل الخصومات والنزاع

بين الشعوب . فهل قدمت الدول المتقدمة ماتحتاج اليه الدول النامية من معونة ؟ **وهل اسهمت تلك فعلياً في خطط التنمية هذه ؟**

ان مجموع المعونات التي قدمتها الدول المتقدمة غير الشيوعية والمنظمات الدولية سنة ١٩٦٢ لم تتجاوز ٨ مليارات دولار. وفي سنة ١٩٦٣ بلغت هذه المعونات ٨١٦٩ مليون دولار، اي بزيادة لا تتجاوز ٢٪ عن السنة التي سبقتها . وهي في سنة ١٩٦٤ وسنة ١٩٦٥ لم تزد كثيراً ، على الارجح ، عن عشرة مليارات. فهي ، في جميع الاحوال ، غير كافية ، ولا تظهر نتائجها في مدى قصير ، بل ربما تختفي تماماً .

واذا تركنا جانباً اسلوب استخدام هذه المعونات من قبل البلاد النامية ذاتها ، (فذلك موضوع آخر يحتاج الى شرح خاص) ، حق لنا أن نتساءل : لماذا **تُقدَّم هذه المعونات ؟ ومن يقدمها ؟**

ان العوامل السياسية تأتي في طليعة الاسباب الحافزة على تقديم هذه المعونات. فللمعين حظوة عالمية ونفوذ على من يتلقى العون. ان رعايا الدول المعينة وخبراءها وتجهيزاتها وثقافتها ، يرتعون في ارجاء البلاد المعانة . المعونة التي تقدمها دولة لأخرى هي نوع من **الوجود** ، والامتداد عبر المكان ، خارج حدود الدولة المعينة . وفي كثير من الأحيان لم يخل العون الذي تقدمه الدول من شروط سياسية مخجلة ، أقلها حق « الاطلاع » و « التدخل » في شؤون التنظيمات المالية والتشريعية والادارية للدولة المستفيدة من المعونة . فاذا حدث ان تمردت هذه ، لسبب او لآخر ، على الدولة صاحبة العون ، توقفت المعونة عنها فجأة . ذلك ماحدث للهند مع الولايات المتحدة ، ولألبانيا مع الاتحاد السوفيتي . في معونة « الكبير للصغير » نوع من « الحماية » يحرص الكبار على بقائها واستمرارها . انها تدغدغ روح السلطان عندهم ؛ انها تأكيد لقوتهم وسطوتهم . ومن الراجح انه لم تقدم

حتى الآن معونة لدولة نامية ، خلت من اي عامل سياسي بالنسبة للدولة المعينة . فالغرب بصورة خــاصة ، والغرب البورجوازي الاستعماري بصورة أخص، يقدم معوناته السنوية بعد ان يكون قد عجنها بمصالحه واستثماراته ونفوذه، ومختلف اشكال التسلط والوصاية التي يمارسها على الدول الضعيفة .

والانصاف يقتضينا ألا نهمل وجود عوامل اخرى غير العامل السياسي في موضوع معونة البلاد النامية . ان ثمة حرصاً على توطيد السلام والطمأنينة لدى الشعوب . ووجود هذا الفارق ،المتزايد الشدة ، بين بلاد متقدمة وبلاد متخلفة ، يذكي القوة والصراع بين شعوب العالم بدلاً من ان يخففها ، ويهدد بالتالي سلامة البشرية كلهـا ، فاذا لم تستمر الدول المتقدمة في مساعدة الدول النامية والمتخلفة — بشرط ان تكون المساعدة نتيجة شعور بالواجب الانساني — وفق خطة جدية واسعة ، تضمن تحقيق التقدم للمتخلفين ، فان عام ٢٠٠٠ المقبل سيشهد دولاً متقدمة ، تمثل حوالي **ربع سكان العالم ، يتمتع الفرد فيها بدخل يفوق اربعين** مرة دخل الفرد في البلاد النامية او المتخلفة (التي ستكون ثلاثة أرباع البشرية آنذاك) . وليس ثمة من يتصور نتائج مثل هذا التفاوت الرهيب . ان كثيرين من الساسة وعلماء الاقتصاد المعاصرين يرون في هذا العامل ، السبب الاول في استمرار الصراع على مستوى عالمي . فالحرص على السلامة ، يقابله من ناحية أخرى جهد يصرف في تقويض أسس السلامة ذاتهـــا ، والصراع بين المتقدمين والمتخلفين، هو احدى الظاهرات الكبرى الانسانية في القرن العشرين ، يجب ان ينظر اليه لا على أنه قدر ، بل على أنه ظاهرة مرضية تحتاج الى علاج إن التعايش السلمي بين الشعوب ليس شعاراً للاستهلاك بقدر ماهو **حاجة لبقـــاء الانسانية** . والغريب في أمر هذا التفاوت الراهن ، ان أكثرية البلاد المتخلفة

والنامية هي بلاد سكانها ملونون (الصفر، والسود، باستثناء اليابان التي لم تعد بلداً متخلفاً). وان مجموع البلاد المتقدمة سكانها من البيض، وان أكثرية البلاد المتخلفة كانت مستعمرات قبل الحرب العالمية الثانية، تحررت بعد نضال شعبي طال أمده، وان معظم البلاد المتقدمة كانت وما يزال بعضها، دولاً استعمارية. فحركة التحرر أدت اغراضها السياسية، ولكنها لم تؤد بعد الى التقدم والرخاء، ثم ان احترام التعايش السلمي يشترط ازالة التفاوت بين الشعوب، وما من شك في ان بعض المعونات العالمية الراهنة تنطلق من هذا المفهوم.

ولكن للاعتبارات الاقتصادية دورها أيضاً في هذه المعونات. ان تخلف ثلثي سكان العالم حالياً يفيد الثلث المتقدم. فالبلاد المتخلفة والنامية هي بلاد مصدرة للمواد الأولية، مستوردة للمواد المصنوعة. وإذ ان قيمة العمل البشري تزداد باستمرار، فان الانتاج المصنوع تزداد قيمته بالقياس الى قيمة المواد الاولية، وينتج عن ذلك ان التجارة الخارجية للبلاد المتقدمة تحسن قيمتها على حساب تجارة البلاد المتخلفة.

ومن سنة ١٩٥٠ الى سنة ١٩٦٢ انخفضت قيمة الطن الواحد من المواد الأولية التي تصدرها البلاد المتخلفة بنسبة ٤٪ بينما ارتفعت قيمة الطن الواحد من المواد المصنوعة التي تصدرها البلاد المتقدمة بنسبة ١٩٪؛ معنى ذلك أن البلاد النامية قد خسرت في تلك الفترة حوالي ٢٣٪ من ثرواتها.

واذا عرفنا ان البلاد المتخلفة مضطرة الى ان تبيع موادها الاولية الى البلاد الصناعية المتقدمة، لاسباب عديدة لم تعد خافية على احد، ادركنا ان البلاد المتقدمة هي التي **تحدد السعر العالمي للمواد الأولية**، بوصفها هي المستهلكة لها. فالاستعمار الجديد هو هذا الاسلوب من التبعية الاقتصادية التي تلحق المتخلفين بالمتقدمين. وبديهي ان تضع الدولة

النامية يجعلها تفيد مباشرة من ثرواتها الأولية ، وتتحرر بالتالي من رحمة الاحتكار العالمي للشركات الكبرى ؛ ولكن هذا التصنيع هو جزء من خطة التنمية للدولة النامية ، وهو يتطلب من الدولة كما قلنا في مطلع البحث ان ترصد حوالي ٢٨ ٪ من انتاجها القومي كل سنة لاغراض التنمية ورفع مستوى الانتاج والدخل .

ثم ان حاجة البلاد الصناعية الى المواد الأولية المتوفرة عند المتخلفين ، تقل تدريجياً بسبب التقدم التقني من جهة ، وتقنين الاستثمارات من جهة اخرى . ففي سنة ١٩٥٨ اشترت البلاد الصناعية من البلاد النامية ٥١ ٪ من المواد الاولية التي تحتاجها ، وفي سنة ١٩٦١ هبطت هذه النسبة الى ٤٨ ٪ .

هذا ماحدا ببعض الباحثين الاجتماعيين والاقتصاديين الى القول إن الصناعة **الرأسمالية تقوم بعملية نهب لبلادالعالم الثالث** . وعنوان كتاب بيير جالي : « نهب العالم الثالث » بليغ بحد ذاته[1] **لان البلاد الرأسمالية تأخذ من العالم الثالث مواده الاولية بأثمان بخسة ، ثم تبيعه منتجاتها المصنوعة بأسعار متزايدة في الارتفاع** ، فالمعونة التي تقدمها له بالنتيجة ، **ليست معونة بقدر ماهي تعويض عن حيف صارخ تلحقه به** .

ومما يقول القائلون : **إن المبادىء** الانسانية وشرائع الاديان قد ألحت ـ ومازال ـ على وجوب اعانة بني البشر بعضهم بعضاً ، لأن في ذلك بقاءهم واستمرار وجودهم في جو تضامني انساني ، فمثل هذه النظرة ماانفكت طوبائية الى حد كبير . ان المعونات التي يقدمها العالم المتطور الى العالم الثالث أبعد ماتكون اليوم عن هذا التفكير . **إنها اليوم كما كانت بالأمس ، تستهدف « مكانة » المعين**

(١) بيير جالي : « نهب العالم الثالث » Pierre Jalée - Le Pillage du Tiers - Monde - Editions Maspero, Paris 1965 وستقوم وزارة الثقافة السورية قريباً بترجمة هذا الكتاب الى العربية ونشره .

و « كرامته » ، تستهدف استمرار تفوق المتقدمين بقدر ماتستهدف استمرار تخلف المتخلفين فهي في أزهى ايام تألقها تظل ناقصة ولاتكفي نصف الحاجة التي تفرضها خطط التنمية على بلاد العالم الثالث . وهي في كثير من الاحيان تنفق على شراء السلع الاستهلاكية من البلد المعين .

ومازالت المعونات الثنائية الجانب (التي تقدمها دولة معينة الى دولة معينة) تطغى على المعونات المتعددة الجوانب (التي تقدمها المنظمات الدولية الى دولة معينة) . ثمة من يرى في الاولى أخطاراً على السلامة القومية للدولة المعانة . وآخرون يعتقدون ان بيروقراطية المنظمات الدولية تذيب الكثير من فوائد المعونات التي تقدمها هذه .

* * *

فريقان اذن يقدمان المعونة الى البلاد النامية :

أ – المنظمات الدولية :

(البنك الدولي للانشاء والتعمير ، هيئة الامم المتحدة ، اليونسكو ، منظمة الزراعة والتغذية .. الخ ..)

ب – الدول ذاتها .

لقد أنشيء البنك الدولي للانشاء والتعمير سنة ١٩٤٤ ، وهو الآن يصرف اكثر جهوده لمعونة البلاد المتخلفة ، تجاوز رأسماله (حتى منتصف ١٩٦٥) ٢١،٦ مليار دولار اكتتبت بها ١١٢ دولة .

ولكن $\frac{١}{١٠}$ رأسماله هذا فقط قد تمت تغطيته ولايستطيع البنك ان يتصرف الا بما دفع له بالدولارات ، أي مايعادل ١٪ من رأسماله . فهو مثلا في سنة ١٩٦٥ قد تصرف بمبلغ ٨١٠ مليون دولار وقدمها على شكل معونات وقروض . ويلجأ احيانا الى ان يستدين من المصارف العالمية او من بعض الدول ليقدم كامل المعونات التي التزم بها . وقد بلغ مجموع مااستدانه حتى حزيران ١٩٦٥ حوالي ٢،٧ مليار دولار بفائدة تتراوح بين

٣-٥ و٥٪ وهو بدوره يدين هذه الأموال الى الدول المحتاجة اليها بذات الفائدة التي استدان بها مضافاً اليها ١٪ على شكل أجر له (كومسيون) .

ويساعد البنك الدولي منظمة اخرى تسمى - الهيئة الدولية للتنمية - International Development Association رأسمالها حوالي مليار دولار ، وقد بلغ مجموع القروض التي تقدمها هذه الهيئة اكثر من مليار دولار حتى سنة ١٩٦٥ . ومعروف ان شروط قروضها اخف بكثير من شروط قروض البنك الدولي .

اما الدول التي تأتي في رأس قائمة الدول المعينة ، فهي التي تشكل مايسمى بـ « لجنة المعونة للتنمية Comité d'Aide du Développement » وتتألف من : الولايات المتحدة - فرنسا - انكلترا - بلجيكا - المانية الغربية - البرتغال - كندا - النرويج - هولندا - الدانمرك - النمسا - اليابان - ايطاليا .

وقد بلغت المعونات التي قدمتها هذه الدول سنة ١٩٦٤ حوالي ٨٦٥٠ مليون دولار ؛ فاذا اضفنا اليها المعونات التي قدمتها بلاد الكتلة الشيوعية ، والتي تبلغ حوالي (٤٥٠) مليون دولار ، امكننا القول ان مجموع المعونات التي يقدمها العالم المتقدم الى العالم الثاني لايتجاوز ٩٥٠٠ مليون دولار في السنة .

* * *

قلنا ان حاجة البلاد النامية من الأموال ، لتامين رفع مستوى الدخل القومي عندها بنسبة ٧ ٪ قد بلغت في سنة ١٩٦٢ حوالي ٥٠ مليار دولار . اما في سنة ١٩٦٧ فمن المحقق ان هذه الحاجة تتجاوز الخمسة والخمسين ملياراً من الدولارات ، وان البلاد النامية ذاتها لن تستطيع ان تؤمن لنفسها منها - عن طريق الاقتطاع من دخولها القومية السنوية - أكثر من ٣٠ ملياراً . وهكذا تظل حاجتها الى تغطية الفروق بين الرقمين قائمة . اي انها تحتاج الى اكثر من (٢٥) مليار دولار في

هذه السنة لأغراض التنمية ، يجب ان تأتيها من الخارج على شكل معونات فعلية ونزيهة لاغاية لها الا المساعدة على تحقيق خطط التنمية التي تضعها بلاد العالم الثالث ، وقد رأينا ان معونة البلاد المتقدمة ، بالرغم من كونها مشحونة بالعوامل المتناقضة — عوامل المصلحة واثبات الوجود ، وتأمين الاسواق الخاصة ، والسطو السياسي ، والظهور بمظهر المدافع عن حقوق الشعوب في الحياة الكريمة ، وسوى ذلك — فهي تظل قاصرة عن بلوغ الرقم المطلوب. يحدث ذلك في الوقت الذي ينفق فيه العالم المتقدم — والغرب بصفة خاصة — اكثر من مائة وخمسين مليار دولار سنوياً على نفقات التسلح وتطوير الاسلحة النووية — الهجومية والدفاعية — . ويحدث ذلك ايضاً في الوقت الذي تتشدق فيه جميع الدول الكبرى عن حاجة العالم الى التقدم والازدهار في ظل سلام انساني، وتعايش أخوي بين الشعوب على اختلاف انظمتها واساليب الحكم فيها .

وفي اثناء ذلك تظل اسطورة «المعونة الى البلاد النامية » التي يتفضل بها « العالم المتقدم » على « العالم الثالث » أداة تخدير لهذا ، وسلاح دعاوة لذاك ، وكان حرياً بالعالم الثالث نفسه الا ينزلق في هذا الإغراء . ليس معنى ذلك ان ترفض البلاد النامية المعونات التي تأتيها من الخارج ، بل المطلوب منها ان تتلقى هذه المعونات دون أطر « التبعية » التي ترافقها . إن العالم الثالث قد دفع ثمناً غالياً جداً من دماء ابنائه وجهودهم وكفاحهم ، حتى حقق تحرره من الاستعمار ، وعليه ألا ينسى هذا الثمن ، وألا يبيع حريته لقاء « قمح ، وسيارات ومحطات إلكترونية وسلع استهلاكية مختلفة » تأتيه من الدول المتقدمة باسم « معونة » . كما ان عليه أن يدرك بأن معونات المتقدمين ليست منّة ولا فضلاً ، بل هي واجب اساسي لا سبيل الى نكرانه اذا اريد فعلاً للسلام العالمي ان يستمر ؛ وهذا يدعوه الى ان يقف من جميع المعونات التي قد تأتيه من الغرب

او الشرق موقف السيد الحر القادر في اي وقت على الاستغناء عنها متى احس بأنها ستصبح غلاً لتطويقه . وأخيراً يحسن بالعالم الثالث ان يدرك جيداً بأن أية معونة تأتيه من الخارج يجب ان يفيد منها كوسيلة لتحقيق خطط التنمية التي وضعها بنفسه والتي تتطلب من ابنائه ، قبل سواهم ، ان ينهضوا بها ويدأبوا لتحقيقها . وقد تكون حاجة العالم الثالث الى الموارد الفائضة والمعونات الخارجية لتحقيق اغراض التنمية ، أقل بكثير من حاجته الى العقول الواعية الجذبة التي تحسن وضع خطط التنمية كما تحسن متابعة تطبيقها .

مراجع البحث :

1 — Ives Lacoste - géographie des pays sous - développés P. U. F. paris 1966
2 — François Luchaire - L'Aide aux pays sous - développés P. U. F. Paris 1966
3 — Perspectives polonaises (Revue) - 9° année (№ 8 - 9) août - Septembre 1966 - Varsovie